الأشتراكية

حلم وعلم وحل ومستقبل



حزب إشتراكى ثورى
للعمال والفلاحين
لايرقص للقرد فى دولته

العامل
عطية الصيرفى

الاشتراكية حلم وعلم
وحــل ومستقبـل

حــزب اشتــراكي ثــورى
للعمال والفلاحين
لا يرقص للقرد في دولته

العامــل

عطيــة الصيرفــى

الإهداء إلى ثلاث نساء في حياتي

- إلى أمي الكادحة هانم التي هذبت وحيدها ونفخت فيه من روحها تعرف الصمود ولم تغضب منه بسبب نشاطه السياسي ومخاطره. بل كانت تخفي أوراقه الممنوعة وتستضيف زملاءه من مطاريد الكفاح ضد الملك والاستعمار وتجري وراء وحيدها في السجون والمعتقلات وأثناء احتضارها قبضوا على وحيدها فجاوبتها صحوة فنظرت تقول وداعا ياولدي سوف تعود رغم أنوفهم سالما ..
- إلى زوجتي الكادحة الغالية إفراج التي حملت هموم أمي بأمانة فلم تتضايق من زوجها بسبب نضاله النقابي والسياسي وعاشت معه عيشة البؤس والحرمان. راضية مرضية استقبلت زملاءه مطاريد السلطة وأكرمتهم وهرولت خلفه في السجون والمعتقلات حاملة إبنتها ووحيدتها هانم حتى ماتت زوجتي بداء القلب رحمة الله عليها.
- إلى ابنتي الوحيدة هانم التي ورثت هموم جدتها ومتاعب أمها بشأن رعاية والدها .. فعاملته بحنان وود ما بعده ود وقدمته على أولادها وزوجها وتابعته في السجون وحضرت تحقيقاته في الشرطة والنيابة وشاركته في ممارسة نشاطه الشعبي والانتخابي واصطدمت بتعسف السلطة مما أدى لحرمان أبنائها من دخول بعض الكليات لأن أمهم هـــانم عطية الصيرفي.

الفصل الأول

غسق الاشتراكية زائل زائل

الاشتراكية حلم لا يموت

تعيش البشرية الأجيرة والكادحة والمنتجة فوق الكوكب الأرضي حياة بائسة يسودها الفقر والقهر فور أفول الاشتراكية بسقوط الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي في أوربا الشرقية . حيث وقب على الاشتراكية في السنوات الأخيرة غسق معتم من جراء التنكر لها وإهمالها ونسيانها وجحدها من كثير من أهل القلم والنون من اليساريين الذين كانوا يحجون ويعتمرون مرارا إلى كعبتها موسكو وكانوا يرددون آياتها وأدبياتها كنصوص مقدسة ثم انقلبوا على أعقابهم معلنين البراءة كل البراءة منها تزلفا وقربى للسيد الواحد الأحد رأس المال واستعماره وعولمته وقطبيته الوحدانية المطلقة على الأرض .

مع العلم أن الأفول الذي اعترى الاشتراكية ليس سرمديا وأن الغسق الذي وقب عليها بظلمته وشره المستطير لم يغط كل سمائها التي ما زالت يتلألأ في رحابها نجوم الاشتراكية الحمراء في الصين وفيتنام وكوبا وكوريا الديمقراطية .

فضلا عن هذا فالاشتراكية تتشخص علميا وواقعيا بأنها والعدل الاجتماعي صنوان وأن اسمها مرادف لاسم العدل الاجتماعي شكلا ومضمونا . ومن ثم فهي التجسيد الحي للعدل الاجتماعي بشقيه المادي والروحي مما جعلها حلم حياة البشرية الكادحة والمنتجة من عبيد وأقنان وفلاحين وعمال يعملون بأيديهم وأدمغتهم .

ولهذا قد كان الحلم الاجتماعي العظيم مظهرا من مظاهر فجر الضمير الإنساني باعتباره أول بادرة من بوادر الوعي الإنساني والطبقي في التاريخ حيث أدرك الإنسان الكادح والمنتج ذاته الكادحة والمنتجة ومن ثم فمن حق هذه الذات الإنسانية أن تحظى بالمساواة والعدل الاجتماعي من منطلق طبيعتها المنتجة ومن منطلق حنينها الغريزي إلى المساواة التي تحققت في مجتمعات الشيوعية البدائية السابقة على مجتمعات الطبقات .
إن هذا الوعي الطبقي الجديد قد انبثق من واقع الحياة المادية للبشر وعلاقتهم الاجتماعية الجديدة فور انقسام المجتمع البشري إلى طبقات

حاكمة ومالكة ومستغلة (بكسر الغين) وطبقات محكومة ومستغلة (بفتح الغين) ومقهورة . ومن جراء ذلك ظهر المجتمع العبودي ثم المجتمع الإقطاعي ثم المجتمع الرأسمالي ثم المجتمع الاشتراكي . فالمجتمع العبودي كان يتكون من طبقة الأسياد وملاك العبيد الحاكمين والمالكين للأرض وما عليها من نبات وحيوان وجماد وأنهار وعبيد ملكية مطلقة . فالعبد وزوجه وأطفاله ملك لسيده وقوة عمله وتشغيله مثل حيوانات الجر وفق إرادة سيده وحاجته إلى مزيد من الإنتاج . وحتى شخصيته الإنسانية وموته وحياته ملك لسيده أيضا بقوة سلطة المجتمع المادية ممثلة في القوة العسكرية وممثلة في سلطته الروحية ذات الوعي العبودي الذي يبرر استعباد العبيد بواسطة علاقات عبودية لا حدود لوحشيتها إلى حد أن أسياد العبيد كانوا يدفعون عبيدهم إلى مصارعة بعضهم البعض حتى الموت ومصارعة الوحوش حتى الموت بقصد الترفيه والتسلية .

وتكون هذا المجتمع العبودي أيضا من طبقة العبيد المحكومين والمستعبدين في الزرع والضرع والحرفة والصنعة وفي الأشغال العامة وفي جر السفن في الأنهار والبحار وفي مصارعة بعضهم البعض حتى الموت ومصارعة الوحوش حتى الموت للترفيه عن سادتهم .

إن حياة العبيد هذه قد ولدت الوعي الطبقي في صفوفهم هذا الوعي الذي تجلى في ظهور حلم العبيد في التحرر من العبودية وفي تحقيق المساواة والعدل الاجتماعي .

وبفضل هذا الوعي فقد انبثق الصراع الطبقي لأول مرة في التاريخ البشري وذلك من خلال ثورات العبيد ذات المضمون التحرري والاجتماعي وذلك مثل ثورة العبيد العظيمة بقيادة العبد السوري البطل سبارتكوس .

إذن فإن ظاهرة الصراع الطبقي الجديدة التي تجلت في ثورات العبيد كانت صاحبة الفضل في إسقاط المجتمعات العبودية ومحو وإزالة العلاقات العبودية مما أدى إلى وقوع حدثين هامين في قلب التاريخ البشري ... (الحدث الأول) بروز ظاهرة العدل الاجتماعي مجسدة في تحقيق الاشتراكية في هذا الزمن الموغل في التاريخ (الحدث الثاني) هو ظهور المجتمعات الإقطاعية.

فالمجتمع الإقطاعي قد تأسس من طبقة السادة الإقطاعيين الحاكمين والمالكين بما لديهم من وعي طبقي وحلم طبقي يبرران لهما الحق في

امتلاك الأرض وما عليها ملكية شبه مطلقة وأن لهم الحق في تملك قوة العمل للأقنان والفلاحين بدون حدود من خلال تسخيرهم في أشغال الزرع والضرع والأشغال العامة بواسطة السخرة والعمل الإكراهي وذلك بالإضافة إلى حق السيد الإقطاعي في قضاء الليلة الأولى لأي عروس من بنات الأقنان والفلاحين . وقد تأسس المجتمع أيضا من طبقة الأقنان والفلاحين المحكومين والمسخرين سخرة مستمرة في خدمة السادة الإقطاعيين تنفيذا لعلاقات العمل الإقطاعية . هذه العلاقات التي فجرت الثورية الكامنة لدى الأقنان والفلاحين فولجوا مجال الصراع الطبقي من خلال حروب الفلاحين في أوربا وغيرها باعتبارها وسيلتهم الكفاحية للخلاص من الإقطاع وسخرة الإقطاعيين وتحقيق المساواة والعدل الاجتماعي .

ولقد دعمت حروب الفلاحين هذه جماهير الطبقة الرأسمالية الناشئة والمنبثقة من رحم النظام الإقطاعي كما دعمت الوجود الجديد للطبقة العاملة الحديثة ومن ثم فقد تحالفت الطبقة الرأسمالية مع طبقة العمال الكادحين لشن الصراع الطبقي ضد النظام الإقطاعي للخلاص منه باعتباره العدو الطبقي لمصالحهما .

ومع هذا لتطور الثوري الذي حققه الصراع الطبقي ظهرت الطبقة الرأسمالية الحاكمة والمالكة التي تضخمت بسرعة نتيجة للثورة الصناعية واستغلال العمال في أوطانها ثم اتجاهها نحو الاستعمار لاستغلال الشعوب المستعمرة ونهب ثرواتهم وذلك وفقا لأحلامها في الاستغلال والاستعمار .

وفي نفس السياق التاريخي والزمني ظهرت الطبقة العاملة باعتبارها آخر الطبقات الاجتماعية التي تعرضت لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان وذلك في مواجهة طبقة رأس المال التي مارست استغلالها من خلال زيادة ساعات العمل وضآلة الأجور والفصل التعسفي والنقل الإكراهي والبطالة والجوع والفقر مما اضطر الطبقة العاملة إلى شن صراعها الطبقي بثوراتها وإضراباتها ومظاهراتها ذات المضمون الاجتماعي التي حققت للعمال اليدويين والذهنيين شخصيتهم العامة والمستقلة وتأسيس نقاباتهم وأحزابهم العمالية والاشتراكية وتحقيق حياة أفضل في مجال الأجور والحياة المعيشية . ومع زيادة حدة الصراع الطبقي فقد اكتسبت الطبقة العاملة صفتها السياسية وتعاظمت طموحاتها السياسية الأمر الذي دفعها إلى تحقيق سلطتها العمالية والطبقية والاشتراكية الخالية من استغلال

الإنسان لأخيه الإنسان . هكذا ظهرت الطبقات المتصارعة والمتناقضة ومعها وعيها المتناقض وأحلامها المضادة بعضها لبعض مما أدى إلى بروز ظاهرة الصراع الطبقي لأول مرة في التاريخ البشري فنشبت الحروب الطبقية التي كانت سجالا بين الطبقات فوقعت هزائم وانتصارات تخللتها مذابح دموية حيث سقطت طبقات وقامت طبقات غيرها دليلا على التطور المادي للتاريخ الملطخ بدماء البشر ولهذا فقد صدق "كارل ماركس" عندما قال إن التاريخ هو تاريخ صراع الطبقات.

إن هذا التاريخ الطبقي وأهواله يعطينا دروسا هامة وعظات بالغات أهمها أن كل طبقة اجتماعية من الطبقات الحاكمة والمحكومة ذات وعي طبقي لا يبارحها في شدتها وفي رخائها وذات حلم اجتماعي كامن في وجدانها يصول ويجول في خيالها حتى يستبد فيتفجر ثوريتها الكامنة أو مقاومتها من خلال صراع طبقي القصد منه تحقيق حلمها الاجتماعي وطموحاتها الطبقية .

ومن هنا فإن الطبقة العاملة باعتبارها القوة المنتجة الأكثر عددا والأشد فقرا في ظل الرأسمالية وبسببها لن ولم تتخلى عن حلمها في المساواة والمؤاخاة والخبز والحرية والعدل الاجتماعي من خلال تحقيق الاشتراكية الديمقراطية باعتبارها حلم حياتها وحلم حياة البشرية الكادحة والمعاصرة وبالتالي فإن الغسق الذي اعترى الاشتراكية ووقب عليها غسق زائل زائل بقدوم فجر الاشتراكية وشمس الحياة والتاريخ .

الاشتراكية شمس الحياة والتاريخ

هكذا ظل التاريخ البشري القديم والوسيط والمعاصر تكتسي سنواته الطويلة بظلام اجتماعي دامس طفحت به حروب الطبقات وصراع الطبقات باعتبارهما الوسيلة الكفاحية ذات المضمون الاجتماعي للطبقات الكادحة وذلك في مواجهة مظالم استعباد الإنسان لأخيه الإنسان في المجتمع العبودي وتسخير الإنسان لأخيه الإنسان في المجتمع الرأسمالي وفي مواجهة بقايا الاستغلال في بداية قيام المجتمع الاشتراكي .

ولذلك فإن التاريخ البشري وظلامه يشبه الليل القطبي في ظلامه الذي لم تنفذ إليه شمس الحياة إلا لحظات معدودات هذه الشمس الساطعة التي

لم تنفذ أيضا إلى ظلام التاريخ البشري المعتم متجلية في الاشتراكية وعدلها الاجتماعي إلا في فترات زمنية محدودة فور نهوض وعي الطبقات الكادحة بالظلم الاجتماعي وإدراكها لمصادر هذا الظلم الذي حاق بها طويلا طويلا وذلك بالإضافة إلى شوقها الغريزي للمساواة بين البشر كل البشر .

وبالتالي فإن الاشتراكية باعتبارها العدل الاجتماعي وحلم البشرية الكادحة في المساواة فقد نظرت البشرية إلى الاشتراكية نظرتها إلى الجنة الدنيوية فبادرت بتطبيقها في بلاد مختلفة وشعوب مختلفة وأزمنة مختلفة مما يثبت أن الاشتراكية هي الحياة والمستقبل الأفضل للكادحين عموما .

الفصل الثاني
الاشتراكيات القديمة

الاشتراكية الفرعونية
اشتراكية الأرض واشتراكية الخلود

لا أغالي إن قلت أن الإنسان المصري الكادح والمنتج هو أول إنسان على الأرض مارس الصراع الطبقي حيث قفز في قلب التاريخ من المجتمع الشيوعي البدائي وما فيه من مساواة في الإنتاج ومساواة في التوزيع .. إلى المجتمع الإقطاعي حيث تسخير الإنسان لأخيه الإنسان بدون المرور بالمجتمع العبودي وعلاقاته العبودية باستعباد الإنسان لأخيه الإنسان .. ومن ثم فالفلاح المصري لم يحمل اسم الرقيق على حد تعبير العلامة "أميل لودفيج" ..

وبالتالي فالمصري هو أول إنسان كادح على الأرض يبادر بقيام ثورة اجتماعية في العصر العتيق . ولا يعني هذا إلا أنه قد انتقل مبكرا من مرحلة الإحساس إلى مرحلة الإدراك ثم إلى مرحلة المفهوم ومرحلة الوعي . حيث عرف أمته الفلاحية وذاته المحاربة فور ولوجه الزرع والضرع والحرفة والصنعة وولوجه الصراع الطبقي دفاعا عن نفسه وعن أمته المصرية وذلك خلافا لما يراه العلامة "أميل لودفيج" بقوله .. والنيل منذ الأزمنة القديمة حمل الفراعنة على تأليف أمة من الفلاحين لا أمة من المحاربين ..وهذا غير صحيح فالمصري القديم كان فلاحا يمارس الزرع والضرع وصانعا في الحرفة والصنعة ومعماريا يشيد العمارات والقبور والأهرامات ومهندسا في الري والصرف والإنشاءات وطبيبا وفلكيا ومساحا يمسح الأرض ويقيسها وكاتبا وحاسبا وإداريا وجنديا يؤيد ذلك معالم ومظاهر الحضارة الفرعونية . والحروب والفتوحات العسكرية في مصر القديمة .. ولعل كلام "أميل لودفيج" ينطبق على مصر في عهد الغزاة الذين سجنوا المصريين سجنا مطلقا في الزرع والضرع وفي الحرفة والصنعة والأشغال العامة دون الجندية ومجالها العسكري ودون الحرب والقتال وذلك خوفا من تنمية روحهم العسكرية والقتالية . هذه الروح التي

تدفعهم حتما إلى الثورة وممارسة الصراع الطبقي ضد الغزاة المحتلين والمستوطنين في مصر المحروسة ..

ذلك هو الإنسان المصري الكادح والمنتج والمحارب الذي أثبت وجوده الحيوي والفعال في المجتمع الفرعوني حيث تصدى لنظامه الإقطاعي ومظالمه الاجتماعية .. فثار فلاحو مصر وصناعها واستشاطوا غضبا على سادتهم الإقطاعيين فأسفرت الثورة عن كسر شوكة الأغنياء والكهنة . وتدوم الثورة مدة طويلة في أواخر الدولة القديمة من سنة ٢٣٥٠ إلى سنة ٢١٥٠ قبل الميلاد .

ويصف لنا الحكيم المصري القديم "ايبور" هذه الثورة الطبقية والاجتماعية فيقول .. إن البؤس العام الذي حل بالبلاد من سرقة وقتل وتخريب وقحط وتشريد الموظفين . وتفكيك الإدارة . والقضاء على التجارة الخارجية . وغزو الأجانب للبلاد . وتولية الغوغاء مراكز الطبقات العليا . وإن أهل الصحراء قد حلوا مكان المصريين في كل مكان . وأصبحت البلاد ملأى بالعصابات . حتى أن الرجل كان يذهب يحرث أرضه ومعه درعه . وشحبت الوجوه . وكثر عدد المجرمين . ولم يعد هناك رجال محترمون . وكثر عدد الموتى حتى أصبحت جثثهم من الكثرة بلا دفن . وأصبح أصحاب الأصل الرفيع مفعمين بالحزن . بينما أصلا الفقراء سرورا . وكل بلد تنادي فليقصي أصحاب الجاه عنا . وأصبح اللص صاحب ثروة . وصار الذهب والفضة والياقوت تحلي جيد الجواري أي الفقيرات . بينما تمشي السيدات النبيلات في طول البلاد يقلن ليت لدينا بعض الشيء لنأكله . وأصبح الذين كانوا يرتدون الكتان الجميل يجلدون . واضطرت سيدات الطبقة الراقية اللاتى كن يسكن البيوت إلى العمل الشاق في حرارة الشمس ..

ويبدو أن الحكيم المصري "ايبور" كان منحازا لطبقة الإقطاع المصري ولهذا يصف هزيمة السادة الإقطاعيين وانتصار الفقراء بفضل هذه الثورة فيقول أيضا بمرارة .. وانظر فقد حدثت أشياء لم تحدث فيما مضى . إذ اغتصب الفقراء القبر الملكي . وأصبح الملك الذي دفن كصقر يرقد على نعش وآل الأمر إلى أن حرمت البلاد من الملكية بسبب بعض القوم الذين لا شعور لهم . وأظهر الناس العداء للملك . وأفشيت الأسرار الملكية . وأصبح مقر الملك رأسا على عقب . وحدث أن الذي لم يكن يستطيع أن

يقيم لنفسه حجرة يملك فناء مسورا . وطرد حكام البلاد وأصبحوا ينـامون في المخازن . واضطرت السيدات الكريمات أن ينمن على الفراش الخشن وأصبح الرجل الميسور ينام ظمآن . ومن كانت لا تملك صندوقا أصبحت صاحبة صوان ومن كانت تشاهد وجهها في الماء أصبحت صاحبة مرآة..

ثم يبادر الحكيم المصري إلى تحريض المصريين على ممارسة الصـراع الطبقي المضاد والثورة المضادة فيقول .. قاوموا أعـداء الجـالس علـى العرش ودمروا خصوم المقر الملكي صاحب الموظفين المتفوقين وصـاحب القوانين العدة ..

هكذا وصف لنا الحكيم المصري القديم أهم ثورة طبقية واجتماعية ضد الإقطاع في مصر القديمة قام بها الفلاحون والصناع المصريين وحققـوا بها نصرا اجتماعيا ملحوظا فتغيرت حياتهم الاجتماعية إلى حيـاة أفضل حيث تأكدت اشـتراكية الأرض (بجعـل الأرض ملكيـة عامـة) وتـأكدت اشتراكية الخلود بالسماح لهم بالتساوي مع السادة في بناء القبـور وفـي مراسم الجنازات والتساوي كذلك في البعث والنشور ..

إن تحقيق اشتراكية الأرض من خلال ملكيتها العامة للدولة الفرعونيـة والإقطاعية . واشتراكية الخلود من خلال مشاركة العامة مـن الفلاحين والصناع المصريين في المراسم الجنائزية العامة والمقابر العامـة أسـوة بالصفوة الفرعونية والإقطاعية قد لعب دورا في نهوض الحياة المصريـة في كل مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية مما جعل الحضـارة الفرعونية من أرقى الحضارات في التاريخ القديم ..

والأمر المثير للانتباه أن هـذه الاشـتراكية الفرعونيـة ذات الطبيعـة الإقطاعية قد حققت الرخاء والتنمية مما يعني أن مصر الجغرافيا والتـاريخ لن ولم تتقدم وتتطور اقتصاديا واجتماعيـا وسياسـيا إلا بفـض تطبيـق الاشتراكية حيث أثبتت الأيام تطور مصر على هذا النحو في ظل الاشتراكية الفرعونية وفي ظل اشتراكية أفندينا محمد علي السان سيمونية وفي ظـل الاشتراكية الناصرية بصرف النظر عن شوائب هذه الاشـتراكيات لأنـه لا توجد اشتراكية نقية تماما ..

الاشتراكية الصينية

اشتراكية كنفوشيوس وتوزيع الثروة

في سنة ٥٥٠ قبل الميلاد دخلت الصين عصر الإقطاع الذي كان يسمى بعصر الفلاسفة حيث كثر عدد الحكماء والمعلمين والفلاسفة كما كثر عدد الشيوعيين والاشتراكيين في هذه الأيام حيث كان أبرزهم الحكيم والمعلم "كنفوشيوس" الذي لم يكن ثوريا في بداية حياته . إذ قال حينئذ إن من ترفعهم الثورة لم يخلقوا من طينة غير طينة من تطيح بهم الثورة..

ولكن الحكيم "كنفوشيوس" أصبح جرينا فيما بعد وذلك خلال المجد الثوري وصراعه الطبقي الذي كان يغطي الصين في هذه الأيام حيث كتب يقول .. قبل أن تفقد أسرة "شانج" المالكة قلوب الشعب كانوا أحباء الله فليكن فيما حل ببيت "شانج" نذيرا لكم . إن الأمر العظيم لا يسهل دائما الاحتفاظ به . والشعب هو المصدر الحقيقي للسلطة السياسية ذلك أن كل حكومة لا تحتفظ بثقة الشعب تسقط لا محالة عاجلا كان ذلك أو آجلا ..

ويسأله سائل عن الحكم فقال له المعلم .. لابد للحكومة من أن تحقق أمورا ثلاث .. أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام . وكفايتهم من العتاد الحربي . وكفايتهم من الثقة بحكامهم . فقال له السائل فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط فأي هذه الثلاثة يجب أن تلغى عنه أولا فأجاب المعلم العتاد الحربي وسأله مرة أخرى وإذا كان لابد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما يجب أن يتخلى عنه فأجاب المعلم . فليتخلى عن الطعام ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوما على البشر . أما إذا لم يكن للناس ثقة بحكامهم . فلا بقاء للدولة .. ولهذا فقد اعتنق الحكيم "كنفوشيوس" المبادئ الاشتراكية وأطلق فيها لخياله العنان ..

وقد قامت اشتراكية هذا الحكيم على مبدأ التماثل الأعظم فإذا ساد هذا المبدأ أصبح العالم كله جمهورية واحدة . واختار الناس حكامهم من ذوي المواهب والفضائل والكفايات وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة ويعملون على نشر لواء السلم الشامل وحينئذ لا يرى الناس أن آبائهم من ولدوهم دون غيرهم أو أن أبنائهم هم من ولدوا لهم . بل تراهم يهيئون سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم ويهيئون العمل للكهول ووسائل

البقاء للصغار ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء واليتامى وعديمي الأبناء ومن أقعدهم المرض عن العمل . هنالك يكون لكل إنسان حقه . هنالك تصان شخصية المرأة فلا يعتدى عليها وفي هذا العصر الإقطاعي كان الشيوعيون والاشتراكيون لهم تأثيرهم الشعبي في الصين ولهذا نادى "شوشنج" بإنشاء ديكتاتورية الصعاليك حيث ينبغي أن يكون الصناع على رأس الدولة وأن يكون الفعلة هم الحكام . ولقد اعتنق المتعلمون هذه الدعوة الاشتراكية وانضموا تحت لواء "شوشنج" الذي كان يبدو أنه من تلاميذ "كنفوشيوس" ..

وفي سنة ١٤٠ ق.م (قبل الميلاد) قام قائد عسكري ..(جودزو) بانقلاب عسكري استولى على السلطة في الصين وأسس أسرته أسرة هان الحاكمة ومن ثم بادر بتنفيذ اشتراكيته بادئا بإعطاء الشعب حرية القول والكتابة وألغى قانون تجريم وتحريم انتقاد الحكومة وفور شيوع الحريات العامة في الصين قام بتطبيق اشتراكيته فجعل موارد الثروة الطبيعية ملك للأمة واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد وعصر الخمور وبيعها وأنشأ نظاما قوميا للنقل والتبادل التجاري تشرف عليه الدولة وأمم التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار وشرع بإنشاء المؤسسات العامة العظيمة ليوجد بذلك عملا لملايين الناس الذين عجزت الصناعة الخاصة عن استيعابهم . كما أنشأ الجسور على أنهار الصين وحفر قنوات لا حصر لها لربط الأنهار ببعضها البعض لري الحقول هكذا حققت أسرة "هان" اشتراكيتها وما تضمنته من عدل اجتماعي مما أدى إلى تقدم الصين وزيادة رخائها وثروتها فانتشر طلاب العلم والمعرفة وجمع في مكتبة الدولة آلاف الكتب في الأدب والفلسفة والشعر والرياضيات والطب والعلوم العسكرية ولذلك سميت هذه الاشتراكية اشتراكية الرخاء في عهد الرخاء لما حققته من عدل اجتماعي مادي وروحي في كل مجالات الحياة .. وتمضي مئات السنين ويشتعل الصراع الطبقي في الصين ويحدث انقلاب عسكري في الصين بقيادة جندي مقدام فيؤسس أسرة "سونج" ذات الطبيعة البيروقراطية وتبادر هذه الأسرة بتعيين رئيس وزراء اشتراكي متطرف "وانج أن شي" الذي بدأ بتطبيق اشتراكيته من خلال مبدأ عام وهو أن الحكومة يجب أن تكون مسئولة عن رفاهية جميع سكان البلاد ويجب أن تسيطر الدولة على جميع شئون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها

بنفسها وأن يكون الهدف هو غوث الطبقات العاملــة وأن تحــول دون أن يطحنها الأغنياء طحن الرحى . ومن ثم فقد ألغى السخرة وأنقذ الفلاحيــن من المرابين الذين كانوا يستعبدونهم كما أمم التجارة . وفي مجال التعليــم ألغى طريقة الحفظ والتلقين وأشاع التعليم الحواري وبجـــانب ذلــك فقــد خصص معاشات للشيوخ والمتعطلين والفقراء . وقد أدى هـــذا التطبيــق الاشتراكي إلى نهوض الصناعة والعلوم والاختراعـــات فـــاخترع الــورق والحبر والطباعة وظهر أول كتاب مطبوع في تاريخ البشرية .. هكذا كانت الاشتراكية الصينية القديمة باعتبارها العدل الاجتمـــاعي والتقــدم العلمــي والصناعي في كل مجالات الحياة الصينية القديمة ..

الاشتراكية الرومانية

اشتراكية أبي العصر الذهبي

كان "دقلديانوس" الإمبراطور الروماني يسمى بأبي العصر الذهبي وهــو ابن معتوق سابق قد ارتقى بمواهبه الفذة وأخلاقه الحميــدة إلــى درجــة قنصل ثم عين إمبراطورا رومانيا خلفا للإمبراطور المقتول "برويس" الــذي اغتاله الجيش في وقت كانت تموج فيه رومـــا بالتــهديدات والصراعــات الخارجية من الفرس والألمان بالإضافة إلى احتدام الصراع الطبقي داخــل الإمبراطورية الرومانية مما دفعه إلى تأســيس الإمبراطوريـــة الرومانيــة الشرقية وعاصمتها "بيزنطة" والتخلي عن مدينة روما بالإضافة إلى تحقيق اشتراكيته تحقيقا للعدل الاجتماعي للطبقات العاملة والكادحة الرومانيـــة . وقد استهل تحقيق هذه الاشتراكية بإلغاء قانون العرض والطلــب ووضــع نظاما اقتصاديا تحت سيطرة الدولة ليوقف غلاء الأسعار ويقضـــي علــى الكساد الاقتصادي وقد تضمن هذا القانون توزيع الطعـــام علــى الفقــراء بنصف ثمن وبغير ثمن . وشرع في تأســيس منشــآت عديــدة لتشــغيل العاطلين . وعمم فروع الصناعات والتجارة ليضمن بذلك حاجــات المــدن والجيش . وحدد إنتاج مصانع الذخيرة ومصانع النسيج والمخابز ووضعت المصانع والجمعيات الطائفية والنقابات الحرفية تحــت ســيطرة الدولــة . وخضع الخبازون والقصـــابون والبنـــاءون وصنـــاع الزجـــاج والحديــد

والحفارون للوائح مهنية وضعتها الدولة . ولكن كل هذه الإنجازات الاقتصادية كانت مرهونة بسيطرة الدولة على الأثمان الأمر الذي دفع الإمبراطور "دقلديانوس" إلى إصدار قانون الأثمان في سنة ٣٠١ ميلادية حتى لا يشتعل الصراع الطبقي المؤدي إلى الثورة الاجتماعية . وقد حدد هذا القانون الحد الأدنى للأسعار والحد الأدنى للأجور وتصدرت مقدمة هذه القانون هجوما صارخا على الاحتكارات التي منعت البضائع من السوق في الوقت التي قلت السلع لكي ترتفع أسعارها خدمة للاحتكارات . ويعتبر هذا القانون أول قانون بشأن تحديد الأسعار في التاريخ كما تضمن قانون الأسعار هذا تحديد أسعار القمح والفول وكل أنواع البقول وكذلك الخضار والفاكهة واللحوم والدجاج والبيض بالإضافة إلى أسعار الأحذية وأجور المدرسين والمحامين وعمال الزراعة والكتبة والنجارين والحدادين والبناءين والخبازين والحلاقين

تلك هي ملامح اشتراكية الإمبراطور الروماني "دقلديانوس" وما بها من عدل اجتماعي قد تم تطبيقه استجابة للصراع الطبقي الذي تشنه الطبقات الكادحة والمنتجة بواسطة إضراباتها ومظاهراتها وثوراتها وبالتالي فقد شاع في صفوف هذه الطبقات الرضى الاجتماعي بربط الأجور بالأسعار لأول مرة في التاريخ ولهذا فقد حظي الإمبراطور "دقلديانوس" بلقب أبو العصر الذهبي في الدولة الرومانية الشرقية ..

الاشتراكية المسيحية
تتويج لثورة العبيد العظيمة

لقد كانت المسيحية خير تتويج لثورة العبيد المجيدة بقيادة العبد السوري البطل "سبارتكوس" حيث كانت هذه المسيحية امتدادا طبيعيا لثورة العبيد ضد الدولة الرومانية بغية تحقيق المساواة والعدل الاجتماعي والتحرر من العبودية الرومانية ولذلك جاءت المسيحية لتتويج هذه الثورة وتحقيق غايتها في الاشتراكية والعدل الاجتماعي والسلام العام بين البشر كرد فعل على العبودية الرومانية الدموية التي لم تستطع هزيمة ثورة العبيد التي وقعت سنة ٧٠ قبل الميلاد إلا بعد ثلاث سنوات من الصراع الحربي ضد جيش العبيد الذي هزم أخيرا بسبب خطأ عدم احتلاله لمدينة

روما وللحزن فقد انتهت هذه الثورة المجيد بقتل وصلب ستة آلاف عبد صلبوا جميعا على أشجار طريق طويل يؤدي إلى روما وذلك دون أن يقبض على العبد البطل "سبارتكوس" أو حتى التعرف على جسده . جسد الثائر العظيم الذي يوصف بأنه جد كل الثوريين في التاريخ وجد شهداء الحرية والمساواة والاشتراكية والعدل الاجتماعي . ومن ثم فقد كان مسيحا ومخلصا ثوريا تتجلى رسالته في القضاء على عبودية الإنسان لأخيه الإنسان وكذلك كان المسيح عليه السلام برسالته العظيمة مخلصا وثائرا تتجلى هذه الرسالة في القضاء على عبودية الرومان للبشرية والقضاء على العنصرية اليهودية المتحالفة مع العبودية الرومانية ضد كل البشر . ولذلك فقد هجر المسيح وتلاميذه ومريديه الزقاق اليهودي المظلم والخانق والعنصري وربه (يهوه) رب الجنود هذا الإله العسكري الرعاد على حد تعبير العلامة "اميل لودفيج" وذلك إلى أرض الله الواسعة وما فيها من بشر لا فرق بين ألوانهم وأجناسهم وأديانهم وأوطانهم لكي يبشرهم برسالته ويدعوهم إلى إله واحد ورب رحيم . وإن هذه الهجرة للمسيح عليه السلام كانت ثورة حيث كانت الهجرة حينئذ تعتبر ثورة والهجرات ثورات . ويتميز المسيح عليه السلام بأن ثورته كانت ضد اليهودية العنصرية وضد الرومان وعبوديتهم . بينما كانت ثورة "سبارتكوس" ضد عبودية الرومان فقط ..

وتتجلى الرسالة الثورية للمسيح في نصوص ثلاث يتجسد فيها أحلام العبيد كل العبيد وهذه هي ..

النص الأول ... المجد لله في الأعالي

إن هذا النص المقدس لا ينكر ولا يجحد الرب اليهودي .. يهوه رب الجنود .. كما تقول التوراة . بل هو ثورة على طبيعة هذا الرب العسكري والعدواني والعنصري وهو اعتراف برب العالمين الرحمن الرحيم ويتضمن هذا النص الثورة على العبودية الرومانية مع التسليم للعبودية الإلهية عبودية الرحمن الرحيم ..

النص الثاني ... وعلى الأرض السلام

إن هذا النص يدعو إلى سلام شامل يقضي على استعباد الإنسان للإنسان وتسخير الإنسان للإنسان واستغلا الإنسان للإنسان حتى يحل

السلام على الأرض باعتباره حلم أحلام العبيد الذي يراود خيال الكادحين والمظلومين عموما ..

النص الثالث ... وللناس المسرة

يدعو النص إلى إشاعة الحب كل الحب بين الناس جميعا وإشاعة المسرة للناس جميعا .. لأن الحب والمسرة لا يجتمعان وينتشران إلا بإشباع حاجات الإنسان المادية والروحية أي بالخبز والحرية . ومن ثم يتجلى الرضا الاجتماعي ومظاهره بين البشر ..

والنصوص المقدسة الثلاثة تعتبر عزاء للإنسان المظلوم والمستعبد لما تعرض له من آلام وأحزان في العهد العبودي كما تعتبر حلما لكل الطبقات الكادحة والمستعبدة في الماضي والحاضر والمستقبل . أن هذه النصوص قد جاء المسيح عليه السلام من أجل تحقيقها لكي يواجه أحزان البشر ويعمل على تحريرهم من العبودية بالثورة المادية والروحية . ولقد كان المسيح عليه السلام ثوريا في دعوته وممارساته في مواجهة عبودية الرومان وعنصرية اليهود . ولهذا قال بصراحة وشجاعة في إنجيل متى .. ما جئت لألقي سلاما على الأرض بل جئت لألقي سيفا .. حيث كان وما زال السيف ضروريا في مواجهة الاستعباد والتسخير واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان . إذ يقول الشاعر ..

السيف أصدق أنباء من الكتب .. في حده الحد بين الجد واللعب

ولا يعني هذا إلا أن السيف يتقدم المفهوم والإدراك في ممارسة الصراع الطبقي والمضي به إلى غايته ..

وللأسف فإن ثورية المسيح عليه السلام وثورته على الظلم بجميع أشكاله وألوانه قد تنبه لها بعض الأخوة المسيحيين الثوريين الذين خاضوا حرب الفلاحين ضد الإقطاع والإقطاعيين والكنيسة في نهاية العصور الوسطى في أوربا . كما تنبه له بعض رجال اللاهوت المستنيرين في أمريكا اللاتينية الذين أسسوا منظمات لاهوت التحرير المنادية بالاشتراكية والتحرر والعدل الاجتماعي وذلك باعتبار أن المسيحية في جوهرها اشتراكية وثورية . وللأسف فإن الكثير من الأخوة المسيحيين قد غفلوا عن ثورية المسيح لانشغالهم بوجوده وبمعجزاته وانشغالهم أيضا باللاهوت عموما . مع العلم أن العلامة الألماني "اميل لودفيج" يصف المسيح بأنه ثائر شعبي وأنه أكثر ثورية مما يلوح أول وهلة . فرغم

طبيعة الحليم الناعم فهو من الأنبياء الأشداء الأقوياء. وبمـــا أن دعوتـــه جاوزت حدود بلده فقد أسس جمعية بين الأمم . وهو حين دعا الأمم إلـــى تأليف حلف بشري شامل للعبيد والبرابرة أيضا لا إلى تأليف حلف قومـــي يكون (أي المسيح) قد جاوز شواطئ البحر المتوسط . ومع أن يسوع لـــم يغادر حدود بلده الصغير غدا فاتحا أعظم من الإسكندر ..

وعن شيوعية المسيح واشتراكيته يقول .. وجعلـــت تعـــاليم يســـوع المثالية منه شيوعيا في الحياة الاجتماعية ولم يكن (الاســـيون) حـــواري المسيح ثوريين بل كانوا مثاليين قد ألفوا منظمة من أربعة آلاف عضـــو ؟ حوالي ذلك الدور . فكانوا يعيشون في القرى والمدن معا من غـــير تملـــك خاص وكانوا يوزعون أغذيتهم وثيابـــهم ويحـــذرون حمـــل الســـلاح ولا يتاجرون فيما بينهم . وكانوا يتحلون بالحلم والورع ويسلمون كـــل منـــال إلى لجنة مفوض إليها أمر توزيعه . ولم يكن هؤلاء من الزهاد في الدنيـــا ولم يكونوا ممن يعيش من الصدقة كالنساك وإنما كانوا يعملون كفلاحيـــن وعمال يتزوجون ويتناسلون ولم يثبت أن يسوع كان من تلك المنظمة وإن كانت روحه تشبه روحها . ولا أحد يشك في انتساب الرسل من حـــواري المسيح إلى هذه المنظمة وقد كانوا يعيشـــون كالشـــيوعيين ومـــا كـــانوا يوجهونه إلى الأغنياء من التهم آل في القرن الرابع إلى أباء الكنيسة الذين منعوا كل مال خاص في الجمعيـــات الدينيـــة . وممـــا وعـــظ بـــه "جـــان كريزوستون" أن كل شيء سيعدل بجعله مشتركا كما عند النصارى الأوليـــن . حتى أن يسوع قال مكررا في إنجيل لوقا .. بع كـــل مـــالك ووزع علـــى الفقراء فيكون لك كنز في السماء . وتعال اتبعني ..

إذن فإن دعوة المسيح عليه السلام وما تحمله من تمجيد لرب العـــالمين جميعا وما تدعو إليه من سلام شامل على الأرض ومسرة للناس أجمعيـــن قد تضمنتها اشتراكيته وما فيها من مساواة وعدل اجتماعي وحرية للجميع ولهذا يقول .. ليس بالخبز وحده يحيـــي الإنســـان .. أي أنـــه يقـــول أن الإنسان يعيش بالخبز والحرية معا..

ومن ثم فإن هذه الدعوة المسيحية كانت بيانا اشتراكيا للناس كل الناس تدعوهم لقلب نظام الحكم اليهودي والرومـــاني المتحـــالف وذلـــك بقصـــد التحرر الديني والاجتماعي والسياسي وتحقيـــق الاشـــتراكية المســـيحية . ولذلك فقد نظر حكم التحالف اليهودي الروماني على أرض فلســـطين إلـــى

المسيح وحواريه ذات النظرة العدوانية التي وجهها الرومان إلـــى العبـد الثائر "سبارتكوس" ورفاقه العبيد الذين قتلوا وصلبـوا بـالآلاف وبالتـالي فلابد أن يواجه المسيح عليه السلام نفس المصير حيث قتل وصلب وكــان موته هذا خير تتويج لرسالته الإلهية العظيمة .

صحيح أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب .. (وما قتلوه ومـــا صلبوه ولكن شبه لهم) صدق الله العظيم . حيث رفعه الله تعالى إليه فـــي ملكوته .

وفي إطار هذه الشبهة المحددة فإن المسيح عليه السلام عومل معاملـة العبد الثائر "سبارتكوس" بأمر من تحالف اليهود والرومان حين إذن ظنـــا من هذا التحالف أن ثورة العبيد سوف تموت نهائيا حيث فــات عليـهم أن هذه الثورة المجيدة باتت ثورة أممية مستمرة ضد استعباد الإنسان لأخيـه الإنسان وتسخير الإنسان لأخيه الإنسان واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان..



الفصل الثالث
الاشتراكيات الإسلامية

الاشتراكية المحمدية والظاهرة العمرية

الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل في حق الحياة سواء

من قصيدة البرده لأمير الشعراء أحمد شوقي في مدح الرسول

حسب القوافي وحسبي حين ألقيها ... إني إلى ساحة الفاروق أهديه
وما وفى ابنك (عبد الله) أينقه ... لما أطلعت عليه في مراعيها
فقلت ما كان (عبد الله) يشبعها ... لو لم يكن ولدي أو كان يرويها
ردا النياق لبيت المال إنك ... حق الزيادة فيها قبل شاريها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها ... من أين لي ثمن الحلوى فأشريها
إن جاع في شدة قوم شركتهم ... في الجوع أو تنجلي عنهم غواشيه
ما الاشتراكية المنشود جانبها ... بين الورى غير مبنى من مبانيها
فإن نكن نحن أهليها ومنبتها ... فإنهم عرفوها قبل أهليها

من القصيدة العمرية لشاعر النيل حافظ إبراهيم

جاء الإسلام الحنيف لتحقيق حلم البشر كل البشر في الخبز والحرية على أرض الله الواسعة .. حيث كان الكادحون والمستضعفون يعانون من الفقر والقهر والجوع والمسغبة بسبب مظالم أهل الجاه والمال والسطوة في الجاهلية . ولهذا فقد نزل القرآن الكريم يطمئن المعوزين جميعا بقوله في سورة قريش .. فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .. ولذلك فالإسلام ثورة ضد استعباد الإنسان لأخيه الإنسان . وتسخير الإنسان لأخيه الإنسان . واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان . ولهذا فالقرآن الكريم يحض الفقراء والمظلومين على الثورة على الطغاة بقوله :

- **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. سورة البقرة**
- **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا .. سورة الحج**

- إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم . قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا .. سورة النساء

ويقول الحديث الشريف .. من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه . فمن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان ..

إذن فالقرآن الكريم والسنة يحضان على الصراع الطبقي والثورة على مظالم الإنسان للإنسان . ولكنه صراع موجه وثورة هادفة يبغيان العدل الاجتماعي وخبزه وحريته في مواجهة الفقر والقهر حتى تصان كرامة الإنسان .. ولقد كرمنا بني آدم .. صدق الله العظيم..

والعدل الاجتماعي بشقيه المادي والروحي لا يتحقق إلا في ظل جماعية المال واعتباره مال الله .. يقول الأستاذ "سيد قطب" .. المال مال الله .. وهو في أصله ملك للجماعة . وإن كان يقول . ولست أقرر هذا الأصل لأقرر شيوعية المال ..

وخلافا لرأي الأستاذ قطب . فإذا كان المال مال الله فإنه بالضرورة مال عام يشترك في ملكيته الناس جميعا مما يثبت أن الإسلام يقر اشتراكية المال والثروة بدليل مبدأ الاستخلاف في المال وعموميته التي نفت خصوصيته حيث يقول القرآن الكريم :

- وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه .. سورة الحديد
- كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم .. سورة الحشر

ويقول الحديث الشريف .. الناس شركاء في ثلاث . الماء . والنار . والكلأ . حيث يعني الحديث النبوي اشتراكية مياه الآبار والأنهار والبحار . واشتراكية الكلأ أي المراعي والأراضي الزراعية . واشتراكية النار أي الوقود من فحم وغاز وبترول وقوى محركة .

وتتأكد اشتراكية الإسلام هذه في تحريم الربا بنص القرآن :

- يمحق الله الربا ويربي الصدقات .. سورة البقرة
- يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين .. سورة البقرة

إن تحريم الربا في جوهره هو تحريم استغلال الإنسان للإنسان بكافة صوره وأشكاله من استعباد وسخرة .. فضلا عن هذا فإن فائض قيمة عمل العمال لدى الرأسماليين تندرج تحت اسم الربا في الشكل والموضوع

. ومن ثم فإن تحريم الربا هو إقرار باشتراكية الإسلام .. ومما يذكر أن الاشتراكية البردونية الفرنسية أخذت بمبدأ تحريم الربا..

وتتأكد الاشتراكية الإسلامية بالنص القرآني الذي يقول .. "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" .. سورة النجم .

إن السعي هو العمل الإنساني اليدوي والذهني والعمل هم المصدر الوحيد للرزق كما يقول ابن خلدون وكما يقول الإقتصاديان الرأسماليان الكبيران ريكاردو وآدم سميث .. وإن العمل هو الثروة .. وإذا كان رزق الإنسان مرهون بسعيه فإن هذا الأمر يتفق مع المقولة الاشتراكية التي تقول .. من يعمل يأكل ومن لا يعمل لا يأكل .. مما يعني أن الاشتراكية الإسلامية ترفض الكسل والتنبلة وحرفة من يسمون العاطلون بالوراثة من السادة الأغنياء .

ونظرا لأن الإسلام واشتراكيته قد حددا الرزق الحلال بأن يكون مصدره السعي فقط فقد قال القرآن الكريم ..

- يا أيها الذين آمنوا كلوا مما في الأرض حلالا طيبا .. سورة البقرة
- يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم .. سورة البقرة
- وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا .. سورة المائدة

وكان فرض الزكاة في الإسلام بمثابة سمة من سمات الاشتراكية لما يتضمنه من تضامن أخوي وتكافل اجتماعي .. وذلك بالإضافة إلى تعظيم الجانب الروحي والإنساني للإنسان بالتأكيد على كرامته الإنسانية وإشاعة المساواة بين الناس حيث يقول القرآن والحديث ..

- يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. سورة الحجرات
- لا فضل لعرب على عجمي إلا بالتقوى .. حديث شريف

وفي هذا السياق الحضاري للإسلام تتحرر المرأة من أعراف الجاهلية التي كانت تقضي للرجل بحق تبادل الزوجات وتعدد الزوجات إلى عشرات وتحررت البنات المولودات من الوأد والبنين من القتل ..

- ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم سورة الإسراء وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون .. سورة النحل

هكذا الإسلام واشتراكيته وعدله الاجتماعي بخبز الإنسان وكرامة الإنسان .. وكذلك فقد اهتم بحرية الإنسان إلى أبعد الحدود بنص القرآن الكريم ..

- لا إكراه في الدين — سورة البقرة
- وإن تولوا فإنما عليك البلاغ — سورة آل عمران
- ما عليك إلا البلاغ — سورة المائدة
- قل لست عليهم بمسيطر — سورة الأنعام
- وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم — سورة الأنعام
- أفأنت تكره الناس أن يكونوا مؤمنين — سورة يونس
- لكم دينكم ولي دين — سورة الكافرون

تلك هي ملامح الاشتراكية الإسلامية وعدلها الاجتماعي التي طبقت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وازدهرت في خلافة الشيخين أبو بكر وعمر بن الخطاب.

وكان ازدهار هذه الاشتراكية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ملحوظا إلى حد أن هذه الاشتراكية سميت بالظاهرة العمرية الأولى .. لأنها فرضت المساواة على السادة وخدم السادة وعلى السادة والأرقاء وعلى الحاكم والمحكوم . وأشاعت التكافل الاجتماعي بين الفقراء من المسلمين واليهود . وكانت مواقفه في محاسبة الولاة والحكام شديدة للغاية حيث صادر ممتلكات بعض الولاة كان منهم الصحابي أبو هريرة وعزل خالد ابن الوليد رغم انتصاراته العسكرية وعنف والي مصر عمرو بن العاص في حضور من تعرض لظلمه من المصريين وقال له .. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا . ومن هنا فقد كانت خلافة عمر بن الخطاب ظاهرة عمرية اشتراكية في كل أمورها .

ولذلك فقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخشى على ظاهرته العمرية الاشتراكية مما جعله يقول بصراحة قبل وفاته وأثناء احتضاره .. لو آلت الأمور إلى "الأصلع" أي الإمام علي بن أبي طالب لاستقامت الأمور .. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن حيث أصبح الصحابي عثمان بن عفان خليفة للمسلمين دون الإمام علي..

ولقد كانت خلافة عثمان بمثابة ثورة مضادة وانقلاب ضد الظاهرة العمرية واشتراكيتها من خلال الانفتاح الدنيوي أمام الصحابة وإعلان

الحرب علي بني هاشم الذي ينتسب إليهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والإمام علي بن أبي طالب بينما انحاز الخليفة عثمان بشدة إلى أقاربه بني أمية أشراف الجاهلية الذين سوف يصبحون أشراف الإسلام بفضل خلافة عثمان بن عفان التي لم تتورع من تعيين مروان بن الحكم وزيرها الأول رغم كراهية الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الوزير الأموي وأبيه . وذلك بالإضافة إلى فتح بيت مال المسلمين لأبناء الخليفة وأصهاره وأقاربه الأمويين بذريعة صلة الرحم.

ولذلك يقول الأستاذ سيد قطب .. بأن خلافة عثمان بن عفان كانت فجوة بين خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخلافة الإمام علي بن أبي طالب .. حيث انقسم الصحابة وجمهور المسلمين نتيجة للانفتاح الدنيوي الذي أشاعه الخليفة عثمان إلى أقلية من الصحابة الذين صاروا أغنياء ومعهم جمهور من المسلمين المنتفعين من أزلام بني أمية وإلى أغلبية من الصحابة الفقراء الذين رفضوا الانفتاح الدنيوي ومعهم جمهور المسلمين الكادحين والفقراء ..

وقد أدى هذا الانقسام إلى نشوب صراع طبقي وسياسي وعنصري وجاهلي في صفوف المسلمين ..

وفي هذا المناخ المضطرب والصاخب نشب الصراع الطبقي والسياسي والقبلي بين حزب أغلبية المسلمين حزب الفقراء حزب الدين بعدله وطهره ومساواته واشتراكيته بقيادة الإمام علي والصحابة أبي ذر الغفاري وسليمان الفارسي وعمار بن ياسر والعباس بن أبي طالب وابنيه . وحزب الأقلية الأموية والأرستقراطية والعصبية بقيادة الخليفة عثمان والصحابة طلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وعبادة بن الصامت والبغيض والكريه لرسول الله صلى الله عليه وسلم مروان بن الحكم الذي قال الرسول في أبيه الحكم بن العاص .. ويل لأمتي من صلب هذا الرجل ..

وكان من مظاهر الصراع بين حزب الدين وحزب الدنيا اشتعال الحرب على ظاهرة الانفتاح الدنيوي الذي ابتدعه الخليفة عثمان وحكامه الأمويين . هذا الانفتاح الذي فضحه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأعلن الحرب عليه بمنع الصحابة من مغادرة المدينة وبتعنيف وتأنيب معاوية والي الشام خلال زيارة أمير المؤمنين للشام حيث سافر الأمير العظيم على حمار فاستقبله عامله معاوية ممتطيا صهوة جواد مطهم في موكب كسروي فخيم

حشد فيه خيله وخيوله ورجله وأزلامه الأمر الذي استفز أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ففعل بعامله معاوية ما فعل ..

ولقد واصل حزب الدين حزب الإمام علي مواجهة الانفتاح الدنيوي حيث بادر الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري محامي الفقراء وأبرز دعاة الاشتراكية الإسلامية بالسفر إلى الشام ليواصل الحرب على الانفتاح الدنيوي حيث اتخذ المسجد محلا مختارا له في حربه على الأغنياء . هذه الحرب الطبقية التي كانت حرب مفاهيم شعارها الآية القرآنية .. إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .. صدق الله العظيم .

وفور أن بدأت حرب المفاهيم هذه تحول المسجد إلى قلعة حربية ضد الغنى والثراء الفاحش حيث التف الفقراء كل الفقراء حول الصحابي أبي ذر مما أفزع والي الشام معاوية وأغضب الأغنياء كل الأغنياء بما فيهم الصحابة . فحاول معاوية شراء ضمير الفارس الاشتراكي ففشل فشلا ذريعا . ثم دبر له مكيدة حيث جنده كجندي محارب في غزو جزيرة قبرص لعله يموت في هذا الغزو ولكن الصحابي الفارس عاد سالما ليواصل حربه على الانفتاح الدنيوي . ولم يجد معاوية أمامه إلا ترحيل الصحابي أبي ذر إلى المدينة حتى لا تحدث ثورة في بلاد الشام ضد ولاية معاوية والأمويين..

وفي المدينة المنورة قوبل أبو ذر الغفاري مقابلة سيئة من الخليفة عثمان بن عفان الذي أهانه ويقال أنه ضربه بقبضته دون مراعاة منزلته لدى الرسول والمسلمين جميعا . ولم يكتف الخليفة بذلك بل أمر بنفيه في مكان ناء بالصحراء حيث ذهب الصحابي داعي الاشتراكية الإسلامية إلى منفاه البعيد ومعه زوجته البارة بعد أن ودعه الإمام علي بن أبي طالب وولديه الحسن والحسين وظل منفيا حتى مات ولم تجد له زوجته كفنا تكفن به الجسد الشريف حتى مر أعرابي في قافلة فبادر بنزع ثوبه وكفن به أصدق الناس كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولم تكن العقوبة الظالمة والتعسفية وما لازمها من إهانة ونفي وموت التي حاقت بالصحابي أبي ذر مجرد عقوبة ضغينة وانتقام فقط بل كانت عقوبة ذات قصد طبقي وسياسي وقبلي . يبدو في محاولة الإطاحة بحزب الدين حزب الأغلبية الفقيرة حزب المساواة والظاهرة العمرية واشتراكيتها

وعدلها الاجتماعي لصالح حزب الدنيا حزب الصفوة من الأغنياء حزب الأرستقراطية الأموية . ويبدو في إشاعة الانفتاح الدنيوي في صفوف الصحابة والتابعين ويبدو أيضا في محاولة القضاء على نفوذ الهاشميين آل الرسول لصالح الأمويين وحكمهم الظالم وملكهم العضوض ..

والأمر المثير أن جمهور الأغلبية من المسلمين الفقراء قد أحيط علما بهذا القصد اللعين الذي دبره مروان بن الحكم الوزير الأول لخلافة عثمان بن عفان فاشتعل للصراع والثورة ضد خلافة عثمان بن عفان وحكامها الأمويين بقصد إسقاط تلك الخلافة . ولهذا فقد زحف هذا الجمهور المسلم والثائر من جزيرة العرب ومصر والشام واليمن والعراق . وكأن هؤلاء الثوار قد اتفقوا مع بعضهم البعض وحددوا هدفهم الثوري ضد خلافة عثمان بن عفان رغم بعد المسافات وصعوبة المواصلات حينئذ .. وهذا لم يحدث ولكن مظالم الخلافة وانفتاحها الدنيوي الصارخ وتعسف حكامها الأمويين جعل جمهور المسلمين الكادح والفقير يستشعر الخطر على الإسلام وعلى مصالح المسلمين الفقراء مما دفعهم دفعا إلى الزحف على المدينة مقر الخلافة من كل فج عميق . حيث حاصروا منزل الخليفة عثمان طالبين خلعه ولكنه رفض بمقولته .. إن الله قمصني بقميص لا أخلعه أبدا .. ولهذا فقد ظل محاصرا حتى اقتحم الثوار عليه منزله وقتلوه وأهانوه بعد موته ودفنوه في قبر غير مناسب ..

والغريب أن الحكام الأمويين في الشام ومصر والعراق واليمن وجزيرة العرب لم يجرءوا على التصدي للثوار لإنقاذ زعيمهم الخليفة عثمان . ولكنهم اكتفوا بالمتاجرة بدم عثمان وقميص عثمان والثأر لعثمان لتثبيت أركان الحكم الأموي والملك الأموي والتحريض على الهاشميين والإمام علي وخلافته .. فالسيدة عائشة زوجة الرسول التي كانت تحرض المسلمين على قتل عثمان . شاركت في الحرب على بني هاشم باعتبارها حرب ضرائر ضد السيدة فاطمة بنت الرسول وأم الحسن والحسين في شخص الإمام علي رغم وفاتها .. وهكذا اختلط صراع الضرائر بصراع الطبقات من خلال حروب المسلمين بعضهم لبعض في صدر الإسلام ..

وخلال هذه الصراعات اختار جمهور المسلمين الإمام علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين . فحاول الرجل عودة الظاهرة العمرية وتطوير اشتراكيتها وعدلها الاجتماعي ومساواتها بين الناس .. ولكن الإمام علي

الاشتراكي بفطرته وطبيعته وممارساته العامة لم يدرك أن الخليفة عثمان بن عفان كانت خلافته فجوة بين خلافته وخلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من جراء إشاعة الانفتاح الدنيوي بين المسلمين مما أدى إلى تعميق الانقسام الطبقي في صفوفهم فظهرت أمة المسلمين الفقراء وأمة من الصفوة والأرستقراطيين الأمويين وأزلامهم..

ومن جراء اختلاف المصالح والمقاصد بين الأمتين الإسلاميتين تفجر الصراع الطبقي بينهما من خلال الفتنة الكبرى وحروبها التي انتصر فيها جيش الإمام علي باعتباره جيش الأمة الإسلامية الفقيرة والكادحة انتصارا ساحقا . ومع هذا فقد هزمت هذه الأمة وجيشها بقيادة الإمام علي هزيمة سياسية نتيجة لموافقة الإمام علي على التحكيم التآمري بينه وبين والي الشام معاوية بن أبي سفيان .. حيث استغل معاوية والأمويون مثالية الإمام علي التي ساقته إلى قبول التحكيم التآمري في الشكل والموضوع الذي أدى إلى طمس معالم خلافة الشيخين الرشيدة وإلى محو وإزالة الظاهرة العمرية وعدلها واشتراكيتها وإلى هزيمة الأمة الإسلامية الفقيرة والكادحة الموالية للإمام علي وخلافته الرشيدة وتثبيت حكم بني أمية وملكهم العضوض..

ومما ساعد على وقوع هذه الهزيمة انقسام فصيل القراء والفقهاء الفقراء الذين يسمون بالخوارج من جيش الإمام علي احتجاجا على قبوله للتحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان ..

ولقد كان هذا الفصيل العسكري المسمى بالخوارج من خيرة المقاتلين الواعين بدورهم ورسالتهم القتالية في جيش الإمام علي بن أبي طالب ولهذا فإن انشقاقهم وما ترتب عليه من حرب بينهم وبين جيش الإمام علي كان سببا رئيسيا في اغتيال الإمام علي وموته وهزيمة خلافته الرشيدة ..

هكذا انتصرت أول ثورة مضادة في الإسلام بواسطة حرب السياسة والخديعة لا بحرب السيف والمنطق .. ولم يقف جمهور المسلمين الفقراء مكتوفي الأيدي أمام هذه الثورة المضادة للإسلام والمسلمين والتي قضت على الخلافة الرشيدة والديمقراطية واستبدلتها بملك أموي وراثي عضوضي .. بل قام بتأسيس جماعات وأحزاب يسارية وثورية بقصد مصارعة السلطة الأموية الباغية والثورة عليها مما أدى إلى نشوب

الثورات التالية الطبيعية والسياسية للثأر من الأمويين الذين اغتالوا الخلافة الرشيدة للشيخين أبى بكر وعمر والذين اغتالوا أيضا الخلافة الرشيدة للإمام علي وهذه بعض الثورات..

- ثورة حجر بن عدي الصحابي على عهد معاوية .
- ثورة الحسين بن علي في فاتحة عهد يزيد بن معاوية .
- ثورة التوابين في العراق بقيادة الصحابي سليمان بن صرط الصحابي للمطالبة بثأر الإمام الحسين بن علي .
- ثورة المختار بن عبيد الثقفي وقد استمرت ثلاث سنوات ضد الأمويين واستولت على مدينة الكوفة وقامت بتصفية قتلة الإمام الحسين بن علي .
- ثورة المدينة المنورة بقيادة عبد الله بن حنظلة الفسيل ضد يزيد بن معاوية وقتل الكثير من أبناء الصحابة وهتك فيها عرض ألف عذراء من بنات المسلمين بجوار قبر الرسول الكريم .
- ثورة عبد الله بن الزبير التي استمرت ثلاث عشر سنة ضد الأمويين وانتهت بضرب الكعبة الشريفة بالمنجنيق وحرقها وقتل الثائر عبد الله بن الزبير .
- ثورة الضحاك بن قيس على الأمويين بسبب الخلاف على ترشيح خليفة لمعاوية الثاني الذي رفض السلطة والسلطان .
- ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ضد سلطة الحجاج والأمويين .
- ثورة يزيد بن المهلب في عهد هشام بن عبد الملك الأموي .

إن هذه الثورات كانت مظهرا للصراع الطبقي والسياسي والقبلي في صفوف المسلمين الأوائل بسبب الخلاف على المصالح والمناصب لا بسبب الخلاف على الدين .. ولهذا يقول المقدسي .. وأعلم أن الخلاف في هذه الأمة وقع مبتدئا من الصدر الأول وهلم جرا إلى يومنا . ولا ندري ما هو كائن بعد ..

والغريب أن الصراع والخلاف على المصالح كانا لهما الغلبة في صدر الإسلام فالفقراء المسلمين كانت لهم مصالحهم . والأغنياء المسلمين لهم مصالحهم أيضا . وهيهات هيهات أن تتوافق هذه المصالح . فالعدل الاجتماعي لا يتوافق مع الظلم الاجتماعي ..

ومن ثم فلابد من وقوع الصراع الطبقيّ واحتدامه بين المسلمين الفقراء والكادحين المطالبين بالمساواة والعدل الاجتماعي وبين المسلمين الأغنياء من الأرستقراطية الأموية وأزلامهم الذين يمارسون الاستغلال والظلم الاجتماعي بواسطة تحالف الثروة والسلطة وما لديه من جبروت سلطوي وفقهاء لهم القدرة على تبرير ممارسة الظلم الاجتماعي للحصول على الثروة والمال بما يصدرونه من فتاوي تقول مثلا..

ملك الملوك إذا وهب

لا تسألن عن السبب

الله يعطي من يشاء

فقف على حد الأدب

مع العلم أن كل المسلمين في صدر الإسلام يعرفون أن من بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم غلاة في الاشتراكية يجعلون كل ما خلق الله مشاعا ومرفقا عاما . ولذلك يجعلون شأن الأرض وما تحتويه شأن الماء والهواء لا يجوز تملك شيء منه . وفي القرآن والسنة اشتراكية لم تبحث بعد .. على حد قول الدكتور محمد حسين هيكل..

ولذلك فقد قاتل وناضل المسلمون الفقراء بقيادة الصحابة الاشتراكيين ضد الأرستقراطية الأموية الحاكمة والظالمة بهدف استمرار الخلافة الرشيدة حامية المساواة والاشتراكية والعدل الاجتماعي ..

اشتراكية الصعاليك العرب

عاش المجتمع الجاهلي في قلب جزيرة العرب حياة بدوية . لم يتأثر خلالها بالحضارات المجاورة له من كل جانب إلا تأثرا ضئيلا ومحدودا في داخل الجزيرة العربية وتأثرا أكبر في أطرافها المجاورة للحضارات الفارسية والهندية والفرعونية والآشورية والرومانية .. ولذلك ظل مجتمعا بدويا وجاهليا مغلقا يبحث عن رزقه في الرعي وفي التجارة والأسواق وفي السلب والنهب والسطو على قوافل التجارة التي لا يتوقف مرورها عبر صحراء الجزيرة العربية خلال رحلة الشتاء والصيف..

يقول الأستاذ أحمد أمين .. أن الجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم . ولكن من الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة . وجاء في حديث الإفك .. ولكن اجتهلته الحمية .. أي حملته الأنفة والغضب على الجهل .

وفي الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر .. وقد عير رجلا بأمه .. إنك امرؤ فيك جاهلية .. أي فيك روح جاهلية . وفي معلقة الشاعر عمرو بن كلثوم ..

ألا لا يجهلن أحد علينا ... ف تجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقول البعض عن عرب الجاهلية .. الشعوبية في العرب . لم تزل الأمم كلها من الأعاجم . لا ملوك تحميها . وبدافع تفتقها في الآداب والصناعات مثل صنعة النسيج . ولعبة الشطرنج . ورمانة القبان ..

ويرى الجاحظ .. أن الهند لهم معان مدونة وكتب مجلدة . ولليونان فلسفة ومنطق . وفي الفرس خطباء . وكل شيء للعرب بديهية وارتجال وكأنه إلهام . وأن العربي همه إلى الكلام فتأتيه المعالم إرسالا . وكان العرب أميين لا يكتبون و مطبوعين لا يتكلفون ..

ويقول بن خلدون .. إن حالة العرب حالة اجتماعية طبيعية يمر عليها الإنسان في نشوءه وأرتقائه .. وأن طبيعتهم طبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعبث ينهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم في القفر .. وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب لأنهم أمة وحشية فينقلون الحجر من المباني ويخربونها ليضعوه أثافي للقدر .. أي يجعلوا من الحجر أركان لموقد طهي الطعام .. ويخربون السقف ليعمروا به خيامهم . ويتخذون الأوتاد لبيوتهم .. وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه ..

إن هذا يعني أن الجغرافيا وحدها قد فرضت على العرب في الجاهلية أن يعيشوا حياة صراع طبقي حاد بعد أن هزموا في صراعهم مع الطبيعة القاسية في صحراء الجزيرة العربية . ومن ثم فلم يكن يأتيهم رزقهم الشحيح إلا من الرعي والتجارة والسطو على قوافل التجارة .. ومما يذكر أن قبيلة غفار التي ينتمي إليها الصحابي أبي ذر الغفاري كانت تحترف النهب والسلب والسطو على قوافل التجارة . كما يقول العلامة ابن خلدون مما يثبت أن الصراع الطبقي هو صناعة المجتمع العربي في قلب الجزيرة العربية . هذه الصناعة التي جعلت عرب الجاهلية يحملون مزاجا تخريبيا ونفسية مضادة للعمران .

ولم يكن الصراع الطبقي للعرب في الجاهلية مرتبطا بالنهب والسطو فقط بل كان مرتبطا أيضا بحرفة الرعي وحرفة التجارة مما يشير بأن

مجتمع عرب الجاهلية بجميع أفراده وقبائله كان يمارس الصراع الطبقي باعتباره الوسيلة الوحيدة للحصول على الرزق ..

فالقبيلة العربية في العصر الجاهلي كانت تتكون من طبقة شيوخ القبيلة وطبقة جمهور القبيلة وطبقة الموالي . وطبقة رقيق القبيلة .. وجمهور القبيلة هم أبناء القبيلة . والموالي هم مجموعة من العرب الذين يلوذون للقبيلة بقصد الحماية . والرقيق هم العبيد وبعض المولودين من أب عربي وأم حبشية . وكانت القبيلة تسميهم أغربة العرب وذلك مثل عنترة بن شداد الفارس العربي المشهور ..

وتعيش القبيلة العربية في مواجهة تناقضات اجتماعية متعددة من خارج القبيلة ومن داخلها وتدفعها التناقضات الخارجية إلى صراع طبقي وقبلي مع قبيلة أخرى على الرعي والمراعي أو بسبب الخلاف على اقتسام غنائم النهب والسطو على القوافل التجارية أو بسبب المشاحنة على الأسواق . وإن هذا النوع من الصراع بين قبيلة وقبيلة كان يؤدي إلى حروب تستمر سنوات وسنوات مثل حرب الباسوس وحرب داحس والغبراء . هذه الحرب التي كانت حربا بواسطة السيف وحربا بواسطة المفهوم . ممثلا في الشعر وقصائد الشعراء العرب الذين كانوا يبررون خوض هذه الحروب الدموية والمستمرة ويبرزون فرسان الحرب وبطولاتهم وشجاعتهم في هذه الحروب القبلية ..

ونظرا لظهور تناقضات داخل القبيلة بسبب غياب العدالة في توزيع الأرزاق أو من جراء إهدار أعراف القبيلة وعاداتها التي كانت بمثابة شرائع وقوانين تنظم العلاقات الأبوية في داخل القبيلة كان يشتعل الصراع الطبقي في قلب القبيلة حيث ينتهي الصراع بهزيمة الطرف الأضعف فيهرب أشخاص هذا الطرف من القبيلة أو يتم خلعه من القبيلة سواء كان فردا من القبيلة أو أحد مواليها ورقيقها ..

إن هؤلاء المطاريد من القبائل العربية في العصر الجاهلي كانوا يمثلون ظاهرة اجتماعية ملحوظة في الجزيرة العربية لأنهم مرفوضين من مجتمع القبيلة مما يجعلهم مضطرون إلى إقامة مجتمع خاص بهم لعدم قدرتهم على أن يعيشوا فرادى لإحساسهم بأن تشتتهم وتبعثرهم يعرضهم للموت جوعا بحكم طبيعة الجغرافيا في الجزيرة العربية .. ولهذا فالضرورة

الحياتية فرضت على هؤلاء المطاريد أن يقيموا مجتمعا لـــهم فـــي قلـــب الصحراء ذات الطبيعة الوحشية هو مجتمع الصعاليك العرب الذي فـــرض وجوده في قلب الجزيرة العربية في العصر الجاهلي وفي صـــدر الإســـلام باسم مجتمع الصعاليك العرب حيث كان اسم الصعلوك يضاهي اسم الثـــائر الشجاع..

ولقد كان مجتمع الصعاليك العرب هذا مجتمعا يقوم على المســـاواة . مجتمعا اشتراكيا بالفطرة يشبه إلى حد ما المجتمع الشيوعي البدائي فـــي الزمن السحيق حيث يشترك الناس معا في العملية الإنتاجية وفـــي عمليـــة توزيع الإنتاج . ومما يذكر أن ذلك المجتمع الذي أنشأه الصعاليك العـــرب كان أول مجتمع اشتراكي في الجاهلية وفي صدر الإسلام ..

ولذلك فقد كانت صحراء جزيرة العرب في الجاهلية قـــد جمعـــت بيـــن مجتمع القبيلة بطبقاته ومجتمع الصعاليك ومساواته . حيث كـــان مجتمـــع القبيلة يتصدره الأغنياء وأهل الجاه والثراء الذين كـــانوا يعيشـــون حيـــاة الترف والبذخ ويلبسون رقاق النعال والثياب المصنوعة من الخز الأحمـــر شعار الملوك ويصفهم الشاعر فيقول ..

رقاق النعال طيب حجزاهـــم* ... يحيون بالريحان يوم السباســـب*

تحييهم بيض الولائد* بينهـــم ... وأكسيت الأضريج فوق المشاجب

وتصف الشاعرة الخنساء ملابس قومها الأغنياء فتقول ..

ونلبس في الحرب سرد الحديد ... وفي السلم خزا وعصبا وقـــزا

وفي المقابل كان الفقر متفشيا في مجتمع الصعاليك وهذا هو زعيمـــهم العروة بن الورد يصف حاله فيقول ..

ذريني للغنى أسعى فإنـــي ... رأيت الناس شرهم الفقـــير

وأهونهم وأحقرهم لديـــه ... وأن أمسي له نسب وخـــير

ويقصى في الندى وتزدريـــه ... حليلته وينهره الصغـــير

---

* طيب حجزاهم .. طهارة مناطقهم المحرمة

* يوم السباسب .. اليوم الممطر في الصحراء

* بيض الولائد .. أي الصبايا البيض

وهذا الصعلوك عبيد الله بن الأبرص الشاعر لا يحفل بفراق زوجته التي لم تعد تهتم به لفقره وأساءت معاشرته فيقول ..

تلك عرسي غضبى تريد زيالي* ... ألبين تريد أم لدلال

إن يكن طبعك الفراق فلا أح ... فل أن تعطفي صدور الجمال

كنت بيضاء كالمهاة* وإذ ... آتيك نشوان مرتخيا أذيالي

فاتركي مط حاجبيك وعيشي ... معنا بالرجاء والتأمال

كان فقر الصعاليك دافعا للثورة والتمرد حيث قامت فلسفة حياتهم على أن المال مال الله وأن من حق المحروم أن يأخذ من الموسر عنوة وقسرا بالسطو والسرقة . ويعتز أبو النشناش الشاعر والصعلوك باللصوصية ويعجب من الفتى القانع الخانع الذي يرتضي بالفقر بينما يرى الثراء أمامه مبذولا . فيقول لمثل هذا الفتى الخانع..

فلم أرى مثل الفقر ضاجعه الفتى ... ولا كسواد الليل أخفق طالبه

والصعاليك شبان فقراء يشتهرون بالعدو والجري ونظم الشعر أمثال عروة بن الورد والشنفري وتأبط شرا الظريف الذين كانوا يسمون ذؤبان العرب . جمع ذئاب . وهؤلاء الذئاب كانوا يتميزون بالنبل في غاراتهم للسطو والنهب حيث كانوا لا يهجمون إلا على الأشحاء والبخلاء من الأغنياء . فإذا وجدوا غنيا كريما تركوه . وإن وجدوا غنيا شحيحا هاجموه فهم لصوص شرفاء ونبلاء على حد تعبير الأستاذ أحمد أمين . ويتجلى نبلهم أكثر وأكثر في قول سيدهم عروة بن الورد..

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو أقراح الماء والماء بارد

أي أن سيد الصعاليك الاشتراكيين يقسم جسمه في جسوم كثيرة إي أنه يفرق غذائه الذي يكون جسمه على أجسام كثيرة ليكونهم . مما يعني أن زعيم الصعاليك الاشتراكيين كان يقدم المثل والقدوة لرفاقه والناس جميعا بقصد إشاعة العلاقات الاشتراكية والأخوية في صفوف الصعاليك وأصدقاء الصعاليك . ولهذا فقد تعاظم تضامن الصعاليك مع بعضهم البعض ومع الفقراء جميعا .. فإذا أصيب الناس بسنة جدبة ترك عروة بن الورد ورفاقه . المريض وكبير السن والضعيف في دورهم ثم يأخذ الأقوياء من

---

* زيالي .. أي فراقي

* كالمهاة .. أي البقر الوحشي

قومه فقط ويخرج فيغير بـهم .. ويجعل لرفاقه . ولهؤلاء المرضى والضعاف والكبار نصيبهم وفقا للتطبيق العادل لاشتراكية الصعاليك العرب..

وقد روي عن عمرو بن الورد أنه قد بلغه أن رجلا من بني كنانة بن خزيمة يعتبر أبخل الناس وأكثرهم مالا . فبعث عليه عيونا فأتوه بخبره . فشد على ابله فاستاقها ثم قسمها بالتساوي على رفاقه ..

والأمر الذي ينبغي ذكره في هذا المقام أن الصعاليك العرب الاشتراكيين في الجاهلية وفي صدر الإسلام فرضوا تسوية الأرزاق فيما بينهم فلا رئيس ولا مرءوس وذلك فيما غنموه وجمعوه من مال وثروة مما جعلهم اشتراكيين ديمقراطيين . حيث يحكى أن زعيمهم عروة بن الورد أغار يوما ونال خيرا كثيرا وسبى رجاله امرأة .. وأراد عروة أن يختص بها وحده ويخصموا ثمنها فأبوا عليه رفاقه تطبيقا لاشتراكيتهم الديمقراطية . وقالوا له نقومها بإبل فيكون سهما فمن شاء أخذه ومن شاء تركه ..

تلك هي ملامح الاشتراكية الديمقراطية والفطرية للصعاليك العرب في الجاهلية والإسلام .. هذه التي كان يحظى قادتها باحترام العرب وقتئذ إلى حد أن معاوية ابن أبي سفيان كان يتمنى مصاهرة زعيم الصعاليك وشاعرهم عروة بن الورد وأن الوليد بن عبد الملك الأموي كان يتمنى أيضا أن يأتي من صلبه ..

أحزاب يسارية واشتراكية في صدر الإسلام

إن انتشار الأحزاب اليسارية والاشتراكية في صدر الإسلام كانت ظاهرة غفل عنها العلماء وأهل القلم والنون .. فهل كان مردها الصراعات الطبقية والحياتية والقبلية في العصر الجاهلي . أو مردها الصراعات بين بطون قريش وقبائلها وخاصة الصراع بين بني أمية وبني هاشم هذا الصراع الذي احتدت ضغينته وخصومته إلى حد نشوب الحروب وممارسة القتل وأكل الأكباد بعد ظهور النبوة . نبوة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ابن بني هاشم الأمر الذي أفزع وأزعج بني أمية والأمويون الذين فشلوا في مؤامراتهم وما صاحبها من تحالفات عدوانية مع اليهود وغيرهم لدحر الإسلام والمسلمين . هذا الإسلام الذي جردهم من لقب

شرفاء الجاهلية وأسياد الجاهلية مما اضطرهم إلى توظيف منهج التقية ومشي الحال فتمسكنوا حتى تمكنوا وأصبحوا أشراف الإسلام وأسياد الإسلام معا ..

وقد بدأ المنهج الأموي الجديد والتآمري برجاء أبي سفيان للرسول الكريم بشأن توظيف ولده معاوية في أشغال القلم والنون .. ومن ثم ادعى الأمويون وأزلامهم فيما بعد بأن معاوية بن أبي سفيان من كتاب الوحي .. ولكن الأستاذ عباس العقاد ينفي ذلك بقوله .. أن معاوية هذا لم يكتب للرسول وحيا ولكنه خط له أي كتب له أمورا بعيدة عن الوحي والتنزيل .. ثم تطور هذا المنهج الأموي باختيار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب معاوية بن أبي سفيان واليا للشام التي تحولت إلى بنية أساسية ورئيسية لملك بني أمية العضوض ..

وقبل هذا وذاك فقد بادر أبو سفيان في لحظة وفاة الرسول واستخلاف الصديق أبو بكر بمحاولة الوقيعة بين الصحابي الجليل وبين الإمام علي حتى يشتعل الصراع القبلي قبل أن يدخل الرسول إلى قبره الشريف ولكنه فشل .. ثم يأتي الخليفة الجليل عثمان بن عفان ذو النوريين وممول جيش المسلمين فيبادر الأمويين كل الأمويين باستغلال طيبة الخليفة عثمان وهرمه وقرابته فيفرضون عليه اختيار شخصية أموية محملة بالعداوة للرسول وأهل الرسول بني هاشم هو مروان بن الحكم وزيرا أول للخليفة عثمان . ومن ثم تحولت الخلافة الرشيدة للمسلمين إلى سلطة أموية مارست الرشوة والانفتاح الدنيوي لكسب الأعوان والأزلام ..

عندئذ طفح الكيل واشتعل الغضب وزاد السخط في صفوف المسلمين ونشأت الأحزاب اليسارية والاشتراكية ضد السلطة الأموية الغادرة والمتآمرة على الخلافة الرشيدة وعلى المسلمين ..

ومن قلب هذا الصراع الطبقي ظهر حزب القراء والفقراء حزب الخوارج حزب الاشتراكية الديمقراطية والثورية . إذ يوصف الخوارج بالثوريين العرب وبلاشفة العرب لأنهم كانوا أشد المعارضين للسلطة الأموية وأكثرهم شجاعة في حرب السيف . وحرب المفهوم لصراحتهم الأسطورية بشأن حقهم في القتال ضد الحكام الطغاة الذين يعلنون أسماءهم ويسبونهم ويتهمونهم بالكفر والفسوق بينما السيف والجلاد يقتربان من رقابهم .. وذلك دون أن يستخدموا منهج التقية والتستر مثل حزب الشيعة

. وتتجلى مبادئ حزب الخوارج اليساريين والثوريين في ثلاث مبادئ هي..

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- من حق كل مسلم أن يتولى خلافة المسلمين حتى ولو كان عبدا حبشيا
- تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية

يقول الدكتور محمود إسماعيل .. لذلك فجماعة الخوارج تشكل حزبا سياسيا يتبنى مبدأ العدل الاجتماعي كما نادى الإسلام . وليس مجرد حزب ديني كما ذهب "فلهوزن" وأن أراءهم في العدالة الاجتماعية والمساواة تنم عن اتجاه اشتراكي إسلامي أصيل .. وأنهم من أشد الأحزاب الإسلامية في الحرب والصراع ضد أئمة الجور والحكام الطغاة .. ولهذا فقد نعت "ميور" مذهب الخوارج بأنه مذهب ديمقراطي ثوري اشتراكي ..

ولذلك فقد ظل حزب الخوارج شوكة في جنب الحكم الأموي حيث كان يتكون من أربع فصائل قتالية هي ..

الفصيل الأول .. فصيل الأزارقة برياسة نافع بن الأزرق

الفصيل الثاني .. فصيل الأباضية رئيسه عبد الله بن أباض التميمي

الفصيل الثالث .. فصيل النجدات رئيسه نجدة بن عامر

الفصيل الرابع .. فصيل الصفرية برياسة زياد بن الأصفر

ولقد استطاع حزب الخوارج وفصائله إنشاء دولته وسلطته الديمقراطية والاشتراكية في عمان وحضرموت ودولة بلاد المغرب ..

والحزب الثاني الذي أفرزه الصراع الطبقي في صدر الإسلام هو الحزب الشيعي اليساري الاشتراكي المعارض وقد انبثقت أفكار هذا الحزب من منطلق أن الإمام علي كان أولى بالخلافة من الشيخين أبو بكر وعمر وأولى من عثمان بن عفان . وقد استند الشيعة في ذلك على عدد من الأحاديث النبوية مثل الحديث الشريف .. حربك حربي . وسلمك سلمي .. والحديث الشريف .. اللهم والي من والاه . وعادي من عاداه .. والحديث الشريف .. لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق ..

ولقد كان الحزب الشيعي يسعى إلى السلطة بقصد تحقيق المساواة والعدل الاجتماعي ولهذا قام بعدة ثورات ضد الحكم الأموي مما عرضه للاضطهاد . هذا الإضطهاد الذي اضطره للعمل السري واستخدام التقية والتستر والتأويل في ممارسة النشاط الحزبي والمعارض .. هذا النشاط

الذي سرقه الحزب العباسي وأقام دولته العباسية التي قهرت الحزب الشيعي كما قهره الأمويون ..

ومن أحزاب هذه الفترة الزمنية وصراعها الدموي بواسطة الحجاج بن يوسف الثقفي وغيره وبالمفهوم بواسطة أزلام الأمويين من فقهاء وكتاب زيفوا وقائع التاريخ وصنعوا الأحاديث النبوية المغشوشة ولعنوا الإمام علي على المنابر .. خلال هذه الأهوال ظهر حزب المرجئة . حزب الوسط والتبرير وقد قيل في المرجئة وحزبها بأنهم أتباع الملوك وأنصار كل من غلب ..

ولكن احتدام الصراع الطبقي وزيادة دمويته وولوج جمهور الموالي بكثرة إلى العراق للعيش في ربوعها كعمال كادحين بجانب العرب الفقراء والكادحين تطور حزب المرجئة اجتماعيا وثوريا فلم يعد يمثل مصالح جمهور الوسط ولم يعد نشاطه الحزبي قاصرا على تبرير سياسات الحكم الأموي التي تطفح بالظلم الاجتماعي .. بل أصبح حزبا معارضا وثوريا يسعى للعدل الاجتماعي . يقول الدكتور محمود إسماعيل .. من جراء تفشي مظالم الحكم الأموي وحكامه مثل الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق مما أدى إلى نشوب الصراع الطبقي الذي اشترك فيه العرب والموالي بسبب الضرائب وتمييز أهل الشام عن أهل العراق من العرب في الأعطيات التي يوزعها ديوان العطاء . فالعرب في العراق يطالبون بالمساواة بعرب الشام والموالي يطالبون المساواة بالعرب ..

إن هذه المطالب الاقتصادية أججت الصراع الطبقي الذي تحول إلى ثورة شارك فيها العرب والموالي ضد الحكم الأموي وضد والي العراق الحجاج بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث واشترك فيها حزب المرجئة .. وتمركز الثوار من عرب وموالي وشيعة ومرجئة في مدينة الكوفة . وهزموا جيوش السلطة الأموية بقيادة الحجاج . وحاول الخليفة عبد الله بن مروان ترضية الثوار بمساواة عرب العراق بعرب الشام وأن يتولى قائد الثورة عبد الله بن الأشعث إمارة ولاية يختارها وذلك دون أن يعطي الموالي شيئا .. ولكن الثوار الموالي أبوا إلا بخلع الخليفة الأموي نفسه . وذلك بهدف تحقيق المساواة والعدل الاجتماعي للكادحين العرب والموالي على السواء ..

وقد صاحب وجود هذه الأحزاب الاشتراكية الإسلامية وثوراتها ظهور الحركة المزدكية والفارسية نسبة إلى مؤسسها مزدك من أهل نيسابور ببلاد فارس الذي كان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء . ويدعو إلى اشتراكية المال والثروة ولكنه اتهم بأنه يدعو إلى اشتراكية النساء .. وهذا غير صحيح بدليل أن الاشتراكية المزدكية قد كسبت جمهورا واسعا من الأتباع قبل الإسلام وبعد الإسلام .. كما ظهرت بعد اشتراكية بابك في العراق المطالبة باشتراكية في المال والثروة والزرع والضرع .. واتهمت أيضا بالدعوة إلى اشتراكية النساء ظلما وعدوانا بقصد القضاء عليها خدمة للملاك وأهل الثروة والمال ..

وفي القرن الأول الهجري حيث نضج العقل العربي والإسلامي بفضل الانفتاح على الثقافات المجاورة مع نمو الصراع الطبقي والسياسي الذي يمارسه العرب والموالي المعارضين للحكم الأموي ظهر حزب المعتزلة حزب العدل والتوحيد الذي أنشأه واصل بن عطاء تلميذ الإمام الحسن البصري الذي كان متعاطفا مع حزب الخوارج بشأن إدانة التحكيم بين الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان ..

وحزب المعتزلة بطبيعته كان حزبا سياسيا ينادي بالمساواة والعدل الاجتماعي ويسعى لقيام دولة العدل والتوحيد في ظل سلطة العقل وحرية الرأي واحترام الإنسان . ولهذا ابتدع الجدل وعلم الكلام..

يقول الدكتور محمود إسماعيل .. يلاحظ وجود تلازم بين الفكر العقلاني الاعتزالي وبين الفكر الاجتماعي من قضية العدالة فكانوا أي المعتزلة رواد التنوير ودعاة للمساواة في ذات الوقت ..

ولقد كان حزب المعتزلة يعادي دولة بني أمية وعارض قيام الدولة العباسية لتعاطفهم مع الشيعة ولذلك شاركوا في الثورة الشيعية الزيدية التي قادها محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم ضد خلافة المنصور العباسي الذي لم يتورع عن البطش بالزيدية والمعتزلة معا..

وللأسف فقد انتهى المطاف بتحالف المعتزلة مع الخليفة المأمون العباسي الذي آمن بالفكر المعتزلي . بشأن مسألة خلق القرآن .. هذه المسألة التي عارضها الإمام أحمد بن حنبل.مما عرضه للسجن والتعذيب دون أن تتدخل المعتزلة باعتبارهم أهل الرأي وحرية الرأي مما عجل بسقوط المعتزلة . ولعل هذا السقوط يكون عظة وعبره لليسار المصري

المعاصر الذي اعتراه هوى السلطة والسلطان فراح يهرول نحوهما ناسيا مقولة الإمام أبي حنيفة التي تقول .. كن من السلطان . كما أنت من النار تنتفع بها وتتباعد عنها ولا تدن منها فإنك تحترق ..

ونظرا لانتشار علم الترجمة في العصر العباسي وفدت على العراق الثقافة الفارسية والثقافة اليونانية وفلسفتها مما أدى إلى ظهور حزب جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا التي نادت باحترام العمل والحرفة وطالبت بزيادة أجور العمال والصناع وخاصة الزبالين والكناسين والمراحيضية الذين يجب أن يحصلوا على أعلى الأجور لدورهم الفعال في نظافة بغداد وحياة بغداد ..

هكذا عاش المجتمع الإسلامي في قرونه الأولى في خضم صراع طبقي انبثقت من خلاله أحزاب وثورات وأفكار وعلوم كان أهمها علم الاجتماع الذي ظهر على يد العلامة بن خلدون أبو علم الاجتماع في التاريخ لما قدمه للبشرية من أوصاف وتشخيصات ونظريات اجتماعية واقتصادية وسياسية بالإضافة لما قدمه وأبرزه من عادات وأعراف نفسية ومزاجية لطبقات العرب وموالي العرب وحكام العرب . وحتى الفقهاء والكتاب والمؤرخين العرب والموالي فقد تناول مواقفهم ومخطوطاتهم وأعمالهم سلبا وإيجابا ..

كل هذه التجليات الرائعة تجمعها مقدمة بن خلدون التي سبقت ما خطه فولتير وروسو وآدم سميث وريكاردو وكارل ماركس وانجلز . حيث بادر بن خلدون لأول مرة في التاريخ بشرح مسألة تقييم العمل الإنساني باعتباره قيمة . طبعا قيمة تبادلية وطبعا قيمة استعمالية .. وباعتباره سلعة وكأن كارل ماركس قد قرأ مقدمة بن خلدون في مكتبة لندن الشهيرة وحفظها عن ظهر قلب قبل أن يدون كتابه رأس المال..

وفي الفصل الخامس من المقدمة يتحدث بن خلدون فنظر الاشتراكية الإسلامية عن المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع فيقول .. في حقيقة الرزق والكسب وشرحها . وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية . أعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى من يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوءه إلى أشده إلى كبره ولهذا فيد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه – يقصد يد العامل الكادح وأن العمال صناع الحياة – بما جعل الله من استخلاف وأيدي البشر منتشرة أي مشتركة في ذلك – مما يعني اشتراكية

الإنتاج واشتراكية التوزيع .. ولهذا فلابد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر .. وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعادن فلابد معه من العمل الإنساني .. مما يعني أن العمل الإنساني يضيف إلى منتوج الحيوان والنبات والمعادن قيمة .. كما ترى الاشتراكية العلمية تماما..

ويقول ابن خلدون أيضا .. فقد تبين أن المعادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية .. وعن الظلم يقول .. ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق - أي أن بن خلدون ضد استعباد الإنسان للإنسان وتسخير الإنسان للإنسان واستغلال الإنسان للإنسان . وذلك أن الأعمال من قبل المتمولات كما سنبين في باب الرزق .. لأن الرزق والكسب إنما هم قيم أعمال أهل العمران . فإذا مساعيهم واعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها .. أي أن العمل وحده هو مصدر الرزق والثروة .. ذلك هو البيان الاشتراكي الأول الذي سبق البيان الشيوعي بمئات السنين..

اشتراكية القرامطة وثورة الزنج

لقد شهد القرن الرابع الهجري بداية حالة الضعف التي استبدت بالخلافة العثمانية الثانية من جراء هيمنة العساكر الأتراك على كل شئونها . هؤلاء العساكر الشداد الغلاظ التي جلبتهم الخلافة لمواجهة العرب والموالي الفرس فانقلبوا عليها رويدا رويدا ..

خلال هذه الفترة تعرضت الطبقات الأجيرة والكادحة من العرب والموالي الفرس لتسخير مزدوج من الخلافة وعساكر الأتراك . فالفلاحون الفقراء وعمال الزراعة من عرب وموالي وهنود وزنج قد تم جلبهم من أفريقيا حيث أجبروا جميعا على السخرة والعمل الإكراهي في الإقطاعيات العربية والتركية ..

وفي الوقت نفسه تعرض الصناع والحرفيون ومشايخهم ونقاباتهم الطائفية والحرفية إلى دفع الضرائب والإتاوات المضاعفة والمتكررة مما أدى إلى تفشي السخط في صفوف الفلاحين وعمال الزراعة والفاعل والصناع والحرفيون فانبثق من بينهم مزيدا من النقابات الحرفية وحركة اشتراكية ذات الطبيعة السياسية والثورية بقيادة الداعية الثوري

والاشتراكي حمدان قرمط أي حمدان الفلاح الأجير الزراعي والفقير المعدم..

وقد نجحت هذه الحركة الاشتراكية القرمطية في ضم وحشد كل الفقراء والطبقات الأجيرة والكادحة من عرب وموالي وهنود وزنج وفي مقدماتهم النقابات الحرفية وأعضائها ومشايخها في جيش طبقي ثوري اشتراكي يناضل في سبيل تحقيق سلطة الاشتراكية الديمقراطية وما بها من مؤاخاة ومساواة وعدل اجتماعي..

ولقد كان الثائر والكادح الفلاحي حمدان قرمط زعيم هذه الحركة الاشتراكية عبقريا في الأمور التنظيمية التي خدمت صراعات وحروب الاشتراكية القرمطية وتحقيق سلطتها ودولتها .. حيث استطاع أن ينظم قيادة الحركة وينظم دعاتها وكوادرها في منظمات شبيهة بالمنظمات النقابية بالإضافة إلى إعداد جيش اشتراكي ثوري للدفاع عن الحركة والعمل على تحقيق مقاصدها .. فالقيادة مكونة من ثلاثين نقيبا وكل نقيب يتبعه أربعة وعشرين داعية .. وكان أبرز هؤلاء القادة الاشتراكيين أبو سعيد الجنابي فاتح بلاد البحرين ومحقق سلطة ودولة الاشتراكية القرمطية على أرضها .. كما تحققت دولة الاشتراكية في مواقع أخرى في ارض الخلافة العباسية وفي مواجهتها .. ويصف لنا النويري هذه التجربة الاشتراكية القرمطية فيقول ..

لقد أخذ جمهور القرامطة بالألفة . وهو أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد . وأن يكونوا فيه أسوة واحدة . ولا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه . وإمام الدعاة في كل قرية رجلا مختارا من ثقاتها يجمع عنده أموال أهل قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره .. وأخذ كل رجل منهم بالاجتهاد في صناعته والتكسب بجهده ليكون له الفضل في رتبته . وجمعت المرأة مغزلها . والصبي أجرة نظارته لنظير .. ولم يتملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه ..

هكذا كانت علاقات العمل الاشتراكي ذات سيادة في المجتمع الاشتراكي القرمطي .. الذي طبق شعار من يعمل يأكل ومن لا يعمل لا يأكل .. كما هو الحال في الاشتراكية الحديثة الحالية التي لا يوجد بها جمهور من العاطلين لاعتمادهم على الريع الزراعي والربح الرأسمالي بتسخير الفلاحين واستغلال العمال ..

ولذلك كانت الثروة ملكية عامة بما فيها من زرع وضرع وحرفة وصنعة وحتى الطاحونة التي تطحن الغلال وبغلها وكل دواب الجر وكل الأنعام ولهذا كان العمل في الإنتاج مشتركا بين الرجال والنساء والأطفال الذين كانت لهم أشغال مخففة وكذلك كان توزيع الإنتاج مشتركا بينهم ..

يقول الدكتور محمود إسماعيل .. يخيل إلينا أن حمدان قرمط زعيم هذه الاشتراكية لم يبدع هذا النظام ابتداعا . إنما اجتهد في تطبيق مفهومه للعدالة الاجتماعية في الإسلام بما يتواءم وظروف مجتمع زراعي صناعي مستفيدا في ذلك من الأفكار المتقدمة في الحضارات الإنسانية . وأن اجتهاده في هذا الصدد أشبه باجتهاد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين شرع في تنظيم الدولة الإسلامية ..

وقد تردد أن الثائر القرمطي الفلاح الاشتراكي كان من دعاة المذهب الإسماعيلي الشيعي .. وربما كان هذا الكلام صحيح في بدء حياته ونشاطه الديني والسياسي .. ولكنه قد تغير فور تحزبه للاشتراكية وابتعد عن المذهب الشيعي الإسماعيلي بانشغاله بتنظيم حركته الاجتماعية والثورية والاشتراكية كما يرى الدكتور محمود إسماعيل . وذلك بالإضافة إلى أن الاشتراكية القرمطية لم تدخل في حرب ضد الخلافة العباسية وعساكرها الترك فقط بل زحف جيشها في محاولة لغزو مصر في عصر الفواطم الإسماعيلية والشيعية . وأكثر من هذا فقد كان للقرامطة الاشتراكيين تنظيم في صفوف الصناع بمدينة تنيس المجاورة لمدينة دمياط المصرية والتي كانت مشهورة جدا بصناعة الغزل والنسيج حيث حرض قرامطة مدينة تنيس أهالي المدينة على حاكمها الفاطمي فقتلوه .. مما دفع حكومة الفواطم إلى إصدار بيان وزع على المصلين عقب صلاة الجمعة بمدينة القاهرة يتهم الاشتراكية القرمطية بالعصيان وبالكفر وبالإلحاد ..

وبجانب ذلك فقد اتهمت اشتراكية القرامطة بتهمة اشتراكية النساء كما سبق أن اتهمت بها اشتراكية مزدك واشتراكية بابك الفارسيتين وذلك من الفقهاء المسلمين والمؤرخين المسلمين وذلك بقصد تنفير المسلمين من الاشتراكية عموما ومساواتها وملكيتها العامة وذلك خدمة لأهل السلطة والملكية الحاكمين والمالكين الذين يستعبدون ويسخرون ويستغلون الطبقات الأجيرة والفقيرة والكادحة ..

ولكن كل هذه الدعاوى الكاذبة والباطلة قوبلت بـــالرفض مـــن جـــانب الأجراء والفقراء في نفس هذه الفترة بدليل قيام تحالف ثـــوري اشـــتراكي بين جمهور الأجراء الكادحين والمضطهدين من عرب وموالي وزنج بقيادة الثائر والمتمرد علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علـــي بـــن الحسين بن الإمام لي بن أبي طالب الذي قاد الصراع الطبقي ضد الخلافـــة العباسية وعساكرها وأزلامها من كبار الملاك والأغنياء ثـــم قـــام بثورتـــه المشهورة بثورة الزنج ضد الخلافة وحكامـــها وملوكـــها بـــهدف تحقيـــق الاشتراكية والعدل الاجتماعي ..

وثورة الزنج هذه كانت خير شاهد على الوعي الطبقي للأجراء من زنج وعرب وموالي وهنود الذين كانوا يكدحون في كسح السباخ والملـــح مـــن الأراضي الزراعية لزيادة خصوبتها وتستفيد طبقة مـــلاك الأراضـــي فـــي العراق .. كما كانوا يكدحون في الأشغال العامة وأشـــغال الحفـــر والـــردم وأعمال الكنس وجمع الزبالة وكسح المراحيض في المدن ..

وقد ظلت ثورة الزنج عدة سنوات حتى استولت على مدينـــة البصـــرة ومناطق أخرى في العراق واستحوذت على أموال الأغنياء ووزعتها علـــى جمهور الثائرين بطريقة اشتراكية .. ولكن هذه الثورة وللأسف لم تستطيع أن تقيم سلطة ودولة اشتراكية للزنج وحلفائهم من الكادحين ولـــهذا فقـــد هزمت وانتهى أمرها ..

الاشتراكية المفترى عليها

رغم أن الاشتراكية تمثل حلم حياة البشرية الكادحة باعتبارهـــا دعـــوة للمساواة والعدل الاجتماعي تضمنتها الأديان السماوية والوضعية وحركـــات الإصلاح والتقدم عبر التاريخ البشري فقد تعرضت للإهانات والتشـــويهات والافتراءات من أهل السلطة والملكية الخاصـــة خوفـــا علـــى سـلطاتهم وملكياتهم من أهل الاشتراكية طلاب المساواة والعمل المنتج والمشترك في الإنتاج وعند التوزيع . هؤلاء الطلاب الفقراء من عمال يعملون بأيديهم أو يعملون بأدمغتهم ومن فلاحين وحرفيين وموظفين صغار يحلمون بسلطتهم الشعبية سلطة الاشتراكية وعدلها الاجتماعي وملكيتها العامـــة للصناعـــة والزراعة والتجارة . فالسلطة والملكية هما ســـبب الصراعـــات الطبقيـــة

والسياسية وحروبها الدموية التي شهدها التاريخ البشري طوال آلاف السنين..

وللأسف الشديد أن الاتهامات والافتراءات التي حاقت بالاشتراكية لم تظهر وتتواجد إلا في صدر الإسلام الحنيف خلال الإطاحة بالخلافة الإسلامية الرشيدة والمجيدة للشيخين أبي بكر وعمر والإمام علي وما حققته للمسلمين وغير المسلمين من مساواة وعدل اجتماعي وكرامة إنسانية للرجال والنساء على السواء

ولكن الأرستقراطية الأموية التي طفحت في عهد الخليفة عثمان بن عفان قد بادرت بابتداع وتنفيذ الانفتاح الدنيوي وبذخه وإغراءاته بقصد تفشي الأطماع الطبقية والدنيوية في صفوف الصحابة والتابعين وجمهور المسلمين .. وذلك بالإضافة إلى إشاعة الفتن والمؤامرات والحروب ضد دعاة الاشتراكية والمساواة والعدل الاجتماعي من الصحابة والمسلمين الفقراء والكادحين مما أدى وللحزن الشديد إلى الإطاحة بصرح الخلافة الرشيدة ومحوها وإزالتها من الحياة والمجتمع حيث طفحت سلطة بني أمية وملكها الظالم والوراثي والعضوضي ..

هذه السلطة الأموية التي استخدمت السيف واللسان بغير حدود بواسطة جلاديهم وفقهائهم وأهل القلم والنون من أزلامهم فقتل بهذا السيف اللعين الآلاف من المسلمين بالإضافة إلى هتك أعراض العذارى المسلمات وحرق الكعبة الشريفة وإحراقها .. وأصيب بهذا اللسان الأموي السام آل بيت الرسول وأهله الهاشميين وخاصة الإمام علي بن أبي طالب الذي تعرض للإهانة والسب والقذف في المساجد وعلى منابرها بواسطة اللسان الأموي النجس والبغيض .. بالإضافة إلى اصطناع الأحاديث المزيفة والمزورة لإعلاء شأن الحكم الأموي اللعين .. وذلك مثل حديث يقول .. أبو سفيان من خير أهلي ..

وقد صاحب ذلك إعلان الحرب المنحطة على الاشتراكية وعدلها الاجتماعي بقصد محو وإزالة الظاهرة العمرية الأولى واشتراكيتها .. وكذلك محو وإزالة الممارسات الاشتراكية للإمام علي في حياته الخاصة وفي حياته العامة .. إنما نطعم الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا .. صدق الله العظيم ..

وقد بدت هذه الحرب الأموية المنحطة التي بادر الفقهاء والمؤرخون من أزلام سلطة بني أمية بالطعن والتجريح في اشتراكية الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري لأنها مستمدة من اليهودي عبد الله بن سبأ ولأنها أيضا مضاهية لاشتراكية مزدك الفارسي التي تقول باشتراكية النساء ..

ومن المؤسف أن الأستاذ أحمد أمين يتفق مع هذا الطعن والتجريح بشأن اشتراكية أبي ذر الغفاري المستمدة من الكتاب والسنة .. ومن المؤسف أيضا أن الدكتور طه حسين مقدم كتاب فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين الذي وردت به هذه الرواية لم يلتفت إلى هذه الجزئية ولم يدحضها وهذا هو كلام الأستاذ أحمد أمين..

وتلمح وجه الشبه بين رأي أبي ذر الغفاري وبين رأي مزدك في الناحية المادية فقط .. فالطبري يحدثنا أن أبا ذر قام بالشام وجعل يقول .. يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء .. بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوي من نار تكوي جباههم وجنوبهم وظهورهم .. مما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك واجبوه على الأغنياء . وحتى شكا الأغنياء وما يلقون من الناس ثم بعث به معاوية إلى عثمان بن عفان بالمدينة حتى لا يفسد عليه أهل الشام ..

ولما سأله عثمان . ما لأهل الشام يشكون من ذربك .. قال أبو ذر .. لا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا .. فنرى من هذا أن رأيه قريب جدا من رأي مزدك في الأموال .. ولكن من أين جاءه هذا الرأي ..

ثم يقول الأستاذ أحمد أمين .. يحدثنا الطبري عن جواب هذا السؤال .. فيقول .. أن بن السوداء لقا أبا ذر فأوعز إليه بذلك .. وأن ابن السوداء .. هذا أتى (الصحابي) أبا الدرداء (والصحابي) عبادة بن الصامت فلم يسمعا لقوله وأخذه الصحابي عبادة بن الصامت إلى معاوية وقال له هذا والله الذي بعث إليك أبا ذر .

ونحن نعلم أن بن أبي السوداء هذا لقب لقب به عبد الله بن سبأ وكان يهوديا من صنعاء واسلم في عهد عثمان وأنه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم ..

وهنا لابد من وقفة مع الأستاذ أحمد أمين والدكتور طه حسين اللذين مشيا وراء مقولات الطبري بشأن المرجعية الاشتراكية للصحابي أبي ذر .. حيث يقر الطبري بأن هذه الاشتراكية مصدرها بن السوداء .. عبد الله

بن سبأ .. اليهودي ومزدك الفارسي مستندا في ذلك على رواية للصحابي عبادة بن الصامت والصحابي أبي الدرداء .. وفي تقديري أن الطبري ربما يكون متعاطفا مع الدولة الأموية العدو اللدود للعدل الاجتماعي واشتراكية الصحابي أبي ذر الغفاري وربما يكون الطبري قد اقر برأيه هذا من الإسرائيليات المتفشية في زمنه بقصد الإساءة للصحابة باعتبار بعضهم كان من أزلام الحكم الأموي اللعين ..

ومما يدل على أن اتهام الطبري لاشتراكية مزدك الفارسية بأنها تدعو إلى اشتراكية النساء هو اتهام باطل لأن الفرس قبل الإسلام وبعد الإسلام لم يرددوا مثل هذا الاتهام . وبالتالي فمن أين عرف الطبري بذلك مع العلم أن كل ما كتبه أهل القلم والنون المسلمين حتى بداية العصر الحديث تقريبا بشأن تاريخ ما قبل الإسلام كان مصدره الإسرائيليات والأساطير المختلفة .. وحتى بعد الإسلام فقد كان أهل القلم والنون في جملتهم يمثلون السلطة وأزلامها وأغنيائها دون أن يمثلوا جمهور الفقراء والكادحين من عمال وصناع وفلاحين . هذا الجمهور الذي يصفه الإمام الغزالي بالجهل .. وذلك باستثناء جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا الذين كانوا يقدرون العمل والعمال والصنعة والصناع ..

كما أن تهمة اشتراكية النساء الملفقة لاشتراكية مزدك الفارسية واشتراكية بابك في العراق واشتراكية القرامطة في عصر الخلافة العباسية قد صنعها تحالف السلطة والفقهاء خوفا على السلطة والثروة من جمهور الفقراء الكادحين والمسلمين الذين رأوا في الاشتراكية حلم حياتهم فكيف تقبل هذه الجماهير الكادحة المسلمة التي تعيش في مجتمع مسلم حلما يشوبه الفحش والإباحية .. إن هذه الجماهير قد استقبلت حلمها الاشتراكي قبولا حسنا وقدمت التضحيات من أجل تحقيقه لما فيه من عدل وحرية ومساواة ولخلوه من الشوائب والعيوب ..

وفي قلب ذلك الظلام الاجتماعي فقد تعرضت اشتراكية القرامطة وثورة الزنج لاتهامات كثيرة منها الكفر والإلحاد واستباحة النساء من قبل الخلافة العباسية وأرستقراطية المال والأرض والتجارة من العرب والفرس والأتراك بواسطة السادة الفقهاء وأهل القلم والنون باعتبارهم ممثلي الاتهام نيابة عن السلطة والسلطان ..

ولقد رد عليهم "برنارد لويس" في رسالته للدكتوراه في أصول الإسماعيلية .. حيث أثبت أن المرأة قد تبوأت مكانة سامية في المجتمع القرمطي .. كما دحض هذا الاتهام باحث عربي هو الأستاذ "محمد عليان" في رسالة للماجستير عن قرامطة العراق قال فيها .. لا تستطيع أن تؤيد انتشار هذه المساوئ إذ أن انتشارها يؤدي إلى وهن الرابطة الزوجية بينهم .. ولم يكن ذلك ملحوظا في حياتهم .. فقد وقفت ابنة ذكرويه من اخوتها حين قتلوا زوجها موقفا يدل على تماسك الرابطة الزوجية .. هذا فضلا عن أن الإباحية المشار إليها كان من شأنها أن تضعف الأنساب بين القرامطة . بل تقضي عليها قضاء تاما .. وهذا لم نلحظه عند قرامطة العراق ولا عند غيرهم من طوائف الإسماعيلية ..

يقول الدكتور محمود إسماعيل .. لقد اجمع مؤرخو السنة والشيعة على اتهام القرامطة بإبطال التكاليف الشرعية فذكر بعضهم أن القرامطة يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافلة لا فرض كما قال البغدادي . وزعموا أن من عرف العبادة سقط عنه فرضها..

وفي نفس الاتجاه نجد الغزالي يقول .. ترك القرامطة تأدية العبادات ونحن نرى أن تلك فرية لا أساس لها من الصحة .. مع أن الغزالي نفسه ذكر أن الداعي القرمطي كان يشترط على المستجيب للدعوة أن يحج إلى بيت الله ثلاثين حجة إن أخل بواجباته ..

والطبري يقول أن القرامطة لا يغتسلون من الجنابة . ويكتفون بالوضوء للصلاة لأن الوضوء يزيلها .. وفي موضع آخر روي أن أحد كبار الملاك ضاق ذرعا بفلاح قرمطي يعمل في ضياعه لحرصه على أداء الصلاة ..

والمقريزي الشيعي أورد أن الداعية ذكرويه عظم قدره في أعين الناس وصارت له مرتبة في الفقه والدين .. وأن حمدان القرمطي زعيم الحركة القرمطية عرف بالزهد والتعبد وكان أنصاره من القرامطة الاشتراكيين يسمون أنفسهم .. المنصورون بالله .. والناصرون لدينه .. والمصلحون في الأرض ..

هكذا تعرضت الاشتراكية الإسلامية وروافدها لافتراءات كثيرة مما دفع العلامة بن خلدون إلى تشخيص فحول المؤرخين في الإسلام بأنهم قد

استوعبوا أخبار الأيام . وخلطها المتطلعون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها . وزخارف من الرواث المضعفة لفقوها ووضعوها . ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها فالتحقيق قليل والغلط والوهم تسيب للأخبار وخليل ..

إن مقولة العلامة بن خلدون هو تتويج للاشتراكية الإسلامية والمحمدية اشتراكية عمر بن الخطاب والإمام علي وأبى ذر الغفاري وكل الروافد الاشتراكية التي انبثقت منها .. ومن ثم فالإسلام عدل اجتماعي ومساواة وخبز وحرية ..

ظهور الاشتراكية العلمية
الاشتراكية حلم وعلم

تأكيدا لما سبق ذكره ينبغي القول بأن أعظم ما ولده فجر الضمير الإنساني في العصر العتيق هو حلم البشرية في المساواة والعدل الاجتماعي الذي ظل يراود خيال البشرية الكادحة حتى اليوم ..

ولقد تجلى ذلك الحلم العظيم فور إحساس الإنسان بكده وكدحه وانصباب عرقه خلال العملية الإنتاجية البدائية في الصيد والرعي ومصارعة الطبيعة للحصول على رزقه . وفور إدراكه بمن حوله من الناس الذين يشاركونه في العملية الإنتاجية مما أوصل ذلك الإنسان إلى مستوى الفهم والمفهوم فتبادل المفاهيم بمن حوله من الناس بشأن المشاركة في عملية توزيع الإنتاج والحياة المعيشية البدائية . وعندئذ فقد وضع قدميه على عتبة الوعي الاجتماعي وبفضل بزوغ هذا الوعي الاجتماعي فقد بادر الإنسان البدائي بتأسيس المجتمع البدائي الشيوعي القائم على المساواة في الإنتاج والمساواة في توزيع الإنتاج على أبناء هذا المجتمع الشيوعي البدائي ..

وبسبب زيادة الإنتاج وتراكمه استأثر بعض أفراد هذا المجتمع بالإنتاج الزائد فانقسم المجتمع رويدا رويدا إلى طبقات متناقضة . ومن ثم ظهر أول مجتمع طبقي على الأرض كما سبق ذكره هو المجتمع العبودي المكون في الأزمان السحيقة من طبقة الأسياد ملاك العبيد الحاكمين والمالكين ، وطبقة العبيد الكادحين والمنتجين والمحكومين والمقهورين

الذين عاد إليهم بشكل غريزي حلم المساواة والعدل الاجتماعي الذي راح يراود خيالهم سنوات طوال فتأففوا من عبوديتهم تعبيرا عن سخطهم وغضبهم على مظالم العبودية الأمر الذي دفعهم عفويا إلى ولوج الصراع الطبقي بالتمرد والعصيان وكل مظاهر الاحتجاج بقصد تحقيق حلمهم في المساواة والعدل الاجتماعي الذي تجلى في قيام الاشتراكيات القديمة في المجتمعات العبودية والإقطاعية بفضل صراع الطبقات وثوراته وانقلاباته في المجتمعات القديمة التي شهدت ظهور الاشتراكية باعتبارها حلم البشرية الكادحة والأجيرة طالما ظل استعباد الإنسان للإنسان وتسخير الإنسان للإنسان واستغلال الإنسان للإنسان في مجتمعات الطبقات المتناقضة ..

ثم اكتسبت الاشتراكية صفة العلم بجانب صفة الحلم فصارت حلما وعلما وذلك فور الصراع الحاد ضد طبقة الإقطاع الأوربي الذي أدى إلى انبثاق طبقة الرأسمالية الحديثة ومعها الطبقة العاملة الحديثة . وقد ساعد ذلك على حدوث الاكتشافات البحرية واتساع حركة التجارة العالمية وسيطرة إنجلترا على البحار وقيام الثورة الصناعية واختراعاتها واكتشاف البخار وتطور صناعة الحديد وصناعة الغزل والنسيج . وفي ظل هذا التطور الصناعي نشب الصراع الطبقي أيضا بين العمال وبين الرأسماليين أصحاب المصانع من خلال الإضرابات العمالية التي تعرضت خلالها آلات المصانع للتحطيم بواسطة العمال الذين كانوا يعيشون في مرحلة المراهقة العمالية مما جعلهم يظنون أن الآلات مصدر شقائهم واستغلالهم وليس السادة الرأسماليين..

وقد صاحب ذلك زيادة حدة الصراع ضد الإقطاع الأوربي وظهور مذاهب وأفكار تقدمية وثورية واشتراكية مثل أفكار "فولتير" و"جان جاك روسو" والعامل الشيوعي "بابتيك" في فرنسا . هذه الأفكار التي حرضت الجماهير على الحرب والصراع الطبقي ضد الطبقات الإقطاعية . والطبقة الرأسمالية الحديثة والمتوحشة ، فدعوة "فولتير" كانت موجهة إلى تحقيق الإنسانية والعدالة والحرب على القسوة البربرية للإقطاعيين والرأسماليين..

ودعوة "روسو" تتجلى في مقولته .. ولد الإنسان حرا .. وهو في كل مكان يرسف في الأغلال .. وإن الحرية امتحان عسير . كما أنها عطية

إلهية . وأنها تحتاج إلى مجاهدة للنفس أشق كثيرا من طاعة الأوامر الخارجية .. إن الحرية طعام قوي .. ولكنه طعام يحتاج إلى هضم متين .. إنني أضحك من تلك الشعوب المنحطة التي تثور لمجرد كلمة من متآمر دساس .. والتي تجرؤ على التحدث عن الحرية وهي تجهل كل الجهل ما تعنيه .. والتي تتصور أنه لكي يتحرر الإنسان يكفي أن يكون متمردا وثائرا .. أيتها الحرية المقدسة السامية ليت هؤلاء المساكين يعرفونك حق المعرفة .. ليتهم يعلمون أي ثمن يبذل للظفر بك .. ويا ليت في الإمكان تعليمهم أن قوانينك أشد صرامة من نير الطغاة الثقيل ..

ولذلك فقد وجد الشيوعيون والفوضويون في شخص "روسو" نبيا وقديسا لأنهم قد وجدوا في أفكاره غذاء في إدانته للأغنياء وعطفه على الفقراء . قال "تولستوي" .. كنت وأنا في الخامسة عشر من عمري أحيط عنقي بميدالية عليها صورة "روسو" .. وقد وفرت عقيدة المساواة التي بشر بها موضوعا أساسيا من النظرة الاشتراكية ..

أما العامل الشيوعي "بابيف" فقد واجه نبلاء فرنسا الذين قد أكدوا حقوق الإقطاعيين ضد الفلاحين الفقراء في رسالته الثورية في يوليو ١٧٨٧ قال فيها .. إن كل الناس متساوون في الطبيعة وان كل شيء مشتركا في الحياة الطبيعية .. وقد التف حوله أنصار كثيرون حاولوا الاستيلاء على السلطة بعد الثورة الفرنسية.فقبض عليه وأعدم في سنة ١٧٩٧ ..

وفي كراسات المظالم التي رفعت لمجلس طبقات الأمة نددت بمظالم الإقطاع في فرنسا .. وفي سنة ١٧٨٩ قبل الاستيلاء عنوة على سجن الباستيل أصدر "فرنسوا بواسيل" كتاب تعليم للنوع الإنساني بالسؤال والجواب .. قطع الشوط كله إلى الشيوعية . فقال أن كل الشرور مردها الطبقة المرتزقة . القاتلة للبشر . المعادية للمجتمع . التي ظلت إلى الآن تحكم الناس وتذلهم وتدمرهم ..

هكذا كانت التعبئة الروحية والتحريضية للثورة الفرنسية ثورة الحرية والإخاء والمساواة ذات الطبيعة الاشتراكية .. أما التعبئة المادية لتلك الثورة فقد تجلت في إجبار الفلاحين الفقراء على ضرائب وإتاوات للدولة . والكنيسة . والنبلاء . واضطهاد الصناع والحرفيين والعمال وإفقارهم من خلال ضآلة الأجور وزيادة ساعات العمل وحرمانهم من التنظيم النقابي إلى

حد أن انتشار الإضرابات والمظاهرات العمالية قبل الثورة بعـدة سنوات احتجاجا على زيادة الفقر وانتشار الجوع .. ففي مدينة ليون وحدها كان هناك ثلاثين ألف شخص يتعاطون الإعانة العامة في سنة ١٧٨٧ . وفي مدينة باريس قيدت مائة ألف أسرة على أنها فقيرة جدا ومعـوزة .. وأن عامة الشعب ضعاف الأبدان صفر الوجوه ..

ولذلك فقد ألف العمال نقاباتهم في تحد للسلطة والقانون واضربوا عن العمل بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة في سنة ١٧٧٤ وأقاموا سلطة عمالية محلية كانت تسمى حكومة الكوميون قصيرة الأجل من العمال . فاستدعت الحكومة الفرنسية الجيش الذي قضى على هذه السلطة العمالية التي تكونت قبل حكومة كوميون باريس العمالية والاشتراكية في سنة١٨٧١ ..

وبفضل التعبئة الروحية والتعبئة المادية اشـتعلت الثـورة الفرنسية العظمى سنة ١٧٩١ ثورة الحرية والإخاء والمساواة التـي أصـدرت أول قانون لحقوق الإنسان في التاريخ ..

- والجدير بالذكر ان هذه الثورة الفرنسية العظمى كانت أهـم مقومـات ظهور الاشتراكية العلمية التي اعتمدت على مقومات كان أبرزها ..
- انتقال الطبقة العاملة الأوربية من مرحلة الحـس الطبقـي والمراهقـة الطبقية إلى مرحلة الوعي الطبقي والنضوج الذهني وممارسـة حـرب المفاهيم الاجتماعية إلى حد المناداة بوحدة الطبقة العاملـة وتأسـيس النقابات والتحزب في أحزاب عمالية واشتراكية وتبنـي الدعـوة إلـى اشتراكية عمالية صرفة مثـل شـيوعية العـامل الفرنسـي "بـاييف" واشتراكية عامل الطباعة الفرنسي "بردون" ..
- حدوث طفرة في الفلسفة الألمانية من خلال فلسـفة "هيجـل" وفلسـفة "فورباخ" .. كان هيجل بفلسفته هو أول من وضع نظرية عن التطـور الروحي وليس التطور المادي .. أما فلسفة فوربـاخ فقـد أثبتـت أن الطبيعة يمكن تفسيرها بذاتها دون اللجوء إلى تصورات صوفية ..
- ظهور الاقتصاد السياسي الرأسمالي على يد "ريكـاردو" و"آدم سـميث" اللذين أثبتا أن الثروة وكل ثروة مصدرها العمل الإنسـاني كمـا قـال العلامة "بن خلدون" فقد عرف آدم سميث ثروة أمة من الأمم لا بأنـها مقدار الذهب والفضة الذي تملكه . بل الأرض وتحسيناتها وغلاتـها . والشعب وجهده وخدماته ومهاراته وسلعه . وقد كان رائد الرأسـمالية

العظيم منحازا للعمال ضد أصحاب الأعمال لوعيه باستغلال الرأسماليين للعمال وحذر من مغبة ترك التجارة ورجال الصناعة يقررون سياسة الحكومة ..

- تعاظم وعي الطبقة العاملة الأوربية بمصالحها ومصالح الفلاحين والكادحين عموما في مواجهة مصالح رأس المال والاستعمار فبادرت بتأسيس اشتراكيات عديدة منها اشتراكية العامل الفرنسي "بابيف" التي سبق ذكرها . واشتراكية عامل الطباعة الفرنسي "بردون" المضادة للملكية الخاصة التي تقوم على التسليف المحابي بواسطة مصرف شعبي لا يتعامل بالربا مثلما ينص الفقه الإسلامي بشأن تحريم الربا والفائدة . واشتراكية "سان سيمون" الداعية إلى إشاعة العلم والصناعة وبناء المنشآت الهامة وزواج الشرق بالغرب من خلال تأسيس مشاريع عملاقة مثل القناطر والسدود والقنوات المائية . واشتراكية "لاسال" في ألمانيا واشتراكية "باكونين" في روسيا واشتراكية "أوين" التعاونية في إنجلترا .. كل هذه الاشتراكيات العمالية كانت تمثل كلها الطبقة العاملة الأوربية ونقاباتها كما كانت تضم جمهورا واسعا من المثقفين الثوريين والاشتراكيين . ولهذا فالصراع الطبقي العمالي وثوراته قد تزايد وكان من أهمها ثورات العمال في عام ١٩٤٨ الذي سمي بالعام المجنون بسبب ثوراته التي زلزلت عروش أوربا وطبقاتها الرأسمالية ..
- وبفضل هذه المقومات المادية والروحية فقد تحققت ثورة "كوميون" باريس الديمقراطية الاشتراكية بالانتخاب الحر المباشر لكل مسئوليها وموظفيها حتى أطيح بها بواسطة تحالف الجيش الفرنسي المهزوم مع الجيش البروسي (الألماني) المنتصر الذين أعلنا الحرب على أول حكومة اشتراكية عمالية في العصر الحديث خوفا على المصالح البورجوازية البروسية والألمانية وقتئذ ..

تلك هي المقومات التي قامت عليها الاشتراكية العلمية باعتبارها الأصول المرجعية والنظرية والمادية فضلا عن عبقرية "ماركس" و"انجلز" وثقافتهما الموسوعية التي استفادت من تراث الاشتراكيات القديمة والعدل الاجتماعي في الإسلام والمسيحية وكذلك علاقتهما بالمنظمات الاشتراكية والنقابات العمالية وملامسة كلا منهما لهموم الطبقة العاملة وأحوالها المعيشية ..

ومن هذا المنطلق بادر "ماركس" و"انجلز" بجعل الاشتراكية حلما وعلما للبشرية الكادحة من خلال عضويتهما بمنظمة عمالية تسمى رابطة الشيوعيين سنة ١٨٤٧ التي كانت رابطة ديمقراطية من الباب إلى المحراب . والتي كانت تضم الثوريين الألمان المثقفين في باريس حيث كلفتهما الرابطة بوضع برنامجها الذي تجلى في صدور البيان الشيوعي تحت شعار .. يا عمال العالم اتحدوا ..

وتصدر البيان الشيوعي بمقولة .. أن أوربا القديمة والرجعية وملوكها والإقطاعيين والرأسماليون والبوليس . كل هؤلاء باتوا مرعوبين وخائفين من شبح الشيوعية التي أصبحت معترفا بها كقوة من جميع القوى الأوربية .. مما دفع الشيوعيون من عمال وفلاحين ومثقفين أن يوضحوا بمرأى ومسمع من العالم كله تصوراتهم وأهدافهم واتجاهاتهم وأن يواجهوا الشبح الشيوعي ببيان الحزب الشيوعي نفسه الذي تتجلى ملامحه في التالي .. أن التاريخ إلى يومنا هذا هو تاريخ صراع الطبقات ، فالعبيد والأسياد عاشوا في صراع والإقطاعيين والفلاحين والأقنان عاشوا في صراع ، والرأسماليين والعمال يعيشون في صراع ..

فالصراع الطبقي بين العمال والرأسماليين يتميز بأنه صراع سياسي من جراء ممارسات الرأسمالية بإدخال نظام الضبط والربط العسكري في علاقات العمل خلال تشغيل العمال ساعات عمل مضاعفة مقابل أجور ضئيلة مما جعل الاستغلال للعمال مكثفا وخاصة بعد أن تحولت الرأسمالية إلى مرحلة الاستعمار وباتت قادرة على استغلال عمال المستعمرات . ولذلك فالطبقة العاملة سوف تظل الطبقة الخصيمة للرأسمالية التي تمارس استغلال العمال اليدويين والعمال الذهنيين . إن الطبيب والقانوني والكاهن والشاعر والعالم جميعهم أجراء في خدمة رأس المال وفقا لتعبير "ماركس"..

وأهم ما ورد في البيان الشيوعي هو الرد على اتهامات الرأسماليين للشيوعيين بشأن الملكية الرأسمالية المراد إلغاؤها . مع العلم أن الشيوعية لا تسلب أحدا القدرة على تملك منتجات اجتماعية . إن ما تسلبه هو فقط القدرة على استعباد عمل الغير عبر تملك تلك المنتجات . أي أن الشيوعيين ضد أن يتحول عمل العمال الذي يصفه "آدم سميث" بأنه المصدر الوحيد للثروة إلى رأس مال وإلى نقود وريع عقاري ثم إلى سلطة

اجتماعية يحتكرها الرأسماليون بفضل الملكية الرأسمالية . ومن ثم يصبح الرأسماليون وحدهم يحتكرون الثروة والسلطة معا .. ولهذا يقول البيان الشيوعي للسادة الرأسماليين .. وباختصار تتهموننا بكوننا نريد إلغاء ملكيتكم أنتم .. وهذا ما نريده بكل تأكيد .. وبشأن العائلة يتهم الرأسماليون الشيوعيين بالقضاء على العائلة فيرد البيان بقوله .. علام ترتكز العائلة الرأسمالية ؟ على رأس المال والربح الخاص .. مع العلم أنها تقضي على العائلة العمالية وربما تدفعها إلى الرذيلة بسبب ما تفرضه عليها من أجور ضئيلة وفقر وبؤس وبطالة .. إذن فأين الرأسمالية من العائلة الكادحة ..

ويتهم أيضا الشيوعيون والاشتراكيون بأنهم يريدون القضاء على استغلال الآباء للأبناء .. وهذه تهمة يتشرف بها الشيوعيون والاشتراكيون لحمايتهم الطفولة من الاستغلال في الأعمال الشاقة ..

ومن أفظع الاتهامات الرأسمالية للشيوعيين والاشتراكيين تهمة إشاعة النساء .. الأمر الذي دفع البيان الشيوعي إلى رد هذه التهمة المنحطة إلى نحور الرأسماليين واصفا إياهم بأنهم يرون في زوجاتهم أنها مجود أدوات إنتاج وأن أدوات الإنتاج هذه تستثمر اجتماعيا في بعض الأحيان ..

بالإضافة إلى ذلك فلم يكتف الرأسماليون بأن نساء العمال وبنات العمال تحت تصرفهم بل وجدوا لذة لا مثيل لها في إغواء وتبادل زوجات بعضهم البعض ..

هكذا استهل البيان الشيوعي مسألة بداية تنظير الاشتراكية كعلم مؤكدا جانبها الإنساني والأخلاقي في مجال الملكية والأسرة والمرأة والأطفال والتربية العامة ولقد صاحب ذلك تزايد النضالات العمالية والاشتراكية التي كانت تمارسها نقابات العمال والمنظمات الشيوعية والاشتراكية في أوربا وأمريكا التي شهدت كفاح العمال اليساريين والاشتراكيين في مدينة شيكاغو وغيرها من المدن الأمريكية التي وقعت فيها أحداث أول مايو التي استشهد فيها عشرات العمال برصاص البوليس الأمريكي بالإضافة إلى شنق زعماء العمال سنة ١٨٨٧ الذين قد ثبتت براءتهم بعد سنوات وسنوات بعد أن اعترف قسيس أمريكي شريف بان مدير البوليس بمدينة شيكاغو قد اعترف له اعترافا جنائزيا بأن إضرابات عمال أول مايو وأحداثها كانت مدبرة من البوليس الأمريكي خدمة للرأسمالية الأمريكية

الأمر الذي أدى إلى احتجاجات العمال في أوربا وأمريكا بالإضرابات والمظاهرات التي أجبرت الحكومة الأمريكية على إعادة محاكمة عمال أول مايو حيث تم تبرئتهم ولكن بعد أن أعدموا .. ولهذا قررت نقابات العمال وأحزابهم الاشتراكية في العالم جعل يوم أول مايو عيدا ثوريا لعمال العالم..

وفي خضم ذلك الصراع الطبقي الجاد أصدر "كارل ماركس " كتابه - رأس المال - الذي يعتبر إمتدادا للمقدمة العظيمة "لابن خلدون" وامتدادا لكتاب ثروة الأمم لرائد الرأسمالية "آدم سميث" وامتدادا أيضا لبعض أفكار "ريكاردو" الرائد الثاني للرأسمالية بالإضافة إلى قلب فلسفة الفيلسوف "هيجل" بشأن التطور الذي نقله ماركس من تطور في الروح المطلقة إلى تطور مادي في الحياة والمجتمع ..

ولذلك فقد كان وما زال كتاب راس المال متضمنا مجمل الفكر الاشتراكي والعمالي وأصول علم الاقتصاد السياسي وأصول علم الاجتماع السياسي وأصول علم الأخلاق حيث فضح عيوب وعورات رأس المال الذي لم يقنع باستغلال أطفال ونساء ورجال وطنه لكي تتراكم ثرواته بل تعدى إلى استغلال أبناء المستعمرات من عمال وفلاحين بالإضافة إلى تجارته في العبيد وفي أعراض نساء العمال وعفاف بناتهم ..

وقد لوحظ أن كتاب راس المال كان متفقا مع مقدمة "ابن خلدون" وفكر "ريكاردو" في مسألة تحديد قيمة العمل الإنساني ومتفقا مع "آدم سميث" في مسألة العمل الإنساني باعتباره ثروة .. كما تضمن هذا الكتاب العديد من القوانين الاشتراكية التي كانت وما زالت بمثابة تتويج للاشتراكية العلمية التي تتجلى في القوانين العلمية والاشتراكية التالية ..

- قانون التناسب بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج
- قانون التناقض بين العمل وراس المال
- قانون تطور التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية
- قانون الصراع الطبقي كمحرك للطبقات الاجتماعية
- قانون القيمة والقيمة الزائدة
- قانون الوعي الاجتماعي باعتباره انعكاس للوجود الاجتماعي
- قانون الثورة الاجتماعية أي قانون تطور المجتمعات

- القوانين الأساسية بشأن نظرية الإمبريالية كمرحلة عليا من تطور الرأسمالية
- قانون تغير التركيب العضوي لرأس المال وميل معدل الربح للهبوط

ثم جاء "لينين" قائد ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا القيصرية سنة ١٩١٧ فأثرى الاشتراكية كعلم بنظريته عن الإمبريالية وأنها أي الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية .. كما استنتج بخبرته النضالية وقدرته النظرية إمكانية انتصار الثورة في بلد واحد أو في عدة بلدان .. كما حدث في روسيا القيصرية وغيرها ..

وهكذا ظهرت الاشتراكية العلمية التي طبقت في روسيا والصين وغيرهما وذلك بالإضافة إلى مئات الأحزاب الشيوعية والاشتراكية التي لم تتخلى عن الاشتراكية العلمية حتى يومنا هذا رغم سقوط الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي في أوربا . هذه الاشتراكية التي تنتسب إلى الماركسية باعتبارهما فكر الطبقة العاملة وفكر للتقدم الاجتماعي والعدل الاجتماعي والمساواة وباعتبارهما منهج جدلي مادي تاريخي . وفلسفة لتفسير العالم وتغييره لصالح الإنسان وخيره وسعادته . ونظرية في الاقتصاد السياسي ونظرية في علم الاجتماع على حد وصف الدكتور "هشام غصيب" ..

وأخيرا يضيف "لينين" تعريفين جديدين للاشتراكية هما الاشتراكية العلمية .. بأنها رأسمالية دولة احتكارية موجهة لخدمة الشعب .. وبهذا الشكل لا تعود احتكارا رأسماليا ثم وصفت هذه الاشتراكية العلمية .. بأنها نظام التعاونيين المتمدينين .. تلك هي الاشتراكية بعد أن أصبحت حلما وعلما..

الاشتراكية ومقدمات السقوط

في تقديري كعامل مصري نقابي ويساري أن السقوط المدوي والمفاجئ للاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ودول المعسكر الاشتراكي في أوربا الشرقية بعد مرور اكثر من سبعين سنة على قيام الثورة الاشتراكية في روسيا القيصرية سنة ١٩١٧ ليس سقوطا إلا في مظهره فقط كما سوف أوضح فيما بعد ..

ولكن هذا السقوط المظهري للاشتراكية ومقدماته التي تتضمن أسباب ذلك السقوط المزعج للبشرية الكادحة التي تمثل أكثر من تسعين في المائة من البشر فوق الكوكب الأرضي . لم يلق أي اهتمام من أهل القلم والنون من اليساريين والتقدميين المصريين وبالتالي فلم تتجمهر أسبابه الموضوعية في صفوف المصريين الكادحين الذين يعانون من غياب الثقافة اليسارية والاشتراكية مما جعل الكثير منهم لا يهتمون بالاشتراكية من حيث أنها حلم حياة الكادحين ومن حيث أنها علم يخص عناصر الكادحين ومستقبلهم ..

والمثير للانتباه أن هؤلاء السادة المثقفين الاشتراكيين واليساريين في مصر والعالم قد اختلفت مواقفهم وتعددت آرائهم وتفرقوا شيعا حيال سقوط الاشتراكية وفقا لما تكنه الصدور .. هذه الصدور المعبأة بالأحلام الشخصية وأطماعها أو بأحلام الكادحين والمعذبين في الأرض .. ولهذا فبعض هؤلاء المثقفين الاشتراكيين واليساريين تخلى رويدا رويدا عن حيائه فجحد الاشتراكية وخلعها من حياته خلعا بائنا بعد أن كان يحج ويعتمر سنويا وشهريا إلى كعبتها موسكو آكلا شاربا متنزها ومعه أسرته الكريمة بالمجان على حساب الطبقة العاملة في الاتحاد السوفيتي وقتئذ . وذلك فضلا عن الدعم المالي الذي يدخل جيبه وحده بذريعة دعم حزب الطبقة العاملة في وطنه . والبعض من هؤلاء قد بادر رويدا رويدا في تغيير ولائه حيث ولى وجهه صوب سلطة رأس المال في بلده وربما خارج بلده ظنا منه أن الرأسمالية باتت هي المستقبل ونهاية العالم على حد تعبير المفكر الياباني الأمريكي "يوكاهاما" . ومن ثم فقد بادر هؤلاء وهؤلاء بالرقص للقرد في دولته ..

والبعض الآخر من هؤلاء المثقفين اليساريين اعترى يقينه الاشتراكي الظن والظنون فاستبدت به حاله من الإحباط والاغتراب مما دفعه إلى التزام الصمت ربما إلى حين من الدهر ..

ولكن البعض من هؤلاء المثقفين لم يزلزله سقوط الاشتراكية . فظل مواليا لها وقابضا عليها باعتبارها حلم وعلم وكان أبرز هؤلاء المثقفين الثوريين المناضل الأفريقي الأبيض المرحوم "جو سلوفو" سكرتير الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا ومسئول الجناح العسكري بالمؤتمر الوطني الأفريقي بقيادة الزعيم الأفريقي "نلسون مانديلا" هذا المناضل الذي لم يهتز

عقله الثوري ولم يعتري يقينه الاشتراكي أي شك بعد سقوط الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي في شرق أوربا حيث قال ..

أعترف بأنني ما زلت وسأبقى حالما عنيدا وقويا وطوباويا لا يمكن شفاءه فأنا مؤمن لا بالمعنى الديني . وإن كنت استخدم رموزا دينية . بأن الروح الإنسانية قادرة تماما على تحقيق مجتمع لا يكون فيه الإنسان معين وعالة على إنسان آخر مثل هذا المجتمع ليس بكلمة بالغة البساطة إلا المجتمع الذي نطلق عليه اسم المجتمع الاشتراكي الذي يشكل نبراس سائر الثوريين قبل "ماركس" وبعد "ماركس" على حد سواء . ليس إلا المجتمع الاشتراكي الذي أنا مقتنع قناعة راسخة بأنه سوف يتحقق في النهاية ..

ثم قال .. ستتطلب بلوغ الاشتراكية بطبيعة الحال ما هو أكثر من المناقشات النظرية فالأداة الرئيسية ستكون مؤلفة من تنظيم معذبي هذه الأرض وكفاحهم .. علينا أن نتذكر معذبي هذه الأرض الذين يؤلفون نسبة تسعين في المائة أو أكثر من البشرية التي تعيش في ظل تشكيلات اقتصادية واجتماعية رأسمالية .. وبالنسبة لهؤلاء إذا لم تكن الاشتراكية هي الحل فلن يكون أمامهم حل آخر على الإطلاق ..

تلك هي شهادة مناضل أفريقي بارز صنعته وحرفته ممارسة حرب المفاهيم وممارسة حرب السيف دفاعا عن المعذبين في الأرض حتى يتحرروا بتحقيق الاشتراكية كحلم وعلم ومن ثم فإن شهادته هذه لا تجب مقولات المتشككين في مستقبل الاشتراكية فقط بل تثبت وتؤكد أن الاشتراكية هي الحل الوحيد لتحرير معذبي هذه الأرض من عذابهم المستمر والأليم ..

ولكن تباين آراء ومواقف أهل القلم والنون من اليساريين بشأن سقوط الاشتراكية أحيا علم الكلام وممارسة الجدل وحرب المفاهيم في عالم محدود هو عالم المثقفين عموما . وذلك دون النضال من أجل مصالح الكادحين ودون مشاركة أصحاب القضية من عمال وفلاحين وكادحين في نظر قضيتهم وما حل بها من مصائب وأهوال تجعل الولدان شيبا ..

ولما كان الموقف من سقوط الاشتراكية قاصرا على الكلام ومشتقاته فإن المتكلمين لم يراعوا تقريبا عنصر الزمان وسلطانه وعنصر المكان وتأثيراته ولم يراعوا أن الاشتراكية ليست دينا وبالتالي فإن أدبياتها غير مقدسة فضلا عن أنها لا تحتمل التأويل مثلها مثل النصوص الدينية

المقدسة ولهذا فإن الاشتراكية العلمية وقوانينها قابلة للخطأ والصواب في التطبيق وقابلة للتجديد والتطوير خلال التطبيق والتحقيق ..

ولذلك فقد أتهم "ماركس" و"إنجلز" باعتبارهما مؤسسي الاشتراكية العلمية بأنهما السبب في جعلها محملة بمقدمات وأسباب سقوطها مع العلم فإن "ماركس" و"إنجلز" لم يدعيا طول حياتهما ونضالهما المشترك أنهما صاغا نظرية علمية شاملة مكتملة ونهائية للاشتراكية ولم يدعيا نظرية كونية الأبعاد سرمدية المدى على حد تعبير "محمد إبراهيم نقد" سكرتير الحزب الشيوعي السوداني ..

ومع هذا فقد اتهم "ماركس" بالخطأ النظري عندما حدد قيام الثورة الاشتراكية في ألمانيا حيث الصناعة والتصنيع والنمو الاقتصادي وذلك بعد أن رأ أن "بسمارك" قد أنجز بعض مهام الثورة الديمقراطية في ألمانيا ومع هذا فقد فرض الواقع الثوري قيام هذه الثورة الاشتراكية في روسيا القيصرية المتخلفة صناعيا واقتصاديا ..

ولكن الأستاذ الجامعي الإيطالي "دمينيكولوسردو" برر هذا الخطأ الذي يؤذي الاشتراكية العلمية ويطعن في نفس الوقت في الشرعية الثورية لثورة أكتوبر الاشتراكية سنة ١٩١٧ حيث قال .. أن وجود هوة بين برامج الثورة ونتائجها هو سمة تميز كل ثورة وذلك منذ أن قام "كريستوف كولمب" بثورته البحرية ساعيا للوصول إلى الصين فوجد نفسه يكتشف أمريكا ..

ومن الاتهامات أيضا وجود أخطاء في نظرية الاشتراكية العلمية تمثلت في توقع "ماركس" و"إنجلز" بزوال الدولة بعد مرحلة قصيرة من ديكتاتورية العمال . ولهذا فقد غفلا عن صياغة نظرية عن الدولة أو دولة القانون .. ولهذا يرى الأستاذ الإيطالي المشار إليه من قبل أنه يوجد ثلاث نقاط ضعف في نظرية "ماركس" و"إنجلز" بشأن نظرية الاشتراكية العلمية وعلاقتها بالمسألة الفلاحية والمسألة القومية هاتين المسألتين قد تسببتا في أزمة للثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي . إذ أن هذه الأزمة ليس سببها المسئولين الثوريين في تطبيق الاشتراكية وحدهم ولكن كان سببها أيضا فلسفة التاريخ التي تبنياها "ماركس" و"إنجلز" وبشرتهما بزوال الدولة . وزوال السوق . وزوال الحدود بعد تسلم العمال للسلطة وانتصار الاشتراكية ..

وقد قال البعض أيضا أن من أخطاء الاشتراكية العلمية كنظرية فكرة دكتاتورية العمال التي وضعها "ماركس" و"إنجلز" كمبدأ ثابت للاشتراكية العلمية حيث استقى "ماركس" و"إنجلز" فكرة هذا المبدأ من الواقع النضالي والثوري للعمال في فرنسا وفي أوربا عام ١٩٤٨ وما قبله . ولقد ترتب على رؤية "ماركس" و"إنجلز" بشأن مسألة دكتاتورية العمال حالة من التشكك في فكرهما هل هو ديمقراطي أو غير ديمقراطي مع العلم أنهما كانا عضوين في منظمة عمالية تسودها الديمقراطية من الباب إلى المحراب . ولهذا طرح المفكر الاشتراكي "جاك تكسيبه" وجهة نظر مفادها أن فكرهما في جوهره فكر ديمقراطي وأن "ماركس" و"إنجلز" قد عالجا مسألة الديمقراطية بالارتباط الوثيق مع مسألة الثورة .. ثم تعرض إلى تفسيرهما لمفهوم ديكتاتورية العمال والثورة الدائمة بقوله .. فالمفهوم الأول ثابتا من ثوابت فكرهما بشكل نسبي علما بأن معناه قد شهد تغيرات مهمة كان آخرها تأكيد "إنجلز" في عام ١٨٩١ أن الجمهورية الديمقراطية على نمط الجمهورية الفرنسية الأولى التي قامت في أعقاب الثورة الفرنسية هي الشكل المحدد لديكتاتورية العمال ثم ينبه المفكر "تكسيبه" إلى أن "ماركس" و"إنجلز" قد عاشا في مرحلة لم تكن الديمقراطية السياسية قد تأسست بعد .. ويؤكد أن النضالات العمالية من أجل الاشتراكية قد لعبت دورا حاسما في توفير ولادة الديمقراطية الحديثة ..

وبجانب ذلك فقد تعرض "ماركس" للنقد بخصوص علاقة الاشتراكية بالسوق حيث رأى البعض أن الاشتراكية تتناقض مع السوق ورأى البعض الآخر أن الخطأ الأكبر الذي وقع فيه ماركس تمثل في تجاربه الاشتراكية كمجتمع يتجاوز السوق مع أن السوق يمكن أن يفعل فعله في مجتمع غير رأسمالي ..

هذه لمحات من الانتقادات التي وجهت إلى نظرية الاشتراكية العلمية وواضعي أسسها "ماركس" و"إنجلز" باعتبار هذه الانتقادات متضمنة مقدمات وأسباب سقوط الاشتراكية من الناحية النظرية ثم انتقلت هذه الانتقادات من زمن النظرية إلى زمن التطبيق بقيام ثورة أكتوبر الاشتراكية سنة ١٩١٧ بقيادة رئيس الحزب الاشتراكي الروسي "لينين" ورفاقه "ستالين" و"تروتسكي" وغيرهما ..

وقد تعرضت اللينينية أيضا لانتقادات تقول .. أن أحد الأسباب الرئيسية لانهيار التجربة السوفيتية يرجع إلى اللينينية التي مثلت تعبيرا عن إرادة قتالية وتحريف للماركسية وهي تناقضت مع الماركسية وخانتها منذ اتخاذ قرار القيام بالثورة الاشتراكية في بلد متخلف .. هي روسيا .. إثر مرحلة ديمقراطية قصيرة .. أما آخرون فقد حملوا "ستالين" والستالينية التي ظهرت بمظهريتها عام ١٩٢٤ المسئولية الرئيسية عن الانهيار . لأن انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا كانت مجرد استبداد شرقي أو أسيوي .. وكان الرد على أصحاب هذا الرأي أنهم يتجاهلون كل الطاقات التحريرية التي أطلقتها ثورة أكتوبر والموجة الثورية التي أعقبتها على امتداد العالم .. أما الفظاعات التي ارتكبت في عهد "ستالين" فهي لا تمثل سوى إحدى وجهي العملة أما وجهها الآخر فقد تمثل في التقدم الهائل الذي تحقق ..

يقول الأستاذ الجامعي الإيطالي "لوسردو" .. أن التاريخ الذي بدا في أكتوبر ١٩١٧ لا يمكن تحليله بمعزل عن النزاعات المأساوية التي واجهت الثورة الاشتراكية في روسيا في الداخل والخارج على السواء .. ويسأل السؤال التالي .. هل كانت الثورة الثانية التي بدأها "ستالين" في عام ١٩٢٩ ضرورية .. ويجيب بنعم . كانت كذلك بالنسبة "لستالين" الذي قدر أن عدوانا جديدا على الاتحاد السوفيتي هو أمر مؤكد .. وتبين شهادة مؤرخين شيوعيين أن الاتحاد السوفيتي بقيادة "ستالين" والحزب الشيوعي السوفيتي لم يكن لينجح في مواجهة امتحان العدوان الهتلري إلا بفضل تشريك وتجمع الزراعة والتصنيع الثقيل .. ولكن ماذا عن الطرق الإرهابية التي تفشت في هذه الثورة الثانية .. فالإجابة تقول أنها كانت مظهر من مظاهر الحرب في واقع معقد ..

وينبري الكثير من المفكرين بالدفاع عن "لينين" واللينينية تأكيدا على أن الاشتراكية العلمية هي الماركسية اللينينية فيقول الدكتور طالب غريبة..

أما "لينين" فقد حدد نظرته إلى الحزب أي الحزب الشيوعي بالقول بأن الحزب عقل وشرف وضمير عصرنا واعتبر أن الحزب هو الشكل الأعلى لاتحاد العمال الطبقي مؤكدا على المركزية الديمقراطية باعتبارها الأساس

الذي يقوم عليه الحزب دون أن يقدم تفاصيل هذه المركزيـــة الديمقراطيـــة وتعددها الحزبي والنقابي ..

وقد طور "لينين" الأفكار الماركسية بشأن تشخيص الرأسمالية بوضـــع كتابه المشهور .. الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية .. ووضـــع قـانون التطور الاقتصادي المتفاوت للدول الرأسمالية في مرحلة الاســتعمار ممــا جعله يتوصل إلى فكرة إمكانية انتصار الثورة الاشتراكية فـــي بلـــد واحـــد مخالفا بذلك أراء "ماركس" و"إنجلز" حول الموضوع ..

ويرى الدكتور غريبة أيضا أن "لينين" ورفاقه أخذوا الجـــانب المتشـــدد من الماركسية خلال ثورتهم الاشتراكية وفور قيام دولتهم الاشتراكية حيث تم تغليب الطبقي على الإنســـاني وتغليـــب الأيديولوجـــي علـــى المعرفـــي والفلسفي وتغليب السياسي على الاقتصادي ..

وفي تقديري أن ذلك شيء طبيعي لأن الثـــوري المقـــاتل لـــه رؤيتـــه المستوحاة من واقعه الصعب . هذه الرؤية لابد أن تختلـــف عـــن رؤيـــة المفكر والمنظر الذي يعيش بعيدا عن الأحداث الحارة والخطيرة ومن ثـــم فإن ممارسات "لينين" و"ستالين" كذلك النظرية والعلمية تكتسي بالكثير مـــن الصحة والقليل من الخطأ الذي يمكن تبريره لأن مثل هذا الخطأ لـــم يكـــن وراءه مصلحة شخصية أو طبقية بدليل أن "لينين" و"ستالين" لم يخرجا مـــن الحياة الدنيا بإرث مادي غير الكفن ..

ورغم إنجازات "ستالين" التي سبق الحديث عنها فقـــد تعـــرض للنقـــد الشديد من المناضل الأفريقي "جو سلوفوا" برفض ما يقال بشأن الحتميـــة التي فرضت ظهور الستالينية بوصفها نظاما جرى تعميمه من أجل إعـــادة إنتاج الفروق الاقتصادية وزيادتها في المجتمع الاشتراكي كلـــه .. وكـــان "ليون تروتسكي" أحد قادة ثورة أكتوبر الاشتراكية أحد الذين شاركوا فـــي ظهور الستالينية حيث ساهم تروتسكي بنفسه في تحويل النقابات العماليـــة إلى نقابات عمالية سلطوية يفوق بأسها بأس الأجهزة الحكومية بالإضافـــة إلى عسكرة العمل والعمال مع إصـــراره علـــى ان ديكتاتوريـــة المجـــالس السوفيتية غير ممكنة إلا عن طريق دكتاتورية الحزب .. ولهذا فهو الـــذي نظر تحويل دكتاتورية العمال إلى دكتاتورية الحزب ..

ومع هذا فإنني أرى أن "ستالين" وممارســـاته النظريـــة والســـلطوية وأخطائها كان ملتزما بالماركسية اللينينية بشدتها واصوليتها في مواجهـــة

الصعاب خلال بناء الدولة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي رغم أنف دول راس المال المعادية ..

دكتاتورية العمال وديمقراطية العمال

حرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس

لأمير الشعراء أحمد شوقي

عندما يسمع المثقف المصري كلمتي دكتاتورية (البروليتاريا) العمال يعتريه التأفف وكأن عقربة كادت تلدغه ..

ذلك هو موقف أهل القلم والنون في مصر المحروسة باستثناء قلة قليلة منهم .. هذا الموقف قد وقفه السادة المثقفين رغم انتماء بعضهم للفقراء من عمال وفلاحين وحرفيين وانتسابهم للفكر الشيوعي والاشتراكي والقوى الوطنية والتقدمية والديمقراطية ..

يقول المفكر الشيوعي الأستاذ "محمود العالم" .. كان هذا المصطلح (مصطلح دكتاتورية العمال) إذن مفهوما نظريا تحليليا للواقع الاجتماعي لكنه للأسف تحول في الواقع إلى ممارسة قمعية كرست دكتاتورية قيادة الحزب وبيروقراطيته واستبداديته وفقدت الطبقة العاملة في ظله قدرتها على الإنتاج والإبداع ولذلك ينبه فهذا المصطلح ينبغي أن يغير أساسا حتى لا نتورط في الدلالة وحتى لا تختلط المفاهيم بالممارسات والحلم بالواقع ..

وللعلم فإنني أتفق مع الأستاذ "محمود العالم" في الشق الأول من كلامه وأعترض على بقية الكلام لأنه يتضمن عداوة للعمال كل العمال فالأستاذ العالم الذي شارك في دكتاتورية عبد الناصر الاشتراكية والذي عاش في ظل دكتاتورية الرئيس المقتول أنور السادات والذي يعيش في دكتاتورية الرئيس مبارك يعلم جيدا أن دكتاتورية الطبقة العاملة هي في ذات الوقت ديمقراطية الطبقة العاملة هذه الطبقة العاملة والمنتجة ذات الغريزة الطبقية لتربيتها في مدارس النقابات العمالية التي تتجلى الديمقراطية في كل نشاطها التنظيمي والنضالي فضلا عن هذا فإن الديمقراطية السياسية قد انبثقت في أوربا وفي أمريكا من النضالات العمالية وإضراباتها ومظاهراتها وتضحياتها في معارك الثورة الفرنسية ثورة العدل والإخاء والمساواة سنة ١٧٩١ وفي إضرابات عام ١٩٤٨ وما بعده وفي ثورة حكومة "كوميون" باريس سنة ١٨٧١ وفي إضرابات مدينة شيكاغو

بأمريكا في مايو ١٨٨٧ .. إذن فإن الطبقة العاملة هي الأم التي حملت للبشرية الديمقراطية السياسية والحريات العامة والنقابية كما يعلم الأستاذ العالم باعتباره مفكرا شيوعيا . أنه لم توجد طبقة اجتماعية في طول التاريخ البشري وعرضه استطاعت أن تحقق وجودها كسلطة ودولة بدون توظيف دكتاتوريتها الطبقية بعنفها واستبدادها ودمويتها..

إذن فكيف تصدر صكوك الحرمان بشأن دكتاتورية الطبقة العاملة التي لا تستعبد الإنسان ولا تسخر الإنسان ولا تستغل الإنسان وذلك دون الطبقات الاجتماعية التي تستعبد الإنسان وتسخره وتستغله إلى أبعد الحدود مما يذكرنا بأغلبية السادة المثقفين الذين يكنون في صدورهم رفضا تاما بشأن قيام الطبقة العاملة بتحقيق سلطتها التي لم ولن تقوم إلا بواسطة الدكتاتورية العمالية والديمقراطية العمالية معا . هذه الدكتاتورية الطبقية التي توظف بواسطة العمال والفلاحين وجمهور الكادحين من حرفيين وموظفين صغار ومثقفين ضد الأقلية التي تمارس استعباد الشعب وتسخيره واستغلاله وقهره بفسادها واستبدادها السلطوي ..

ولقد غفل السادة المثقفين بشكل متعمد عن حقيقة أن الصراع الطبقي مفروض على الطبقة العاملة لتخفيف أو تلطيف أو إزاحة مظالم الاستغلال الرأسمالي أثناء العمل والإنتاج وخلال الحياة المعيشية .. وبالتالي فإن ذلك الصراع الطبقي المتبادل بينهم وبين رأس المال لابد أن يجبر العمال جبرا إلى اللجوء إلى دكتاتورية الطبقة العاملة للحفاظ على سلطتهم في مواجهة الصراع الطبقي المضاد من طبقة رأس المال مع العلم ان سقوط الاشتراكية لم يتم إلا بواسطة هذا الصراع الطبقي المضاد للرأسمالية وازلامها على المستوى القومي والدولي ..

ولذلك فقد أعطى "ماركس" أهمية بالغة لمسألة دكتاتورية العمال في كتابه ..الصراع الطبقي في فرنسا من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٠ .. كما قد شرح فحواها وضرورتها مع "إنجلز" في العديد من المؤلفات الماركسية حيث رأى "ماركس" أن الدولة وأي دولة هي قوة بوليسية وعسكرية لقمع الطبقة المحكومة والمظلومة .. وبالتالي فإن كل سلطة في أي بلد رأسمالي أو اشتراكي . ما هي إلا ديكتاتورية الطبقة التي تحكمه .. ففي الدول الرأسمالية مهما تعددت أشكالها وتقمشت بقماش الديمقراطية فإنها ديكتاتورية رأس المال والرأسمالية .. وكذلك الحال في الدول

الاشتراكية التي هي دكتاتوريات الطبقة العاملة وديمقراطيات الطبقة العاملة والشعب ..

ولكن تختلف دكتاتورية الطبقة العاملة عن دكتاتورية رأس المال والرأسمالية .. فدكتاتورية العمال موجهة إلى الأقلية .. وديمقراطية العمال للأكثرية .. بينما دكتاتورية رأس المال موجهة ضد الأغلبية من عمال وفلاحين وفقراء . وفي نفس الوقت هي ديمقراطية للأقلية الحاكمة والمالكة .. ولذلك فقد تمسك الحزب الاشتراكي الروسي بفكرة دكتاتورية الطبقة العاملة قبل ثورة أكتوبر الاشتراكية وبعدها . حيث قال "لينين" .. ليس بماركسي غير الذي يجعل اعترافه بالنضال الطبقي شاملا الاعتراف بدكتاتورية العمال ..

ولم يكن هذا الاعتراف مجرد اعتراف نظري فقط بل أصبح اعترافا عمليا بدكتاتورية العمال بعد قيام دولة العمال والفلاحين الاشتراكية في روسيا لأول مرة في التاريخ الحديث . يؤيد ذلك رسالة "لينين" إلى العمال الأمريكيين في أغسطس ١٩١٨ قال فيها .. إن سوفيتيات (أي مجالس) العمال والفلاحين تشكل نموذجا جديدا للثورة .. النموذج الجديد الأعلى للديمقراطية وهي شكل ترتديه دكتاتورية الطبقة العاملة . ووسيلة لإدارة الدولة دون الرأسمالية وضد الرأسمالية فالديمقراطية هنا لأول مرة في خدمة الجماهير في خدمة العمال والكادحين . وقد كفت أن تكون ديمقراطية للأغنياء . ثم يقول "لينين" ما الفائدة من حرية الاجتماعات للعمال والفلاحين إذا كانت خير الأبنية تستأثر بها جمعا الرأسمالية إن سوفيتياتنا (مجالسنا العمالية والفلاحية) قد انتزعت من الأغنياء جميع المباني الجيدة في المدينة والريف وسلمناها جميعا للعمال والفلاحين لكي يجعلوا منها مقرات جمعياتهم . وهم يعقدون فيها اجتماعاتهم .. هذه حرية الاجتماعات عندنا .. الحرية للعمال والفلاحين . وهذا هو مغزى دستورنا السوفيتي . دستورنا الاشتراكي . هذا هو فحواه ..

ولقد أخذ "ستالين" خلال توليه أمانة الحزب الشيوعي السوفيتي وسلطة الدولة الاشتراكية بالخط الماركسي اللينيني بشأن مسألة دكتاتورية الطبقة العاملة حيث كتب "ستالين" يقول .. إذا كانت اللينينية هي نظرية وتاكتيك الثورة العمالية . وإذا كان مضمون الثورة العمالية الأساسي هو دكتاتورية

الطبقة العاملة فإن من الواضح أن الرئيسي في اللينينية هو مسألة دكتاتورية العمال . هو تركيز هذه المسألة وتبريرها نظريا وتجسيدها ..

ولكن للأسف فإن دكتاتورية الطبقة العاملة قد تحولت إلى دكتاتورية الحزب الشيوعي بفضل "ستالين" وسلطاته الحزبية والدولوية وبفضل فتوى خصيمه "تروتسكي" الذي قال بضرورة نقل دكتاتورية الطبقة العاملة من حيازة سوفيتيات (مجالس) العمال والفلاحين إلى حيازة الحزب الشيوعي السوفيتي ..

يقول الدكتور "طالب غريبة" .. أن مسألة دكتاتورية الطبقة العاملة كانت أول وأهم المسائل التي طالها معول النفي ولفظها الواقع وتجاوزها التطور ولهذا تخلت جميع الأحزاب الشيوعية عنها ..

وفي تقديري أن التخلي عن مسألة دكتاتورية الطبقة العاملة لم تحدث إلا في ظل الردة التي حاقت ببعض الأحزاب الشيوعية والاشتراكية والعمالية بعد اغتيال الاشتراكية في الإتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ .. وإن كان يقال أن "تولياتي" زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي قد لمح إلى رفضه لمسألة دكتاتورية الطبقة العاملة .. أما "جرامشي" المنظر والمناضل الشيوعي الإيطالي فقد دعا إلى المجتمع المدني في ظل الاشتراكية من خلال المجالس المحلية والبلدية الديمقراطية التي تباشر السلطة بواسطة دكتاتوزية الطبقة العاملة ..

أما قادة بعض الأحزاب الشيوعية والاشتراكية والعمالية التي تبرأت من دكتاتورية العمال فإنها قد تبرأت أيضا من الاشتراكية باعتبارها حلم الطبقة العاملة وجمهور الكادحين عموما ... مع علمهم أن هذه الدكتاتورية العمالية بشوائبها وسلبياتها فقد حققت المعجزات في عهد "ستالين" فهي التي هزمت الجيش الأبيض القيصري والطابور الخامس للعملاء والخونة والمخابرات الأجنبية الذي دبر محاولة اغتيال "لينين" برصاصة مسمومة . وهزمت جيوش التدخل من " برصاصة مسمومة . وهزمت جيوش التدخل من إنجلترا وفرنسا والدول الرأسمالية الأوربية..

وهي أي دكتاتورية العمال التي شيدت صرح الاشتراكية اقتصاديا وصناعيا واجتماعيا بالعلاج المجاني والتعليم المجاني والأجور المرتفعة وساعات العمل المحددة وبمعاشات المرض والعجز والشيخوخة السخية .. وهي التي هزمت الجيش الهتلري في الحرب العالمية الثانية وصنعت

القنابل الذرية والهيدروجينية وحققت صناعة الفضاء وسفن الفضاء ودعمت الثورة الصينية وثورات فيتنام ودول التحرر الوطني وقدمت لها المساعدات العسكرية والاقتصادية والصناعية وفتحت مؤسساتها التعليمية والعلمية للشعوب الفقيرة وأبناء الشعوب الفقيرة وجعلت من روسيا المتخلفة قطبا دوليا في مواجهة رأس المال والاستعمار وإن دكتاتورية العمال هذه كانت مقبولة من الشعب السوفيتي الذي قاتل الألمان برجاه ونساءه من بيت لبيت في المدن السوفيتية حتى تم النصر

فكيف يكفر بعض الشيوعيين والاشتراكيين والعماليين بهذه الدكتاتورية العمالية في الوقت الذي يشهد فيه الشعب المصري والشعوب العربية وشعوب العالم دكتاتورية رأس المال والرأسمالية وفظائعها الدموية وحروب الإبادة التي مارستها في يوغسلافيا وفلسطين والعراق وأفغانستان .. تحت قيادة أمريكا دولة الاستعمار والفاشية والعولمة التي حولت بلادنا العربية إلى مستعمرات وشبه مستعمرات محكومة بدول دكتاتورية شمولية مستبدة ..

إن الكفر الصارخ بدكتاتورية الطبقة العاملة من قبل بعض السادة المثقفين الاشتراكيين لا يعني إلا أنهم يتمظهرون بمظهر اليسار والاشتراكية حتى لا تهتز مكانتهم لدى جماهير اليسار والاشتراكية .. ومع هذا فإن تصرفاتهم المضادة للعمال الذين يرون في الاشتراكية حلم حياتهم تدل على نقل حيازة ولائهم لسلطة رأس المال عموما حتى تترسخ مصالحهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لدى سلطة رأس المال التي لديها وحدها مفاتيح الحياة السياسية حيث البرلمان ومقاعده وشاشات التليفزيون التي تجعل من الخشبة عجبة والصحافة وطبولها وزمورها ..

كل هذه الإغراءات المبهرة وما صاحبها من انفتاح للثروة والسلطة دفعت الكثير من المثقفين اليساريين والاشتراكيين (دون العمال طبعا) إلى الهرولة للرقص للقرد في دولته ولتسقط الاشتراكية كحلم وعلم وليذهب العمال والفلاحين وكل الكادحين والفقراء إلى الجحيم ..

ألا فكل شيء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

اغتيال دولة الاشتراكية العظمى

إذا تأملنا بعمق في وقائع التاريخ البشري ذات الأهمية الكبرى فلم ولن نجد إلا حالات محدودة ونادرة حدث خلالها اغتيال دولة قوية وشامخة ممتنع عليها السقوط بانقلاب عسكري أو بثورة شعبية أو حتى باغتيال رئيس هذه الدولة .. فالجمهورية الرومانية القديمة لم تسقط باغتيال قنصلها الأول "يوليوس قيصر" ولهذا فحالات اغتيال دولة كبرى لم تحدث في حدود علمي إلا في ثلاث دول هي :

الدولة الأولى : دولة الخلفاء الراشدين بالمدينة المنورة في صدر الإسلام . إن هذه الدولة القوية والرشيدة المحكومة بالقرآن والسنة المحمدية قد تعرضت للاغتيال ثلاث مرات بعد عقد ونصف تقريبا من نشوئها .. فالاغتيال الذي يستهدف قتل الدولة ومحوها هو اغتيال بطيء الفاعلية والمفعول يحقق غايته القاتلة والانقلابية رويدا رويدا خلال سنوات وسنوات وذلك خلافا لسقوط الدولة بانقلاب تآمري أو بثورة شعبية يقضيان عليها فورا ..

فدولة الخلفاء الراشدين تعرضت للاغتيال مرات ثلاث . حيث اغتيلت باغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي لم يستخلفه الإمام علي بن أبي طالب بل استخلفه الصحابي عثمان بن عفان . ثم اغتيلت باغتيال الإمام علي بن أبي طالب ثم اغتيلت للمرة الثالثة بواسطة قبيلة بني أمية التي وظفت سلاح العصبية الجاهلية وسلاح الانفتاح الدنيوي للصحابة والتابعين وصفوة العرب وأعيان القبائل . وسلاح الفتن والحروب مما أدى إلى الإطاحة بدولة الخلفاء الراشدين بفضل هذه الاغتيالات خلال سنوات وسنوات وتحولت دولة الخلفاء الراشدين إلى دولة بني أمية وملكها العضوض ..

الدولة الثانية : دولة عبد الناصر والاشتراكية الناصرية في مصر الحديثة التي تعرضت لهذا الاغتيال بواسطة البكباشي أنور السادات نائب رئيس جمهورية مصر العربية وعضو أمانة الحزب الاشتراكي الحاكم في الفترة الناصرية . إن هذا البكباشي قد ورث حكم مصر ودولة الاشتراكية الناصرية صدفة فور وفاة البكباشي الرئيس جمال عبد الناصر وذلك بحكم قانون وراثة العسكر للعسكر هذا القانون المغولي والمملوكي الذي يقضي بان تقوم السلطة كل السلطة على أكتاف حملة السلاح الذين يحتكرون

العمل السياسي ولا سياسة لسواهم . ومن ضمن ما ورثه البكباشي أنور السادات دكتاتورية الاشتراكية الناصرية . دكتاتورية الحاكم الفرد جمال عبد الناصر وحزبه الواحد والشمولي .. الاتحاد الاشتراكي .. وكان من أهم مقررات هذه التركة السلطوية الوحدانية السياسية والسلطوية المطلقة التي ورثها الرئيس المقتول أنور السادات ..

وفور أن تسلم الرئيس المقتول أنور السادات هذه التركة السلطوية بادر باغتيال دولة الاشتراكية الناصرية بالخلاص من رموزها وبواسطة الانفتاح الاقتصادي أمام رأس المال العربي والأجنبي ورأس المال الإسلامي والانفتاح السياسي على أمريكا والجماعات الإسلامية ودولة إسرائيل الصهيونية وتخسير القطاع العام . كل هذه الأمور المتناقضة وغير السوية فعلها الرئيس المقتول للتعجيل باغتيال دولة الاشتراكية الناصرية والوطنية خوفا من النشاط اليساري للشيوعيين والناصريين الذين قادوا الانتفاضة الشعبية ضده في يومي ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧ ..

والجدير بالذكر أن الرئيس المقتول لم يبادر باغتيال دولة الاشتراكية الناصرية التي كان واحدا من رموزها السلطويين عبثا أو اغتباطا أو حقدا على زميله عبد الناصر واشتراكيته الناصرية .. بل كان يعرف قصده وواعيا بأهمية ذلك الاغتيال الذي لن يعيد مصر إلى حكم راس المال المتوحش فقط بل سوف يقدم للسيد الأمريكي القابع في البيت الأبيض بواشنطن خدمة لا يحلم بها تتمثل في تجربة ناجحة في اغتيال دولة الاشتراكية الناصرية والوطنية باعتبارها خير بروفة لاغتيال دولة اشتراكية معادية لأمريكا ورأس المال هي دولة الاتحاد السوفيتي التي يجب اغتيالها بنفس الطريقة وفعلا فقد حدث هذا الاغتيال على يد الخائن "جورباتشوف" سكرتير الحزب الشيوعي السوفيتي ورئيس دولة الاتحاد السوفيتي الاشتراكية معا..

هكذا كانت بداية اغتيال دولة الاشتراكية الناصرية والوطنية . بواسطة الرئيس المقتول أنور السادات الذي حاول تفعيل هذا الاغتيال باغتيال الوطنية المصرية في حربها المجيدة حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ حيث يتردد أن هذه الحرب كانت حرب تحريك وليست حرب تحرير على حد تعبير المرحوم "يوسف إدريس" .. ويتردد أن السادات أفشى أسرار هذه الحرب التحريرية المجيدة لصديقه الصهيوني "كيسنجر" وزير خارجية أمريكا وأنه

قدم تنازلات كثيرة لأمريكا وإسرائيل في هذه الحرب مما أدى إلى وأد طموحات العسكرية المصرية العظيمة بشأن تحرير الأرض المصرية والعربية .. ولقد مشى الرئيس المقتول كل هذه الخطوات للخلف دون الأمام بهدف التعجيل باغتيال دولة الاشتراكية الناصرية خدمة لأمريكا وإسرائيل . ولكن رصاصة من رصاصات كثيرة أصابته في مقتله فمات منكبا على وجهه على مرأى ومسمع من العالم وقد كافأته أمريكا وإسرائيل بمشي الرئيس الأمريكي والرئيس الإسرائيلي في جنازته التي نبذها الناس كل الناس في مصر المحروسة ..

وتقديرا للرئيس المقتول أنور السادات وتقديرا لأمريكا وإسرائيل قام خليفته جنرال الطيران حسني مبارك بإتمام اغتيال دولة الاشتراكية الناصرية رويدا رويدا وفقا للمنهج الساداتي .. حيث صدرت ونفذت قوانين الخصخصة وبيع القطاع العام وطرد الفلاحين من الأراضي الزراعية وظهرت طبقة رأس المال الفاسدة والمتوحشة والحاكمة وتأسست البورصات وأصبح السوق الرأسمالي سيدا يسود الشعب المصري وشاع الفساد والنهب والاستبداد وباتت مصر المحروسة دولة رأسمالية وشبه مستعمرة أمريكية ..

وبهذا فقد تم اغتيال دولة الاشتراكية الناصرية والوطنية وما بها من تنمية مستقلة وبعض مظاهر العدل الاجتماعي على يد جنرال الطيران الرئيس حسني مبارك الذي استكمل مشوار الرئيس المقتول أنور السادات في شأن هذا الاغتيال وقدم بروفة ثانية وناجحة في اغتيال دولة الاشتراكية الناصرية التي تلقفها سادتنا الأمريكيين وباشروا تنفيذها في إنهاء اغتيال دولة الاتحاد السوفيتي دولة الاشتراكية العظمى على يد الرئيس "يلتسين" عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وعضو الطابور الخامس في الحزب الشيوعي والدولة السوفيتية لرأس المال وأمريكا والصهيونية ..

ولقد لوحظ أن الدول التي تباشر العدل الاجتماعي حتى ولو في أقل أشكاله تتعرض للاغتيال من الخصوم الطبقيين في الداخل والخارج الذين يمارسون استعباد الإنسان وتسخيره واستغلاله .. هؤلاء الخصوم خصوم الداخل بالذات الذين يرتدون عباءة دولة العدل الاجتماعي حتى يحققوا أهدافهم ..

الدولة الثالثة : دولة الاشتراكية العظمى - دولة الاتحاد السوفيتي .. إن هذه الدولة الاشتراكية ظلت سبعون عاما بمثابة كعبة للعمال والفلاحين والكادحين وكل معذبي الأرض الذين يبلغ عددهم أكثر من تسعين في المائة من البشر .. وبجانب هؤلاء الأحباء للاشتراكية والعدل الاجتماعي فقد كان لها خصوم ألداء في الخارج وفي الداخل .. خصوم الخارج يتمثلون في أمريكا والصهيونية ورأس المال ومنظماته وحكوماته أما خصوم الداخل فقد ثبت أنهم كانوا من الشخصيات اليهودية الصهيونية وأصحاب الأطماع والتطلعات الرأسمالية .. وهؤلاء الخصوم الطبقيين كان الكثير منهم يشغلون مناصب حزبية ومناصب سلطوية مثل "بيريا" وزير الداخلية في عهد "ستالين" ومثل "خورشوف" سكرتير الحزب الشيوعي ورئيس الدولة السابق .. و"جورباتشوف" آخر سكرتير وآخر رئيس للدولة السوفيتية .. و"يلتسين" المسئول السياسي لمدينة موسكو وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ..

لقد قيل أن المخابرات السوفيتية قد كشفت مسئولا كبيرا في الحزب والدولة يتجسس لصالح أمريكا فلما سئل عن دوره التجسسي فأفاد بأن المخابرات الأمريكية كلفته بترشيح أسوأ العناصر لشغل أهم مناصب الحزب والدولة .. حتى يتم تخريب الحزب الشيوعي والدولة الاشتراكية معا ..

إن هؤلاء الخصوم المتسترين بعضوية الحزب وسلطة الدولة قد بادروا مبكرا باغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية من خلال مواقع الضعف في الحزب والدولة التي تبدو في الأمور التالية ..

الأمر الأول : دكتاتورية (البروليتاريا) العمال .. إن هذه الدكتاتورية العمالية والطبقية قد فقدت جانبها الديمقراطي والعمالي فور نقلها من اختصاص سوفيتيات (مجالس) العمال والفلاحين لتصبح دكتاتورية الحزب الشيوعي السوفيتي ومن اختصاصه أي دكتاتورية القادة .. ثم تحولت دكتاتورية الحزب الشيوعي هذه لتصبح دكتاتورية شخصية لسكرتير الحزب الشيوعي ورئيس الدولة الاشتراكية السوفيتية مما مكن الخائن "جورباتشوف" من اغتيال الاشتراكية السوفيتية ..

الأمر الثاني : المركزية الديمقراطية .. التي تعني خضوع الأقلية للأغلبية والمستوى الأدنى للمستوى الأعلى في منظمات الحزب الشيوعي السوفيتي

هذه المركزية الديمقراطية قد تأثرت بإهدار مبدأ دكتاتورية الطبقة العاملة مما أدى إلى تغليب المركزية الحزبية على الديمقراطية الحزبية .. ومن ثم تحول الحزب الشيوعي كحزب جماهيري وشعبي إلى جيش عسكري يخضع فيه الأدنى للأعلى في صفوفه بدون ممارسة أي شكل من الديمقراطية الحزبية ..

الأمر الثالث : الوحدانية السياسية والسلطوية المطلقة .. قد باتت وظيفة مقدسة لسكرتير الحزب ورئيس الدولة مما مكن "جورباتشوف" . و"يلتسين" من إنهاء اغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية وحزبها الشيوعي الذي أسسه "لينين" في نهاية القرن التاسع عشر في مواجهة الحكومة القيصرية الروسية وجيشها وبوليسها اللعين وفي مواجهة رأس المال الدولي وحكوماته ..

الأمر الرابع : غياب التعددية الحزبية والنقابية والتعاونية .. إن الوحدانية السياسية والسلطوية منعت منعا باتا تعدد الأحزاب الاشتراكية وتعدد النقابات العمالية . وتعدد الجمعيات التعاونية ولهذا فقد تم القضاء على الأحزاب والمنظمات الاشتراكية بعد ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ . وتحولت النقابات العمالية إلى نقابات سلطوية وشمولية تشرف عليها المخابرات السوفيتية .. وحتى الاتحاد العالمي للنقابات العمالية الذي كان سكرتيره العام النقابي "إبراهيم زكريا" عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوداني كان خاضعا لإشراف المخابرات السوفيتية أيضا .. ومن ثم فقد تم انعدام تبادل السلطة في الحزب والدولة وفي النقابات العمالية وفي التعاونيات الفلاحية والإنتاجية .. مع العلم أن تبادل السلطة بين الأحزاب الرأسمالية في أمريكا والدول الرأسمالية في أوربا وغيرها كان وما زال يمثل حصانة قوية لرأس المال وحكوماته ضد أي تغييرات طبقية يحققها الصراع الطبقي بإضراباته ومظاهراته وثوراته العمالية والفلاحية ..

الأمر الخامس : مصادرة الصراع الطبقي وتأميمه .. هذا الصراع الذي كان كفيلا بتطوير الاشتراكية السوفيتية وحمايتها من الاغتيال الذي كان ينفذه الطابور الخامس في الحزب والدولة والمجتمع الاشتراكي رويدا رويدا وذلك بنشاطه التخريبي والتآمري لصالح أمريكا والصهيونية ورأس المال العالمي دون أن يواجه بالصراع الطبقي ..

الأمر السادس : تهميش الطبقة العاملة السوفيتية في الحزب والدولة .. إن انتزاع دكتاتورية العمال من أيدي أصحابها العمال ثم تغليب المركزية على الديمقراطية في الحزب .. ثم مصادرة الصراع الطبقي . كل هذه التجاوزات أدت إلى تهميش الطبقة العاملة في حزبها الشيوعي وفي دولتها الاشتراكية العمالية . بينما تعاظم شأن الرفاق الخونة الذين كان أغلبهم من المثقفين في نفس الحزب ونفس الدولة مما جعلهم قادرين على اغتيال أول دولة اشتراكية عظمى في التاريخ..

كل هذه الأمور السلبية مكنت الطابور الخامس في الحزب والدولة من اغتيال الاشتراكية السوفيتية ودولتها القطبية والعظمى ..

وأول من بادر ببدء اغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية هو "خروشوف" رئيس هذه الدولة وسكرتير الحزب الشيوعي السوفيتي الذي بدا عهده بتخريب العلاقة الأخوية والمصيرية مع دولة الصين الشعبية بسحب الخبراء والعلماء والفنيين السوفييت من الصين مع العلم أن "ستالين" الرئيس السابق لدولة الاشتراكية السوفيتية لم يهدر هذه العلاقة الأخوية مع الثورة الصينية في كل مراحلها وقدم لها الدعم المناسب رغم نشوب خلافات بينه وبين زعيم الثورة الصينية "ماوتسي تونج"..

ولقد اصبح "خروشوف" سكرتيرا للحزب ورئيسا لدولة الاشتراكية السوفيتية في سنة ١٩٥٣ أي نفس السنة الذي توفي فيها "ستالين" وكان أول ممارساته الحزبية والسلطوية فضح فظائع سلفه "ستالين" اتهامه بابتداع ظاهرة عبادة الفرد وذلك دون الاعتراف بإنجازاته وانتصاراته الرائعة في المجالات الداخلية والخارجية علما بأنه كان من اتباعه ولم يجرؤ على انتقاده حتى بالهمس ..

وكان الهجوم على "ستالين" باعتباره خليفة "لينين" ومؤسس الدولة الاشتراكية السوفيتية وبطل الحرب العالمية الثانية وانتصاراتها أول عمل مباشر في اغتيال دولة الاشتراكية الأولى بتراجع هيبتها لدى شعوب العالم وكذلك بتشجيع أمريكا ورأس المال في المضي بالتآمر ضد دولة الاشتراكية العظمى ..

وبنشوب الصراع المذهبي ما بين الحزب الشيوعي الصيني والحزب الشيوعي السوفيتي هذا الصراع المذهبي الذي كشف ممارسات "خروشوف" المؤدية إلى اغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية حيث اتهمه

الرفاق الصينيين بأنه يحاول القضاء على مهمة مناهضة الإمبريالية والحكم الاستعماري بمقولته التي تقول .. بأن حركة التحرر القومي التي دخلت مرحلة جديدة محورها المهمات الاقتصادية . وحجته هي أنه بينما كان النضال في السابق أساسا في المجال السياسي . أصبحت القضية الاقتصادية اليوم المهمة المركزية . والحلقة الأساسية في دفع تطور الثورة ..

ويرد عليه الرفاق الصينيين .. بأن النضال السياسي والاقتصادي ما زال جاريا بعنف وأنه يتطور لا محالة إلى نضال مسلح في مواجهة المستعمرين ..

وأن نظرية "خروشوف" ورفاقه يقصد منه تبييض النهب والعدوان اللذين يباشرهما الحكم الاستعماري الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية وفي آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ..

ولذلك فقد قدم "خروشوف" ورفاقه عدد من الوصفات الضالة لعلاج هموم الأمم المضطهدة هي على حد قول الرفاق الصينيين ..

الوصفة الأولى .. تسمى بالتعايش السلمي والمباراة السلمية .. بمعنى أن ثورات التحرر الوطني لا تنتصر بالنضالات الجماهيرية .. وأن الشعوب غير قادرة على تحرير نفسها .. وأنه يجب عليها الانتظار حتى يجيء الانهيار الطبيعي للاستعمار عبر التعايش السلمي ..

الوصفة الثانية .. تسمى بمساعدة الدول المتخلفة .. إن قادة الحزب الشيوعي السوفيتي يقترحون علينا التعاون مع الاستعمار الأمريكي في تقديم المساعدات للبلدان المتخلفة فقد قال "خروشوف" في خطاب ألقاه في الولايات المتحدة في سبتمبر ١٩٥٩ .. إن نجاحاتكم (يقصد الأمريكان) ونجاحاتنا الاقتصادية سيثني عليها كل العالم الذي يتوقع من دولتينا العظميتين مساعدة الشعوب المتخلفة قرونا في تطورها الاقتصادي ..

إن كلام "خروشوف" هذا بشأن مساعدة أمريكا للدول المتخلفة لا يعني إلا تقديم الاستعمار بوجه غير قبيح للأمم المضطهدة الذي سوف يقدم لها المعونات الاقتصادية بالمشاركة مع دولة الاشتراكية السوفيتية ..

الوصفة الثالثة .. وتسمى بنزع السلاح .. لقد قال "خروشوف" إن نزع السلاح سيخلق ظروفا هائلة لزيادة المساعدة للدول القومية الفتية حتى تقضي على الجوع والمرض والأمية .. وبهذا يدعو "خروشوف" الشعوب

المضطهدة إلى السكوت حتى يتفضل الاستعماريون بنزع سلاحهم وبالتالي سوف يأتيهم الخبز والحرية ..

وأخطر من هذا فإن قادة الحزب الشيوعي السوفيتي يدعون ويحاولون وقف حروب التحرر الوطني ولهذا يصرخ "خروشوف" قائلا .. إن الحروب المحلية في وقتنا الحاضر خطيرة جدا . وإن علينا أن نعمل جاهدين لنطفئ الشرارات التي يحتمل أن تشعل لهيب الحرب .. ومن هذا المنطلق المتخاذل قرر "خروشوف" سحب الصواريخ السوفيتية من كوبا رغم معارضة قادتها وكان ذلك ترضية للرئيس الأمريكي "كنيدي" والبيت الأبيض ..

وعلى هذا الدرب المتخاذل لم يعترف الحزب الشيوعي السوفيتي بالجمهورية الجزائرية المؤقتة إلا بعد فترة زمنية طويلة ترضية أيضا للاستعمار الفرنسي .. كل هذه الملاحظات والاتهامات الموجهة إلى "خروشوف" وقادة الحزب الشيوعي السوفيتي خلال حرب المفاهيم الحادة بين الرفاق الصينيين والسوفييت قد انتهت باتهام شيوعية "خروشوف" بأنها مزيفة أي أنه يدعم نوعا جديدا من الرأسمالية في المجتمع السوفيتي الاشتراكي وذلك بإعادة نظام الاستغلال وتوسيعه وتعجيل الاستقطاب الطبقي .. وأصبحت توجد الآن شريحة رأسمالية ومنعمة بالامتيازات في وضع معارض للشعب السوفيتي حيث تحتل مراكز السيطرة في الحزب والحكومة وفي الدوائر الاقتصادية والثقافية وغيرها ..

إن السير قدما نحو الشيوعية يعني العمل على رفع الوعي السياسي الشيوعي لدى الجماهير الشعبية بصورة دائمة .. ولا يتصور مجتمع شيوعي تطغى فيه الأفكار الرأسمالية . والمال .. إن "خروشوف" يعمل بحمية لإنعاش الأفكار الرأسمالية في الاتحاد السوفيتي ويتصرف كمبشر للثقافة الأمريكية ..

إن شيوعية "خروشوف" هي في جوهرها لون من ألوان الاشتراكية الرأسمالية وهو لا يعترف بأن الشيوعية هي إزالة الطبقات والفوارق الطبيعية تماما . بل هو يصف الشيوعية بأنها صحن مليء بمنتجات العمل الجسماني والروحي . وبالتالي فلم يكن نضال الطبقة العاملة من أجل الشيوعية ومن أجل التحرر من الاستغلال لكل البشر بل هو نضال من أجل صحن جيد من الجلاش .. ولهذا فقد علق وزير الخارجية الأمريكية "دين

راسك" على مقولات وممارسات "خروشوف" بقولـــه .. بقــدر مــا يحتــل الجلاش والبنطلون الثاني وما شابه ذلك من مسائل في الاتحاد الســـوفيتي بقدر ما تظهر على ما اعتقد من تأثيرات معتدلة ..

ذلك هو "خروشوف" سكرتير الحزب الشيوعي السوفيتي ورئيس دولـــة الاشتراكية السوفيتية الاشتراكية الأولى الذي خطط ونفذ بداية اغتيال دولـة الاشتراكية العظمى بمقولاته وممارساته الحزبية والسلطوية التي ربما كان يراد بها تحقيق شيوعية وسطية أو اشتراكية مخففة . ومع هذا وذاك فـإن مجمل ممارسات "خروشوف" كانت بداية اغتيال دولة الاشتراكية العظمـــى .. هذا الاغتيال وخطواته الذي استمر منذ عام ١٩٥٣ أي منـــذ وصـول "خروشوف" إلى السلطة في الحزب والدولة وحتى استبعاده وإحالتـــه إلـــى التقاعد الحزبي والسياسي غصبا عنه ..

ورغم هذا التقاعد للرئيس "خروشوف" لـــم يتوقـف اغتيـــال الدولـــة الاشتراكية بواسطة رفاق "خروشوف" الذين ظلوا معششين فـــي الحـــزب الشيوعي الســـوفيتي ومنظماتـــه وفـــي الدولـــة الاشـــتراكية الســـوفيتية ومؤسساتها يعملون جاهدين للتشنيع على "ستالين" رغم إنجازاته الخرافيـــة وإحياء فكر "خروشوف" السلمي مع أمريكا ودول رأس المال والاســـتعمار .. واختزال الشيوعية والاشتراكية في صحن صغير مملوء بجلاش البطاطا وبنطلون ثاني للمواطن السوفيتي على حد تعبـــير "ديـــن راســـك" وزيـــر خارجية أمريكا الأسبق ..

إن هؤلاء الرفاق من حملة فكر الرئيس "خروشوف" ظلـــوا يتوالـــدون ويتكاثرون في الحزب والسلطة ينقلون ولائهم إلى كل سكرتير جديد للحزب الشيوعي الذي هو أيضا رئيس الدولة الاشتراكية مســـتغلين الدكتاتوريـــة الشخصية لسكرتير الحزب التي كانت في يوم من الأيام دكتاتورية الطبقـــة العاملة السوفيتية .. هذه الدكتاتورية الشخصية التي انبثقت منها الوحدانية السياسية والسلطوية المطلقة المسئولة عن تفريخ ظاهرة "جورباتشـــوف" وظاهرة "يلتسين" .. هاتين الظاهرتين المباركتين من أمريكا والصهيونيـــة وحكومات رأس المال قد حققتا بالتوالي إنهاء اغتيـــال دولـــة الاشـــتراكية العظمى في الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٩١ مما يعني أن هذا الاغتيال الـــذي تعرضت له الدولة الاشتراكية العظمى قد بدأ تنفيذه ســـنة ١٩٥٣ وتحقـــق الاغتيال تماما سنة ١٩٩١ بواسطة ثلاث رؤساء لهذه الدولة الاشـــتراكية

التي كانت تجسيدا للحلم والعلم الاشتراكي والرؤساء هم "خروشوف" و"جورباتشوف" و"يلتسين" وأزلامهم الذين أعادوا الرأسمالية إلى روسيا التي باتت مكتظة بأصحاب الملايين والمليارات من اليهود الصهاينة وغيرهم الذين كانوا جمعا أعضاء في الحزب الشيوعي السوفيتي ومسئولين في مؤسسات الدولة الاشتراكية السوفيتية .. وكانوا يشكلون طبقة رأسمالية ذات أعراف وقيم وأخلاق رأسمالية منحطة في قلب الحزب الشيوعي والمجتمع السوفيتي الاشتراكي حيث لمح البعض مظاهر هذه الطبقة المستترة بعضوية الحزب الشيوعي السوفيتي طوال عشرات السنين ..

اغتيال دولة الاشتراكية العظمى
خراب ومصيبة للبشرية الكادحة

بدأت المرحلة الأخيرة في اغتيال دولة الاشتراكية العظمى في الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٨٥ فور تولي "جورباتشوف" منصب الأمين العام للحزب الشيوعي السوفيتي ورئيس دولة الاتحاد السوفيتي الاشتراكية .. حيث استهل حكمه بترديد مقولة (البروسترويكا) المصارحة التي تضمنت التعددية السياسية وحقوق الإنسان وفصل الحزب الشيوعي عن الدولة الاشتراكية السوفيتية للقضاء على البيروقراطية في الحزب والدولة .. مؤكدا على تمسكه بالاشتراكية بقوله .. فنحن على ثقة بأن الاشتراكية أكثر فعالية من الرأسمالية . وسوف نواصل السير في الطريق الذي بدأناه عام ١٩١٧ .. أي بثورة أكتوبر الاشتراكية ..

وكانت مصارحة "جورباتشوف" مثيرة للجدل والشك مما جعل بعض المخلصين في الحزب والدولة يرون أنه بصدد تفكيك دولة الاتحاد السوفيتي الاشتراكية وفقا لمصارحته بالتعددية التي لم يحدد لها ضفاف . ومن ثم بادر بعض الحزبيين بالتأفف من مصارحته الفجة والفوضوية والمدمرة مما جعله يهرول بالدعوة إلى استفتاء شعبي عام بشأن مصير الاتحاد السوفيتي الاشتراكي ووجوده .. هل يبقى . أو لا يبقى .. هكذا أسفر "جورباتشوف" عن وجهه القبيح وخيانته العظمى للشعوب السوفيتية

وللبشرية الكادحة على وجه الأرض . وتم الاستفتاء تحت إشراف سلطة "جورباتشوف" وأزلامه من الخونة الذين كانوا يشغلون مناصب قيادية في الحزب والدولة الاشتراكية وذلك في مارس ١٩٩١ . ومع هذا فقد وافقت أغلبية الشعوب السوفيتية على بقاء الاتحاد السوفيتي الاشتراكي بنسبة ٧٦,٧ في المائة ..

ورغم هذه الصفعة الشعبية للرئيس الخائن "جورباتشوف" فقد واصل اغتيال دولة الاشتراكية العظمى في الاتحاد السوفيتي حيث أسرع في تنفيذ التعددية السياسية عديمة الضفاف بدليل أن وزارة العدل الروسية سجلت خلال أيام معدودات مائة ألف منظمة منها خمسة آلاف حزب وعشرات الألوف من المنظمات العبثية والمشبوهة . وذلك بقصد إشاعة الفوضى والاضطراب والشوشرة في صفوف الرأي العام السوفيتي الذي فقد القدرة على التمييز بين الضار والنافع والصالح والطالح ..

إن هذه الوضعية السياسية المضطربة كانت مقصودة للإسراع في اغتيال الاشتراكية السوفيتية بتفكيك دولة الاتحاد السوفيتي حيث اتفق "جورباتشوف" مع عدد من رؤساء الجمهوريات السوفيتية على البدء بتنفيذ هذا التفكيك المدمر كمقدمة لاغتيال الاشتراكية السوفيتية اغتيالا نهائيا ..

وخدمة لهذا الاتجاه الخائن والتآمري فإن التعددية التي دبرها ونفذها الرئيس "جورباتشوف" لم تشمل التعددية النقابية العمالية والتعددية التعاونية للفلاحين . لما في هذه التعددية الطبقية من خطر على تنفيذ اغتيال الاشتراكية السوفيتية نظرا لاشتعال الصراع الطبقي ضد الرئيس الخائن "جورباتشوف" وأزلامه ..

وخلال هذا الاضطراب وما اكتنفه من ظلام وضباب كثيف بدأ تنفيذ تفكيك دول الاتحاد السوفيتي الاشتراكية وتفكيك دول المعسكر الاشتراكي في أوربا الشرقية وسط تهليل طبول رأس المال وزموره في أمريكا والدول الأوربية الرأسمالية . وخلال هذا التفكيك التآمري بادر الرئيس "جورباتشوف" وأزلامه بتنفيذ بروفة الرئيس المقتول "أنور السادات" بشأن اغتياله للاشتراكية الناصرية . هذه البروفة وتجربتها التي قدمتها أمريكا لعميلها الشيوعي الخائن "جورباتشوف" مما جعله يتمم اغتيال دولة الاشتراكية بضربة سلطوية واستعمارية قاضية تمثلت في ظهور رأسمالية

روسية متوحشة لديها الملايين والمليارات من الدولارات الأمريكية وقد تمثلت شخصياتها في كثير من ضباط الجيش والشرطة وأولادهم وكبار المسئولين والموظفين في الحزب الشيوعي السوفيتي ومؤسسات دولة الاشتراكية السوفيتية وأولادهم ويتقدم هؤلاء وهؤلاء الآلاف من اليهود الصهاينة عبدة رأس المال وأعداء الاشتراكية والعدل الاجتماعي الذين كانوا يشغلون مواقع في الحزب والدولة..

تلك هي الرأسمالية الروسية الجديدة والمتوحشة الحاكمة والمالكة التي قد طفحت بأمراضها من فقر وبطالة وجريمة مروعة اتخذت مسوحها في مداخل العمارات وغيرها مما دفع المواطنون إلى حماية أنفسهم بوضع شبكات حديدية على منافذ بيوتهم وذلك بالإضافة إلى انتشار تجارة المخدرات والبدء في خصخصة القطاع العام الاشتراكي ..

هكذا قد تم اغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية العظمى الأمر الذي استفز بعض فصائل القوات المسلحة السوفيتية فقامت بانقلاب ضد حكم الخائن "جورباتشوف" .. ولكن هذا الانقلاب لم يكن موفقا ..

وعندئذ تدخل السيد الأمريكي بواسطة عملائه بالإسراع في إزاحة الخائن "جورباتشوف" من الحكم والسلطة بعد انتهاء مهمته باغتيال الاشتراكية السوفيتية وجمهورياتها وعودة روسيا إلى أحضان رأس المال والرأسمالية حيث تم استبدال العميل الخائن "جورباتشوف" بالعميل الخائن "يلتسين" الذي يحظى ببعض الشعبية حيث سلمته بروفة وتجربة اغتيال الاشتراكية الناصرية في مصر الذي قادها ونفذها جنرال الطيران الرئيس "حسني مبارك" في العقدين الأخيرين من الألفية الميلادية الثانية ..

ووفقا للبروفة المصرية بادر القيصر الروسي الأمريكي الجديد "يلتسين" في تحويل روسيا التي كانت كعبة للاشتراكية والعدل الاجتماعي . والتي كانت إمبراطورية في عصر القياصرة الروس . إلى شبه مستعمرة أمريكية وصهيونية حيث اختار أغلب حكامه من أصحاب المليارات اليهود الصهاينة الموالين لأمريكا وإسرائيل .. وبواسطة هؤلاء الحكام اليهود فقد تم تفكيك القطاع العام الاشتراكي الصناعي والزراعي والتجاري وخصخصته وبيعه للرأسمالية الروسية والأمريكية بالإضافة إلى وقف نشاط مراكز البحوث العلمية ولهذا فقد تشرد ملايين العمال والفلاحين والعلماء وتزايد الفقر وانتشرت البطالة وتفشت الجريمة وتعرض ملايين

العمال والفلاحين والجنود وحتى العلماء وأرباب المعاشات للجوع الكـــافر مما اضطر أبرز عالم فيزيائي نـــووي إلـــى الانتحـــار قـــائلا .. إن حيـــاة الرأسمالية هذه لا تطاق ومن الواجب أن نتركها .. وأكثر مـــن هـــذا فقـــد أصبحت روسيا القيصرية الرأسمالية وطن الانتحار الأول في العالم بســـبب غياب الخبز وما يسببه من جوع كافر .. هذا الخبز وغموسه الطيب الـــذي كان مشاعا في عهد الاشتراكية السوفيتية..

إذن فقد كان اغتيال الاشتراكية السوفيتية مهما قيل فيها مـــن أخطـــاء يمثل خرابا مبينا للشعوب السوفيتية في روسيا وغيرها من الجمـــهوريات السوفيتية الاشتراكية السابقة .. يؤكد ذلك مظاهر الخـــراب التـــي عمـــت روسيا الرأسمالية والقيصرية الحالية .. حيث تبدو مظاهر ذلك الخراب فـــي المؤشرات التي قدمها لنا الدكتور"نجم عبد المحسن" بدراسته القيمـــة فـــي مجلة "النهج" الاشتراكية وهذه بعض المؤشرات..

يقول الدكتور نجم عبد المحسن .. يعد الناتج المحلي الإجمالي لأي بلـــد أحد المؤشرات الاقتصادية التي تعكس حالة الاقتصاد الوطنـــي .. فنجـــاح الإصلاح الاقتصادي في الصين الشيوعية مثلا يمكن أن نرجعه إلى ارتبـــاط السياسة الإصلاحية بواقعها الاقتصادي والاجتماعي . وإلى عدم الســـماح للقوى الخارجية بالتدخل في شئونها الداخليـــة . وعـــدم الأخـــذ بنصـــائح الخبراء الأجانب والحفاظ على النظام الاقتصادي والسياسي .. وحتى الـــهند فقد حققت زيادة مستمرة في قيمة الناتج المحلي الإجمالي خـــلال الفـــترة الممتدة من عام ١٩٩٠-١٩٩٦ بفضل التنمية المستقلة .. ولـــهذا يمكـــن القول بأن روسيا الرأسمالية في عهد "يلتسين" الذي أخذ مطلقـــا بالبروفـــة المصرية في عملية الاغتيال النهائي للاشتراكية الناصرية .. بأن روســـيا هذه قد تخلفت كثيرا عن بعض البلدان الناميـــة مثـــل تـــايلاند والـــبرازيل والمكسيك والهند وذلك وفقا للمؤشرات الاقتصادية ..

إن الناتج المحلي في روسيا الرأسمالية قد هبط بنسبة ٦٥% من عـــام ١٩٩٢ حتى عام ٢٠٠١ ولهذا فقد تحولت روسيا إلـــى شـــبه مســـتعمرة غذائية وفقدت أمنها الغذائي . كما هو الحال في مصر تقريبـــا .. وخـــلال الفترة من ١٩٩٤-١٩٩٧ أنفقت على شراء السلع وخاصة الغذائية مبلغـــا يتراوح ما بين ٥٠-٧٠ مليار دولار بينما انخفض الناتج القومـــي خـــلال عامي ١٩٩١-١٩٩٦ بنسبة ٥٠% وهبط الإنتاج الحيوانـــي إلـــى نســـبة

٧٥% وفي نفس الفترة من ١٩٩٠-١٩٩٦ انخفضت الميزانية الحكومية بمقدار عشر مرات . وأصبحت إنتاجية العمل في روسيا اقل من نصف متوسط الإنتاجية العالمية . وتبعا لتقديرات المخابرات الأمريكية خسرت روسيا الرأسمالية نتيجة هبوط الإنتاج المادي ما مقداره ٨٨٥ مليون دولار من الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٩١-١٩٩٤ .. وقد لوحظ أيضا أن السلع الأجنبية اكتسحت السوق المحلية الروسية بينما اختفت السلع الوطنية . وخلال عام ١٩٩٤ استوردت روسيا الرأسمالية بضائع بقيمة ٢٦ مليار دولار من تركيا والإمارات العربية..

وبالتالي فقد انخفض الإنتاج الصناعي في روسيا في الفترة من ١٩٩٠-١٩٩٨ بنسبة ٥٠% والإنتاج الزراعي انخفض بنسبة ٨٧% . والميزانية الحكومية الروسية تعاني من العجز المالي حتى الآن حيث وصل هذا العجز المالي في سنة ١٩٩٣ إلى مبلغ ٢٢ ترليون روبيل وقفز إلى ٧٠ ترليون سنة ١٩٩٤ وإلى ٧٣ ترليون عام ١٩٩٥ وإلى ٨٠ ترليون عام ١٩٩٦ وإلى ٩٥ ترليون في عام ١٩٩٧ وإلى ١٢٢ ترليون روبيل في سنة ١٩٩٨ .. وتلك هي بعض ملامح الأحوال الاقتصادية السيئة في روسيا الرأسمالية التي تزعم بفجر ووقاحة أن اغتيال الاشتراكية السوفيتية العظمى يعني الإصلاح الاقتصادي ..

إن هذه الأحوال الاقتصادية كانت مصحوبة بحالات اختلاس غير محدودة مثل حالات الاختلاس في مصر المعاصرة فعلى سبيل المثال جرى اختلاس تسعة مليارات روبيل من الميزانية الحكومية لسنة ١٩٩٦ وتفاقم حجم الاختلاس ليصل إلى مائة مليون ترليون روبيل في سنة ١٩٩٧ .. ويشهد التصاعد المتزايد في ممارسة الاختلاس عدم وجود أي محاسبة لسراق المال العام في روسيا الرأسمالية . وظاهرة الاختلاس هذه ليست هي الخراب الوحيد التي تتعرض له الميزانية الحكومية في روسيا الرأسمالية بل تتعرض هذه الميزانية لخراب آخر يبدو في حالات السفه والبذخ للمسئولين الروس وتتمثل أيضا في المصاريف الانتخابية للرئيس "يلتسين" وأزلامه حيث انفق "يلتسين" وحده مبلغ ٥٠ ترليون روبيل في انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٦ وكتبت بعض الصحف الروسية بتاريخ ١٩٩٦/٩/٩ أن "يلتسين" أنفق في حملته الإنتخابية مبلغا يتجاوز ما أنفقته الحكومة الروسية على الاستثمارات المالية المخصصة لتطوير الإنتاج

المادي خلال السنوات السبع الماضية . والشيء الذي يدهشنا هو الحالة الاقتصادية المتدهورة في روسيا الرأسمالية التي كانت دولة قطبية عظمى في العهد الاشتراكي .. ففي مجال الديون الخارجية وتهريب الأموال للخارج باتت روسيا أول دولة كبرى مفلسة في التاريخ لعجزها عن دفع فوائد ديونها التي قد بلغت ١٧ مليار دولار عام ١٩٩٠ .. ويقدر البعض أن مبالغ الأموال المهربة للخارج تتراوح ما بين ٨٠-١٠٠ مليار دولار .. ويشير البروفيسير القانوني "تيليه" إلى أن اقتصاد الظل أصبح يهيمن على أكثر من ٥٠% من النشاط الاقتصادي الروسي وجرى تهريب مبلغ يقدر بترليون دولار أي ألف مليار دولار للخارج لهفت أمريكا منهم حصة الأسد ..

أليس ذلك هو الخراب بعينه الذي حل بالشعب السوفيتي بعد اغتيال اشتراكيته وعودة الرأسمالية المتوحشة إلى استعباده مثل ما حدث في مصر المعاصرة ..

ومن جراء تلك الوضعية السيئة تكونت في عام ١٩٩٣ تركيبة طبقية مشوهة على النحو التالي .. ٣% من الأغنياء ، ٧% من متوسطي الدخل ، ٥٠% من الفقراء ، ٤٠% معدمين ، أي أن ٩٠% في روسيا الرأسمالية يعانون البؤس والفقر والقهر والجوع ..

ففي سنة ١٩٩٧ نشرت إحدى الدوائر تقسيم الفئات الاجتماعية في روسيا الرأسمالية على أساس الدخل الشهري فظهر أن جمهور الفقراء يحصلون على دخل شهري قدره ٥٠ دولار وأصحاب الدخول المحدودة من ٥٠-١٠٠ دولار وهؤلاء يشكلون ٧٠% من السكان ، في حين تزيد دخول الأغنياء جدا أي أصحاب رؤوس الأموال الضخمة على ٣٠٠٠ دولار شهريا ويشكلون ٢% ، كما تؤكد بعض المصادر الأخرى أن هؤلاء الأغنياء يشكلون نسبة ثمانية في كل ألف من السكان وإن أكثر من ٦٠% من رأس المال في روسيا يملكه اليهود الصهاينة الذي كان أغلبهم أعضاء في الحزب الشيوعي السوفيتي والدولة الاشتراكية وظلوا قابعين في مناصبهم يتمسكنون حتى يتمكنون . وللأسف فقد تمكنوا .. كما قد تمكن غيرهم من ضباط الجيش والشرطة والمسئولين في الحزب والسلطة فأصبحوا رموز الرأسمالية الروسية المتوحشة ..

ولقد أشارت صحيفة الأخبار الاقتصادية (الروسية) في عددها رقم ١٨ في أكتوبر ١٩٩٢ .. إلى وجود ٧٢ من الأغنياء الروس الجدد في موسكو وحدها .. هؤلاء الذين مكنتهم عضوية الحزب الشيوعي ووظائفهم في الدولة الاشتراكية إلى الثروة كما هو الحال في مصر الحديثة والمعاصرة .. وجاء في مقدمة الروس الأغنياء الروسي الخائن "جورباتشوف" سكرتير الحزب الشيوعي ورئيس الدول الاشتراكية السوفيتية .. وفيكتور تشيرنوميردين و بيجور جابدار .. وأناتولي تشوبابيس .. وجافرل بوموف .. ويوري لوشكوف .. وأركاده فولسكي .. وفاليمير جيروفسكي ..

ونشرت الصحف الروسية الرسمية أسماء المسئولين السابقين والأغنياء الحاليين في روسيا ومقدار ثرواتهم وكلهم من اليهود الصهاينة تقريبا وهم .. فلاديمير غوسينسكي رئيس المؤتمر اليهودي الروسي وصاحب أكبر مؤسسة إعلامية ويملك ثلاثة مليارات دولار .. ويملك تشيرنوميردين ثروة تتراوح ما بين ثلاثة إلى خمسة مليارات دولار .. وبيرروفسكي يملك ثلاثة مليارات دولار .. وميكيل خدروفسكي اثنين مليار دولار .. وفلاديمير تيانين ١,٦ مليار دولار ..

ويقابل هذا الثراء الفاحش في روسيا الرأسمالية فقر مدقع للفلاحين والعمال والعلماء وأرباب المعاشات حيث عجزت الحكومة الروسية عن تسديد أجور هؤلاء والعاملين في المؤسسات الإنتاجية والخدمية من دفع أجورهم في مواعيدها المحددة .. كما انخفضت مستويات المعيشة لحوالي ثمانين في المائة من السكان بما يتراوح ما بين ١٦ إلى ١٧ مرة سنة ١٩٩٩ مقارنة بعامي ١٩٩٠-١٩٩١ .. بالإضافة إلى أن أكثر من ١٤٠ مليون روسي يعيشون تحت مستوى خط الفقر ..

ولذلك فقد انحطت وتراجعت الأجور فبلغ متوسط الأجر في أغسطس سنة ١٩٩٧ في قطاع التعليم ٤٢٧ ألف روبل وفي الثقافة ٢٨١ ألف روبل وفي الزراعة ٣٦٢ ألف روبل .. علما بأن الحد الأدنى للمعيشة يمثل ثلاثة أضعاف متوسط الأجر .. وتتكلف عملية جراحية في القلب اثني عشر مليون روبل في وطن كان يعالج شعبه والشعوب الفقيرة بالمجان بفضل الاشتراكية السوفيتية .. وخلال سنوات ١٩٩١-١٩٩٦ قد زادت

الأجور والمرتبات ٢٦٥٠ مرة في حين أن الأسعار زادت عشرة آلاف مرة..

ولقد أدى ذلك الخراب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في روسيا الرأسمالية إلى زيادة الوفيات وتناقص الولادات بشكل ملحوظ بينما كان المجتمع الاشتراكي السوفيتي يجاهد بحق وصدق من أجل زيادة الولادات ونقص الوفيات بما كان يقدمه من معيشة راضية ورعاية طبية سخية ومجانية للشيوخ المسنين والنساء الحوامل ولهذا كانت تزداد الولادات وتتناقص الوفيات في المجتمع الاشتراكي السوفيتي ..أما روسيا الرأسمالية فلم ولن تعطي أي اهتمام بزيادة المواليد ونقص الوفيات لعجزها وسياستها المنحازة لرأس المال والرأسماليين الأمر الذي سوف يؤدي إلى انقراض الشعب الروسي الذي سوف يتضاءل عدده إلى ٧٢ مليون نسمة في عام ٢٠١٨ وإلى ٥٠ مليون نسمة في عام ٢٠٤٠ حسب التقديرات المنشورة ..

يؤكد ذلك هبوط مستوى العمر في روسيا الرأسمالية إلى ٥٥ سنة بعد أن كان هذا المتوسط ٧٤,٢ سنة في دولة الاشتراكية السوفيتية .. ولهذا فقد دفع المجتمع الروسي الحالي ثمنا غاليا بسبب تحوله من الاشتراكية إلى الرأسمالية ويقدر هذا الثمن بوفاة ثمانية ملايين شخص . وفي تقدير آخر بوفاة عشرة ملايين شخص .. مما استفز الكاتب السوفيتي "الكسندر سولجينستين" المعادي للاشتراكية السوفيتية الذي قال .. هل كانت روسيا لتفقد ثمانية ملايين إنسان لو دخلت حرب أهلية ..

وفي هذا السياق التخريبي فقد تدهورت الرعاية الاجتماعية حيث انخفضت دور الحضانة بعد اغتيال الاشتراكية السوفيتية من ٣٥٣ ألف في سنة ١٩٨٨ إلى ٦٩ ألف في سنة ١٩٩٨ .. وانخفض عدد الأطفال المنتسبين إلى دور الحضانة من تسعة ملايين و٩٠٠٠ طفل عام ١٩٩٠ إلى أربعة ملايين وأربعين طفل فقط في عام ١٩٩٨ .. كما بات الطفل الروسي المدلل الذي كان يحظى بالتكريم في العهد السوفيتي الاشتراكي مجرد سلعة تباع وتشترى للتبني أو للعمل أو بغرض بيع بعض أعضاء جسده حيث تم بيع ٨٧٩٠ طفل خلال خمس سنوات من سنة ١٩٩٢- ١٩٩٦ باعتراف الحكومة الروسية .. وذلك بواسطة شركات معروفة .. وقد تحدثت الصحف الرسمية عن بيع ٣٥٠٠ طفل إلى الولايات المتحدة

الأمريكية .. وفي ضواحي العاصمة الثانية لروسيا الرأسمالية بيـــع ٦٨٦ طفل بسعر يتراوح ما بين ١٠-١٥ ألف دولار .. وفي سنة ١٩٩٥ تـــرك مليون ونصف طفل مدارسهم لأسباب اقتصادية واجتماعية .. ووصل عـــدد الأطفال الروس الذين لم يدخلوا مدارسهم إلى أكثر من أربعة ملايين طفـــل روسي ..

وبشأن أحوال المرأة في المجتمع الرأسمالي الروســـي فقـــد أصبحـــت مجرد سلعة هابطة بعد أن كانت محصنة بالتقدير والاحترام والعفـــاف فـــي دولة الاشتراكية السوفيتية ودستورها الذي منع البغاء ودور الدعارة منعـــا باتا . هذه المرأة الطالبة والمدرسة والطبيبة والممرضة والعالمة والنائبـــة والقاضية ورائدة الفضاء باتت تباع وتشـــترى لاســـتخدامها فـــي البغـــاء والدعارة في مصر وإسرائيل وأمريكا وفي دول الخليج مما يذكرنا بـــالعصر الوسيط حيث كانت البلاد المطلة على البحر الأسود مصدرا لجلب الرقيـــق رجالا ونساء إلى مصر المملوكية والعثمانية .. وأمام هذه الفظـــائع فقـــد أصبح الانتحار وباء قوميا في روسيا الرأسمالية الدولة الأولى في ممارسة الانتحار . وبعد عام واحد من اغتيال الدولة الاشتراكية السوفيتية تفشـــت الأمراض وزادت نسبتها من عام ١٩٩٢ إلى عـــام ١٩٩٣ علـــى النحـــو التالي .. الحصبـــة ٣٠٢,٤%.. الخنـــاق ٥٥,٩% .. النكـــاف ٨٢% .. الجرب ١٣١% .. أمراض الدماغ ٢١,٤% .. السعال الديكـــي ٦٤,٢% .. الحمى القرمزية ١٩,٤% .. وخلال الفترة الممتدة بيـــن عـــامي ١٩٩٢-١٩٩٦ زادت إصابات الأطفال في عمر ١٤ سنة بأمراض المسالك البوليـــة بنسبة ١٥٠% .. والأمراض العصبية بنسبة ١٩٧% .. والأمراض العقلية بنسبة ١٥% .. أما فيما يتصل بمن هم فوق ال١٤ سنة فقد زادت نســـبة إصابتهم بالأمراض المذكـــورة بنســـب ١٧٠% و١٩٠% و٢٥% علـــى التوالي ..

كما تفشت في هذا المجتمع الرأسمالي الأمراض الاجتماعية من تكـــاثر العصابات وتكاثر الجرائم وزيادة تجارة الممنوع من مخدرات وبيع نســـاء وأطفال بالجملة والقطاعي ..

تلك هي ملامح الخراب المادي والروحي الذي حط على رأس الشـــعب الروسي بعد اغتيال اشتراكيته وعدلها الاجتماعي .. هذا الشـــعب المجيـــد الذي أنقذ البشرية من ويلات النازية والهتلرية بانتصاره الســـاحق علـــى

الجيوش الألمانية الغازية في الحرب العالمية الثانية مما جعل البشرية تستعيد قواها وعافيتها وتحقق حلم حياتها بقيام الاشتراكية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ..

أما مصيبة المصائب التي حاقت بالبشرية من جراء اغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية العظمى يبدو في أن عمال وفلاحي العالم وكل معذبي الأرض وكذلك الدول النامية قد فقدوا جميعا صديقا حميما وحليفا مخلصا .

هذا الصديق والحليف الاشتراكي الذي فتح وطنه ومؤسساته العلمية والتعليمية والبحثية والعسكرية والفلاحية لشعوب العالم الفقيرة والكادحة .

ففي الجامعات السوفيتية كان يوجد آلاف الألوف من الطلاب من أبناء آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يتعلمون ويعيشون ويقيمون بالمجان على حساب الشعب السوفيتي .. وقد تعلم في هذه الجامعات الآلاف من طلاب العالم .

وفي مراكز العلوم والأبحاث والدراسات الأكاديمية تخرج الآلاف من العلماء في كل فروع المعرفة هؤلاء العلماء الذين خدموا بلادهم وأوطانهم وحتى المؤسسات العسكرية السوفيتية قد تخرج منها كبار الضباط الذين لعبوا دورا ملحوظا في تحرير أوطانهم .. وكذلك المؤسسات العلاجية السوفيتية التي استقبلت آلاف المرضى للعلاج بالمجان .. ومما يذكر أن العرب والمصريين كان لهم نصيب كبير من هذه الخدمات المجانية .. ولا تنسى شعوب حركة التحرر الوطني وحكوماتهم في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية الدعم العسكري والمالي التي قدمتها دولة الاشتراكية السوفيتية العظمى لهم بهدف تحرير دول العالم الثالث من التبعية الاستعمارية وبهدف تأسيس جبهة ثورية عالمية تناهض الاستعمار .. هذه الجبهة التي تشكلت من دول عدم الانحياز بقيادة "نهرو" و"شواين لاي" و"سوكارنو" و"تيتو" و"جمال عبد الناصر" الأمر الذي أدى إلى انتصار الثورة الصينية في عام ١٩٤٩ . وانتصار كوريا الديمقراطية في حربها على أمريكا في حرب ١٩٥٠ .. وانتصار الثورة الجزائرية والثورة الكوبية وانتصار ثورة فيتنام المجيدة التي هزمت العسكرية الأمريكية الطاغية هزيمة منكرة ..

إن هذه الشعوب في آسيا وأفريقيا وأمريكا لم ولن تنسى دعم دولة الاشتراكية السوفيتية لها في مرحلة التحرر وفي مرحلة البناء والتنمية حيث قدمت لها المدفع والمصنع والعلم والخبرة ..

ولذلك فإن الشعب المصري لم ينسى أن العسكرية المصرية قد تسلحت وتدربت عسكريا في وطن الاشتراكية الاتحاد السوفيتي حيث بدأت إمدادات السلاح لمصر منذ عام ١٩٥٥ حتى حرب ١٩٧٣ ضد إسرائيل وحيث تخرج من معاهدها العسكرية خيرة ضباط الجيش المصري وفي مقدمتهم الجنرال الذهبي الشهيد عبد المنعم رياض ..

ولن ينسى الشعب المصري أن الجامعات في دولة الاشتراكية السوفيتية قد خرجت آلاف العلماء في كل التخصصات العلمية وخاصة في علم الذرة وغيره من العلوم ..

ولن ينسى الشعب المصري مواقف الاشتراكية السوفيتية في مساندة مصر في حروبها ضد إسرائيل والاستعمار . ولا ينسى إنذار "بولجانين" المشهور بضرب عواصم دول العدوان الثلاثي على مصر في سنة ١٩٥٦ إذا لم يتوقف عدوان إنجلترا وفرنسا وإسرائيل .. ولا ينسى استشهاد الطيارين السوفييت الذين جاءوا لحماية السماء المصرية من الطائرات الإسرائيلية التي صبت قنابلها على مصنع الحديد والصلب في أبي زعبل والتي صبت قنابلها على مدارس الأطفال بقرية بحر البقر .. ولا ينسى حائط الصواريخ الذي شل حركة الطائرات الإسرائيلية لضرب مصر وشعبها ..

كما لا ينسى شعبنا المصري بناء السد العالي على نيل مصر الخالد وبناء محطة كهرباء السد العالي ومصنع كيما الذي يستطيع صناعة الماء الثقيل لخدمة الصناعات الذرية والنووية .. ولا ينسى بناء صرح صناعة الألومنيوم بمدينة نجع حمادي وبناء صرح الحديد والصلب في حلوان وبناء مصانع الكول والمراجل وغيرها من الصناعات الثقيلة مثل الترسانة البحرية في الإسكندرية التي تم تشييدها بفضل الاشتراكية السوفيتية .. وذلك بالإضافة إلى إعطاء مصر مفاعلا نوويا فتم تجريشه دون استخدامه في الصناعة النووية كما فعلت الهند ..

ولذلك فإن اغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية مهما ذمها البعض وهاجمها البعض فقد كان هذا الاغتيال الآثم مصيبة المصائب للشعوب الكادحة ودولها . وتبدو مصيبة المصائب هذه أكثر وأكثر في بروز أمريكا الاستعمارية كقطب أوحد فوق كوكبنا الأرضي بعد غياب القطب الاشتراكي الاتحاد السوفيتي . إن قطبية أمريكا دفعتها إلى إشعال عدوانية الاستعمار

وبلوغه حد الذروة من خلال قيام العولمة الأمريكية .. فإذا كان الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية فإن العولمة هي أعلى مراحل الاستعمار .. فبواسطة هذه العولمة تأكدت قطبية أمريكا لا بفضل قوتها المالية والصناعية والعسكرية فقط بل بفضل استعمارها للكوكب الأرضي كله ..

ولم تكتف أمريكا بذلك بل أضفت للعولمة طابعا عسكريا نازيا وفاشيا وإرهابيا بقواعدها العسكرية المنتشرة في أرجاء الأرض بصورة فاقت انتشار القشلاقات العسكرية الاستعمارية القديمة ..

وبفضل هذه العولمة الأمريكية وسيادتها على العالم طفحت الحروب العدوانية والعنصرية في دول أفريقيا وفلسطين ويوغوسلافيا وأفغانستان والعراق بقيادة أمريكا وعولمتها وأسلحتها الفتاكة .. إن عولمة أمريكا الوحشية في غياب الاشتراكية السوفيتية تجاوزت في وحشيتها وحشية جنود جنكيز خان وهولاكو في العصر الوسيط وتجاوزت أيضا وحشية النازية الهتلرية ووحشية فاشية موسيليني في إيطاليا . ولذلك لم تتوقف العولمة الأمريكية عند حد استعمار العالم ماديا بل تحاول استعماره روحيا من خلال محاولتها تغيير عادات الشعوب وأعرافها وقيمها وأخلاقها وأديانها وكل ثقافاتها حتى تصبح نسخة من الثقافة الأمريكية ذات المرجعية التوراتية والصهيونية حيث يعتبر يشوع التوراتي وممارساته الدموية في قتل البشر كل البشر من الأغيار حيث كان شعاره التوراتي يقول .. اقتل اقتل لا تترك ذكر ولا أنثى ولا طفلا ولا طفلة ولا شيخا ولا شيخة اقتل ولا تترك منهم شاردا .. طالما كانوا من الأغيار أي من غير اليهود ..

ولذلك فإن اليهود الصهاينة قد باركوا العولمة الأمريكية باعتبارها عولمتهم وبالتالي فهم شركاءهم في حروب الإبادة في أفريقيا ويوغوسلافيا وفلسطين وأفغانستان وفي العراق .. وشركاءهم في حرب الإبادة للثقافات والأعراف والأديان التي يؤمن بها الشعوب المختلفة لسببين .. الأول أن سيادة ثقافة العولمة الأمريكية والصهيونية سوف ترسخ وجود الاستعمار الأمريكي الصهيوني للعالم .. والسبب الثاني يبدو في عقدة أمريكا بأنها دولة معدومة التراث الروحي والثقافي مما جعلها تحاول فرض ثقافتها الدموية والعنصرية على العالم بالإضافة إلى أن

اليهودية الصهيونية ليس لها تراث غير تراثها المالي والربوي الذي تكرهه شعوب الأرض..

وأخيرا فإن الشيء المحزن أن غلاة المسلمين من الجماعات الإسلامية لم تتيقن من ذلك إلا بعد اغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية التي كانت مصبا للعنات الموجهة من الجماعات الإسلامية .. باعتبار أن الشيوعية والاشتراكية كفر وإلحاد ودعارة وذلك لأنهم لم يقروا الدستور الاشتراكي السوفيتي الذي كان ينص على معاقبة كل من يحاول إجبار إنسان على تغيير دينه بعقوبة الأشغال الشاقة ومعاقبة جريمة الشذوذ الجنسي بعقوبة الأشغال الشاقة . كما أن دولة الاشتراكية السوفيتية لم تعرف الدعارة ودور الدعارة .. فضلا عن هذا فقد كانت الاشتراكية السوفيتية دولة العدل الاجتماعي والمساواة ودولة التآخي والتضامن مع الشعوب الفقيرة والدول النامية ضد الاستعمار ..

ولكن ماذا حدث للأمة الإسلامية بعد اغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية فلقد حدث الكثير حيث بادرت العولمة الأمريكية والصهيونية باستقطاب حكام المسلمين من أزلامهم الذين أصبحوا جميعا جندها وجواسيسها وخيلها وبغلها وحميرها .. في مقابل حماية هؤلاء الحكام وتثبيت سلطانهم وعروشهم ومصالحهم .. بينما انفردت العولمة الأمريكية الصهيونية بالأمة الإسلامية التي فقدت حليفها وصديقها الاشتراكي . ومن ثم بادرت بتدمير الشعب الفلسطيني والشعب الأفغانستاني وأخيرا الشعب العراقي .. ولم تتوقف عند إبادة هذه الشعوب وتدميرها ماديا وجسديا بل توغلت بقصد تدمير الحياة الروحية للمسلمين من خلال إبادة ثقافاتها وتراثها الديني والأخلاقي ومن خلال تدمير مقدساتها وقرآنها الكريم وحديثها الشريف فالمسجد الأقصى محاصر من الصهيونية والعتبات المقدسة والنجف الشرف بالعراق تحت احتلال الاستعمار الأمريكي ..

وأخطر من ذلك أن العولمة الأمريكية الصهيونية تمارس ضغطها على أزلامها من الحكام العرب والمسلمين للعمل على تعطيل آيات القرآن الكريم الداعية إلى التحريض على الجهاد ضد الطغاة في الداخل والخارج ..

ولذلك أسأل الأهل والأخوة أعضاء الجماعات الإسلامية هل لاحظ مسلم واحد أن دولة الاشتراكية السوفيتية أساءت إلى الإسلام الحنيف أو إلى مقدساته وقرآنه الكريم وأحاديثه النبوية . وإن الجواب يقول كلا وألف كلا

.. مما يعني أن الاشتراكية كحلم وعلم وخبز وحرية وأخوة وصداقة مـــع الأمة الإسلامية والأمم الأخرى وبالتالي فعلى أمة الإسلام والأمم الأخـــرى أن تتحالف مع اليساريين والاشتراكيين على المستوى المحلـــي والقومـــي والعالمي بهدف تشكيل أممية للشعوب الكادحة .. تستطيع مواجهة العولمة الأمريكية والصهيونية حتـــى يســود الســلام الاجتمــاعي والاقتصــادي والسياسي على أرض الكوكب البشرى ..



الفصل الرابع
الاشتراكية المصرية تواجه نظرية السقوف المنخفضة

الاشتراكية كيف عرفتها مصر

إن الشعب المصري الذي استطاع بعبقريته الفطرية أن يحرق بعفويته إحدى مراحل التاريخ البشري في العصر العتيق وهي مرحلة العبودية كما سبق ذكره حيث انتق من مرحلة الشيوعية البدائية إلى مرحلة الإقطاع الفرعوني الذي قام على اشتراكيته الإقطاعية حيث كانت الأرض ملكية عامة وقد استمرت ملكية عامة حتى عصر أفندينا "محمد علي" ثم تحولت إلى ملكية خاصة بصدور اللائحة السعيدية التي أصدرها والي مصر "سعيد باشا" في العصر الحديث ..

إذن فقد عرف المصريون اشتراكية الأرض منذ العصر الفرعوني ثم اشتراكية الدفن والخلود التي فرضها الشعب عماله وصناعه وفلاحيه باحدى ثوراته الكبرى في مصر القديمة .. وبدءا بالغزو الفارسي حتى العصر العثماني لم يعرف المصريون إلا القليل عن الاشتراكية والعدل الاجتماعي من المسيحية ثم من الإسلام..

ولكن الاشتراكية الحديثة قد وصلته في بادئ الأمر عبر البحر الأبيض المتوسط مع جيوش الحملة الفرنسية المحملة بأفكار الثورة الفرنسية ثورة الإخاء والعدل والمساواة معبأة في أدمغة بعض ضباطها وعلمائها الذين شارك بعضهم في هذه الثورة الفرنسية سنة ١٧٩١ ..

فكان من بين ضباط هذه الحملة ضابطا اشتراكيا من أتباع اشتراكية "بابيف" التي شارك أنصارها في الثورة الفرنسية .. ذلك هو الجنرال الفرنسي الأعرج "كفاريللي" قائد سلاح المهندسين في جيوش الحملة الفرنسية الذي شيد قنطرته المشهورة فوق الترعة البولاقية في مدخل شبرا . هذه القنطرة التي كانت تسمى بقنطرة الذي كفر ..

وقد تجلت اشتراكية الجنرال "كفاريللي" في مقولته .. إن الرأسمالية هي السرقة بعينها .. وقد حاول تحقيق إصلاح زراعي مصري لخدمة مصالح الفلاحين والأجراء الزراعيين .. ولكن أغلبية ضباط الحملة رفضوا

هذا الاقتراح بذريعة حاجة الحملة الفرنسية إلى طبقة وسطى من الفلاحين أي من الملتزمين لتكون سندا للحملة التي كانت ذات أطماع استعمارية في مصر..

ولم يتوقف نشاط الجنرال الاشتراكي إلى هذا الحد بل واصل جهده لنشر الأفكار الاشتراكية الحديثة لأول مرة في مصر الحديثة حيث جند أول خلية اشتراكية في مصر والوطن العربي من عدد من مشايخ الأزهر وعلمائه كان أبرزهم الشيخ "محمد المهدي" الذي كان يشغل أمين سر الحملة الفرنسية وعضو لجنتها المالية مع عدد من المشايخ المشهورين في هذه الفترة .. والذي حرر وكتب شروط اختيار "محمد علي" واليا على مصر والذي أصبح مفتيا للديار المصرية ..

تلك هي الخلية الاشتراكية التي استقبلت البكباشي "سرششمة" محمد علي وتحدثت باسمه وقدمته للمصريين بعد جمهرته لدى العامة ومشايخ الأزهر باعتباره الوالي المناسب لحكم مصر . وكما جاء الجنبرال "كفاريللي" يحمل الفكر الاشتراكي في دماغه فقد جاءنا "محمد علي" أيضا يحمل الفكر الاشتراكي السان سيموني الذي تشربه واقتنع به في بلده "قولة" وعمل على تحقيقه في مصر رغم أنه مقدوني الجنسية عثماني التبعية يعتنق الإسلام واسمه "مهمت علي" ولقد وصفه "كارل ماركس" بقوله .. انه الشخص الوحيد الذي كان في وسعه أن يتوصل إلى استبدال العمامة المفتخرة (أي تركيا في القرون الوسطى) برأس حقيقي .. كما وصف مصر الاشتراكية السان سيمونية تحت قيادة "محمد علي" بأنها القسم الوحيد الذي كان ذا قوة حيوية آنذاك في الإمبراطورية العثمانية ..

وخلال فترة والي مصر "محمد علي" انتشرت مقولات الفكر الاشتراكي السان سيمونية في صفوف المثقفين المحدودي العدد وقتئذ ..

وبجانب الفكر الاشتراكي شهدت مصر ظهور فكر المساواة والعدالة الاجتماعية الذي استهله الشيخ "رفاعة الطهطاوي" بدعوته المبكرة للتعليم المجاني وذلك بقوله .. والتعليم يجب أن يكون عاما لجميع الناس يتمتع به الأغنياء والفقراء على السواء .. فهو ضروري لسائر الناس حيث يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء ..

وبشأن الحرية يقول .. فالحرية هي رخصة العمل المباح من دون مانع غير مباح ولا تعرض محظور فحقوق جميع أهالي المملكة المتمدنة ترجع

إلى الحرية والحرية هي الوسيلة العظمى في إسعاد أهالي الممالك . فإذا كانت مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى في راحة الأهالي وإسعادهم في بلادهم . وكانت سببا في حبهم لأوطانهم ..

والحرية قرينة المساواة فكلاهما ملازم للعدل والإحسان وهي أي الحرية بين أهالي الجمعية أي (المجتمع) صفة طبيعية في الإنسان تجعله في جميع الحقوق البلدية كإخوانه . وذلك لأن جميع الناس مشتركون في ذواتهم وصفاتهم فالتسوية في الحقوق ليست إلا عبارة عن تمكن الإنسان شرعا من فعل أو نيل أو منع ما يمكن لسواه من أخواته أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعا .. ثم أن استواء الإنسان في حقوقه مع غيره يستلزم استوائه مع ذلك الغير في الواجبات التي تجب للناس بعضهم على بعض لأن التسوية في الحقوق ملازمة للتسوية في الواجبات ..

يقول الدكتور "رفعت السعيد" .. إن رفاعة قد حاول أن يشيد فكرا تقدميا متكاملا على أسس ثلاث هي .. الفلسفة والاقتصاد السياسي وتاريخ تطور المجتمعات ..

وعن الثروة ومصدرها يقول ما قاله "بن خلدون" في مقدمته .. إن المنبع الأول للسعادة أي الثروة هو العمل والكد . وأن قيمة العمل مجسمة للمصنوعات والمشغولات ..

ويدافع عن العمال والأجراء فيقول .. إن الملاك في العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ولا تدفع نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذي لا يكافئ العمل مما يصل إلى العمال في نظير عملهم في المزارع أو إلى أصحاب الآلات في نظير اصطناعهم له شيء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد إلى الملاك ..

ويتحدث عن البطالة فيقول .. أنه جيش المتعطلين الذين يضاربون ببيع قواهم في سوق العمل . فإذا وجد بالجهة كثير من الشغالين فإنهم يتناقصون في الأجرة ويتنافسون في ذلك لمصلحة صاحب الأرض . ثم يذكر الحديث الشريف "الزرع للزراع" ويتحدث عن معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم ليهود خيبر عندما أعطاهم نصف ما تخرج الأرض من ثمر أو زرع بمعنى أن الرسول قد منح النصف مقابل العمل ..

ثم أتى إلى مصر أبرز دعاة الإسلام .. "جمال الدين الأفغاني" فيؤكد أن الاشتراكية الغربية ما أحدثها وأوجدها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام

والأحكام .وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء الذي إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم وادخروا كنوزهم في الخزائن . واستعملوا ثروتهم في السفه وبذلوها في السرف والتبذير ..أما الاشتراكية في الإسلام فهي ملتحمة مع الدين الإسلامي ملتحمة في خلق أهله منذ كانوا أهل بداوة وجاهلية . وأول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالإسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة..

والاشتراكية هي التي ستؤدي حقا مهضوما لأكثرية من الشعب العامل ومن قلب الوطنية المصرية الحديثة برز العامل التلغرافجي وابن الفران الإسكندراني الشيخ "عبد الله النديم" أحد تلامذة "جمال الدين الأفغاني" وخطيب الثورة العرابية ومنفذ جمهرتها في مصر المدينة والريف على السواء . والمتمرد على أعيان مصر وأغنيائها الذين أرادوا له أن يظل في حدود شخصية مضحك الملك يردد شعره الزجلي لإضحاكهم وجلب المسرة إليهم . ولكنه أبى إلا أن يكون ثوريا وطبقيا معارضا مثله مثل الأديب الروسي العامل "مكسيم جورجي" الذي قال .. جئت إلى الدنيا لأعترض .. وبالتالي فالعامل التلغرافجي والشاعر والأديب الشيخ "عبد الله النديم"

هو أبو كل الوطنيين والثوريين والمعارضين والاشتراكيين المصريين الذي لمح تهافت رفاقه العسكر خلال الثورة العرابية وبعد هزيمتها وهو الذي عوض الشعب المصري عن هزيمة ثورته العرابية بصموده وصلابته ورباطة جأشه وعدم رضوخه للإنجليز والخديوي المصري وحكومته أثناء هربه وخلال نفيه مؤكدا على أن الثورة المصرية لم تمت ولن تمت ..

وباعتباره عامل مصري وابن عامل مصري ثقف نفسه بالكتاب ومعايشة الناس فكان لابد أن يكون داعيا للاشتراكية بأدبه وشعره الذي يقول..

أهل البنوكا والأطيان ... صاروا على الأعيان أعيان

وابن البلد ماشي عريان ... ممعاه ولا حتى الدخان

شرم برم حالي غلبان

ولم يكن العامل "عبد الله النديم" مجرد داعية للوطنية والاشتراكية فقط ولكنه كان ثوريا ومقاتلا من أجل تحقيق أحلام شعبه المصري في الخلاص من الاستعمار ومن الاستعباد ولهذا فقد تمرد على رفاقه من المثقفين من تلاميذ "جمال الدين الأفغاني" الذين اكتفوا بالأقوال دون الأفعال مما جعله

ينظر إليهم نظرته إلى مجموعة من المتكلمين في مجعرة لا يتوقف ضجيجها المدوي .. ولهذا اعتزلهم قائلا .. كنت كلما كلمت عاقلا اسكتني .. فإذا ألححت عليه أنبني وبكتني .. فلم أجد طريقا لتنبيه الوجوه والأمراء إلا بعصبة أكونها من الفقراء ..

إن تمرد النديم قد كشف طبيعة المثقف المصري مبكرا . هذا المثقف الذي يرحب بالمجعرة وما فيها من حرب كلامية لا تضر ولا تنفع . ويخشى من المعركة وما يلازمها من تضحيات . ولهذا فالعمل الثوري ضد الطغاة والأغنياء مرهون بوحدة الفقراء ونضالهم ..

ولذلك فقد تصدى النديم للشيخ الإمام "محمد عبده" عندما رفض العمل الثوري وبادر بتخويف الأغنياء من حركة الفلاحين الفقراء وطالب بقصر حق الانتخاب على المتعلمين .. حيث قال الشيخ الإمام وللآسف .. أنه لم يعهد في أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطالبون مساواة أنفسهم (يقصد الحكومة العرابية) بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم ..

ثم يقول للعرابيين فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الإنساني .. أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم تبلغه إليه أحد من العالمين .. هل رضيتم واخترتم عن رؤية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حبا للعدالة والإنسانية ..

ويبادر الشيخ "عبد الله النديم" بالرد على انحياز الإمام "محمد عبده" إلى الأغنياء .. حيث قال بصوت عال .. إن الحرية لكل فرد وإن الحياة الدستورية وحق الانتخاب والترشيح يجب أن تكفل لكل المواطنين جميعا على قدم المساواة وهاجم فكرة قصر الانتخابات قائلا .. إن الفلاح هو صاحب المصلحة الحقيقية في البلاد وهو يكون الأغلبية العظمى من سكانها وأن الفلاحين أدرى بمشكلاتهم من غيرهم ..

ومن أجل حياة أفضل للفلاحين المصريين يهاجم الشيخ "عبد الله النديم" الأغنياء والإقطاعيين فيقول .. وتعالى فانظر إلى سلم رفعتك ومعدن حياتك ونبع ثروتك . أخيك .. استغفر الله .. خادمك المطيع انظر إلى ثوبه المهلهل ولبدته التي لا تستر يافوخه ورغيفه الذي لا تكسره قوتك ومشه الذي تعاف النظر إليه .. وأرقبه وهو يروي الزرع والطين إلى فخذيه والشمس تشوي وجهه وجسمه يقطع يومه في عذاب وعمل وهو صاحب

الفضل عليك وأنت لا تنظر إليه إلا بعين المقت ولا تعامله إلا بيد الإهانة ولسان السب مستقبحا صورة عنونت بفلاح ..

ذلك هو العامل التلغرافجي "عبد الله النديم" أبو الثورة المصرية والوطنية المصرية والعدل الاجتماعي الذي كشف لنا جوهر المثقف المصري وطبقيته وطبيعته التي تعشق الكلام دون النضال ..

وفي هذه الفترة تستقبل مصر المحروسة "عبد الرحمن الكواكبي" صاحب كتاب .. طبائع الاستبداد . ومصارع الاستعباد .. الذي استهله بقوله .. وهي كلمات حق وصحيحة في واد . إن ذهبت اليوم مع الريح . قد تذهب غدا بالأوتاد .. إن "عبد الرحمن الكواكبي" المفكر الاشتراكي الإسلامي العدو اللدود للاستبداد قد هجر مدينته حلب السورية التي غشيها ظلام اجتماعي دامس طفح به حكم الخلافة العثمانية بفسادها غير المحدود واستبدادها الدموي ..

ولقد حضر "الكواكبي" إلى مصر باعتبارها عاصمة العرب ليواصل حربه على كل مظاهر استبداد الطغاة والحكام في إطار دعوته للعدل الاجتماعي والاشتراكية ولهذا يقول .. إن الاشتراك .. أي الاشتراكية .. هو أعظم الكائنات .. نعم إن الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الأمم المتمدنة ..

ويرى أن الاشتراكية من صميم التراث الإسلامي .. فالخلفاء الراشدون فهموا معنى القرآن وعملوا به . واتخذوه إمام . فأنشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى بينهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية . وحالات معيشية اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة ..

وتقدم لنا مصر مفكرا قبطيا من قرى مديرية الشرقية هو "سلامة موسى" الذي وهب حياته للعدل الاجتماعي والفكر الاشتراكي بكتبه وكتاباته الموسوعية ومقالاته الصحفية حيث عرف لنا الاشتراكية بقوله .. إن الاشتراكية هي الغاية التي سينتهي إليها تفكير كل نزيه يرمي إلى العدل والاقتصاد في طرق استغلال ثروة بلاده .. ويرى أن الاشتراكية التي يقصدها تتجلى في الملكية العامة للدولة مثل ملكية السكك الحديدية وملكية البلديات ومرافق الكهرباء ومياه الشرب .. بالإضافة إلى ملكية المعامل

والمناجم .. ثم يدافع عن الاشتراكية ويؤكد أنها منتصرة حتمـا .. وبعد هجوم المغرضين عليها بدعوى أنها ضد الدين فيقول .. أن هـذا الاتهام كاذب وأن الاشتراكية تضم بين دعاتـها المؤمـن والمسـيحي والمسـلم واليهودي على السواء وهي قبل كل شيء نظام مـالي لا دخـل لـه فـي الدين..

ولما كانت الاشتراكية مادة حية من أهم مواد التفكير فـي مصـر فـي العقود الأولى من القرن العشرين فقد كانت الصحـف المصريـة مسـرحا لصراع المفاهيم حول الاشتراكية حيث شارك في هذا الصراع أقـلام لـن تعلن عن أصحابها وأقلام أعلنت عن أصحابها كان مـن أبرزهـم المفكـر الشامي "شبلي شميل" الذي قد الاشتراكية بالوصف التالي ..

- وما الاشتراكية كما يرميها خصومها بأضغاث أحـلام . ولا أصحابـها ظلام طغام بل هي تريد أن تمهد للإنسان سبل السعادة على هذه الأرض لتسترد له الفردوس الضائع . تسترده مـن أيـدي مـردة الاجتمـاع وأبالسته فتخفض من كبرياء وترفع من نفوس وتقرب بين صولجـان الملك وعصا الراعي حتى يتم تكافؤ الفضل بينهما ..
- الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لابد من الوصول إليها ولو بعـد تذبذب طويل ..
- الاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو إليها ..
- ولا ريب أن الاشتراكية هي الدعوة المنصبة نحوها الأفكار . والمعقودة عليها الآمال اليوم . وهي وإن كانت متفقـة فـي الغايـة إلا أن فيـها اختلافا كثيرا في الآراء شأن كل فئة في دعوة مثل هذه كثيرة العقبـات ومذهب من المذاهب الكبرى علميا كان أو فلسفيا ..

ثم تتفضل علينا مصر المحروسة والولودة بطبيعتها فولـدت للعمـال والفلاحين أيضا مفكرا يدعو إلى الاشتراكية والعدل الاجتماعي كما ولـدت الكثير من الشخصيات الوطنية العظيمة .. هو المفكـر "مصطفـى حسـين المنصوري" الذي ولد في حي عابدين وتخرج من مدرسة المعلمين وعيـن مدرسا بمدارس مجلس مديرية الدقهلية ثم انتقل مديرا لمـدارس مجلـس مديرية الفيوم ودفعته ثقافته للبحث عن جذور الاشتراكية في مكتبات مدينة القاهرة العامرة بالمراجع الاشتراكية .. ومن منطلق مشـاهدته للأحـوال البائسة للعمال والفلاحين المصريين .. ومن منطلق ثقافته أيضا ألف كتابـه

المعنون بعنوان "تاريخ المذاهب الاشتراكية" سنة ١٩١٥ .. هذا الكتاب الذي قوبل من الأزهريين بعاصفة من الغضب مما جعلهم يحرضون الشرطة ضد الكتاب ومؤلفه حيث أسرعت الشرطة بالقبض على "المنصوري" وأخذت كل نسخ الكتاب من منزله ثم قبضت عليه مرة أخرى بتهمة الاشتراك في محاولة اغتيال السلطان حسين كامل بالإسكندرية سنة ١٩١٥ . وذلك بالإضافة إلى اتهامه بالكفر والإلحاد ومحاربته في رزقه وفي عمله وابعاده بإحدى قرى الفيوم النائية .. ولم يدافع عنه بحرارة إلا الأستاذ "لطفي السيد" .. ولهذا فقد حوصرت مبيعات الكتاب في مصر الأمر الذي دفع "المنصوري" إلى إرسال كتابه هذا إلى السوق الشامية ..

ولقد رأى "المنصوري" أن الاشتراكية غير معروفة في مصر ويساء فهمها لدى الجمهور .. فكثيرا ما نسمع عن الاشتراكية . ولكن قليلا منا من يفهم حقيقتها . وغاية ما يعرفه الجمهور أنها مذهب يرمي إلى مساواة الناس في الغنى كما أن الإقبال على درس مبادئ هذا المذهب مفقودة جدا في هذه البلاد ..

يقول الأستاذ "أمين عز الدين" .. لقد كان "المنصوري" مقتنعا بأن الاشتراكية قادرة على إلغاء التفاوت الاجتماعي ونشر العدل والرفاهية في البلاد .. ولكنه لم يشأ أن يقدم دفاعا نظريا عن الاشتراكية .. بل فضل أن يكون سبيله إلى ذلك أن يعرض تاريخ المذاهب الاشتراكية في عدد من البلدان المتقدمة . والتعريف بالإنجازات التي حققها الاشتراكيون في هذه البلدان . وفي هذا السياق يعبر عن وجهة نظره في الاشتراكية وتحديد مفهومها الخاص ويكشف عن قضاياها في النظرية والتطبيق ولهذا يقول "المنصوري" ..

إن الطريق الوحيد لإسعاد البشر هو منع التملك الفردي .. لأننا إذا أردنا أن نجعل الآلات خادما للإنسان لا مزاحما له .. فإننا لن نتمكن من ذلك ما دامت هذه الآلات في قبضة أصحاب الأموال الذين لا يراعون إلا صالحهم الخاص ولا يعبأون بما يلاقيه العمال من التعب والألم .. ما داموا يحصلون على معظم أرباح معاملهم ولا يتركون للعمال إلا جزءا طفيفا لا يكفي لسد حاجاتهم ..

ويرى "المنصوري" أيضا أن البديل الوحيد للملكية الفردية الرأسمالية يتجلى في الملكيات التالية ..

١. ملكية التضامن بين العمال بأن يدفع كل واحد منهم جزءا معينا لتكوين رأس المال .
٢. الملكية التعاونية من خلال النقابات الزراعية في الريف وجمعيات الصناع في المدن .
٣. ملكية الحكومة في الأموال التي تقدم فيها الحكومة رأس المال .

ولا يرفض "المنصوري" الملكية الشخصية .. فإذا كان النظام الاشتراكي يقتضي إلغاء الملكية الفردية .. بمعنى أنه لا يجوز للفرد أن يمتلك أرضا أو معملا أو منجما أو أي ثروة تحتاج في استغلالها إلى عامل أو عمال .. فإنه يجوز للفرد أن يتملك أدوات بيته وأمواله الخاصة طالما لا يستغلها بواسطة عمال ..

إن إلغاء التملك الفردي يستهدف في نهاية الأمر جعل الأرض وما عليها وما في باطنها ملكا للجمهور ينتفع به الناس على السواء .. ولكن "المنصوري" يرى أن يتم الإلغاء رويدا رويدا لأن الطفرة محال والانقلاب المفاجئ محفوف بالأخطار .. ومع هذا فإن "المنصوري" يؤمن بحتمية الحل الاشتراكي .. لأن التفاوت الكائن بين الأفراد الآن ما هو إلا نتيجة ما ارتكبت في الماضي من الظلامات والتصرفات الباطلة . وأن الله العادل لا يرضى أن يشوه وجه العالم بهذا القدر ..

يقول الأستاذ "أمين عز الدين" .. أن محصلة آراء "المنصوري" تتجلى في اكتشافه المبادئ الهامة في الفكر الاشتراكي الحديث وهي ..

أولا .. ضرورة قيام الملكية العامة لتحل محل التملك الفردي .

ثانيا .. تعدد الطرق إلى الاشتراكية حسب الظروف الموضوعية السائدة في كل بلد.

ثالثا .. حتمية الحل الاشتراكي .

و"المنصوري" يبادر بإبراز المضمون الاجتماعي لنضال الاشتراكيين في أوربا . فيقول .. وهناك أكثر من شاهد على ما قدمه الاشتراكيون للعمال والفلاحين من خدمات جليلة . لقد كانت حياة العمال مهددة دائما من جراء خمسة عوامل تعمل كلها على تقطيع أوصاله وتنغيص عيشته زهي .. المرض والشيخوخة والموت والإصابة والتعطل ولهذا إتجه الاشتراكيون إلى تحرير العامل ونصرته ..

ويؤكد "المنصوري" أن العامل والمزارع لا ضمانة لديهما تربطهما بصاحب العمل وصاحب الأرض ولهذا يطرح التساؤلات التالية ..

- من الذي يعول العامل والفلاح إذا مرض أو تعطل ؟
- من الذي يقوم بسداد حاجات أولاده وزوجته عند حلول الشيخوخة ؟
- هل الطبيعة زودت هذا الرجل بالقوة الكامنة التي تجعله يشتغل ويحصو رزقه إلى آخر لحظة من عمره ؟ كلا
- هل الحكومات قررت معاشا لأمثال هذا البائس ؟ كلا
- إذن كيف المحافظة على هذا المخلوق الآدمي الذي لم يسيء إلى الهيئة الاجتماعية ؟
- هذا الإنسان الذي قضى كل حياته في خدمة الجمهور وإنتاج الثروة . أجزاؤه الحرمان والطرد من نعم الله وخيراته ؟
- أنضربه بالرصاص كما تضرب الحكومة الخيول المسنة ؟
- أم ندس له السم كما نفعل بالكلاب الضالة ؟
- أو نطرحه فوق جبل عال ليكون فريسة للنسور والوحوش كما كان يفعل أهل اسبارطه بمواليدهم الضعفاء ؟
- أنختزل حياة الرجل المخلص لنا ؟

إن الاشتراكيون الذين يواجهون أحوال العمال والفلاحين هذه تختلف مناهجهم النضالية حيث يقول "المنصوري" في البلاد الديمقراطية مثل إنجلترا وفرنسا يتقدم الاشتراكيون بمطالبهم دون تحرش بالحكومات أما في البلاد الاستبدادية مثل بروسيا "ألمانيا" فتراهم يجنحون إلى العنف والثورة وسفك الدماء لأن السلطة تطاردهم في كل مكان ..

وعلى ذلك يكون من الخطأ أن يتصور أن الاشتراكية ذات مبادئ ثابتة وغير قابلة للتعديل .. وأن دعاتها لهم هدف واحد ولكنهم يختلفون في الطريق المؤدية إلى الهدف . ولهذا فالاشتراكيون هم أشد الناس معارضة للحكومات الاستبدادية ..

وبشأن مصر "فالمنصوري" يرى أن حتمية الحل الاشتراكي سوف تكون حقيقة من خلال توزيع موات الأرض على الفلاحين الفقراء بدون أن تتحول إلى ملكية فردية وفي مجال الصناعة من الضروري إنشاء قطاع عام وقطاع تعاوني وفي الحياة العامة من الضروري أن تتزايد الديمقراطية من خلال حرية الرأي والنشر والخطابة والصحافة مع ضمان حرية

الانتخاب بالتمثيل النسبي في المجالس النيابية والمحلية وإنشاء المجالس البلدية في القرى والدساكر وتخويلها اختصاصا ببناء المساكن ومنحها مسئولية تحديد الأجور لعمال الصناعة والزراعة ..

وفي المجال العمالي يطالب "المنصوري" بوضع حد أدنى لأجور عمال الزراعة والصناعة بحيث لا يقل عن خمسة قروش يوميا ويطالب بالغاء التفاوت بين موظفي الحكومة بحيث لا يزيد الأجر عن فئة جنيه ولا يقل عن خمسة جنيهات في الشهر..

وأخيرا فقد أكد "المنصوري" على أن الاشتراكية والدين يرميان إلى نصرة الضعيف وذلك بقوله .. فإن من يقف على حقائق الدين الإسلامي والمسيحي يجد كثيرا من المبادئ الاشتراكية الحديثة كالزكاة التي تعادل ضريبة الدخل .. ولقد قام فريق من الكهنة اللاهوتيين في أوربا في القرن التاسع عشر وعدوا الاشتراكية جزءا متمما للدين المسيحي ..

تلك هي جذور الفكر الاشتراكي المصري الذي انبثقت من خلالها الإضرابات والمظاهرات العمالية والنقابات العمالية ذات الطبيعة اليسارية والأحزاب الاشتراكية ونضالها في مصر المحروسة في سنوات القرن العشرين من الألفية الميلادية الثانية..

إضرابات عمالية. ونقابات يسارية وأحزاب اشتراكية

لقد كان البحر الأبيض المتوسط منفذا حيويا لتبادل الحضارات بين مصر واليونان وروما القديمة في العصر القديم وظل هذا المنفذ التاريخي (في ميناء مدينة الإسكندرية) مفتوحا حتى العصر الحديث حيث وصلت منه البضائع المحملة في السفن العابرة للبحر الأبيض وكذلك الأفكار المعبأة في أدمغة البشر الذين توافدوا على مصر في العصر الحديث .. هذه الأفكار التي تجلت في الفكر الاشتراكي والمنهج الحديث للصراع الطبقي بإضراباته ومظاهراته وكذلك الفكر النقابي العمالي الحديث وما يتضمنه من طرائق نضالية واحتجاجية وتنظيمية وتفاوضية حملها إلينا العمال الاشتراكيين الأوربيين ..

ولذلك فقد شهدت مصر أول عصيان إضرابي خلال حفر قناة السويس ثم إضراب سائقي القطارات الأجانب في عهد الخديوي "إسماعيل" ثم المواقف التضامنية للعمال المصريين والأجانب للثورة العرابية .. وتلا ذلك انتشار الحركات الاحتجاجية والإضرابية للعمال المضربين وزملائهم العمال الأجانب كان أبرزها إضراب عمال الفحم في بورسعيد وإضراب عمال السجاير في الإسكندرية في نهاية القرن التاسع عشر من الألفية الميلادية الثانية ..

ومن قلب تلك الإضرابات العمالية انبثقت النقابات العمالية التي قد تسمت بالنقابات العمالية المختلطة التي تضم في عضويتها النقابية العمال المصريين والأجانب . ولذلك فقد شهد النصف الأول من القرن العشرين بالألفية الميلادية الثانية نهوضا ملحوظا في تأسيس النقابات العمالية وكذلك نهوضا ملحوظا في صراعها الطبقي ضد الاستعمار الإنجليزي وتحالف الملك والإقطاع ورأس المال ..

وكان أهم ما قدمه الصراع الطبقي للعمال المصريين ونقاباتهم ذات الطبيعة اليسارية تطور الإضرابات العمالية إلى إضرابات تضامنية ومطلبية ثقيلة ثم إلى إضرابات اقتصادية وسياسية كان أبرزها الإضرابات العمالية قبل وبعد حوادث قرية دنشواي سنة ١٩٠٧ التي أدت إلى شنق عدد من الفلاحين المصريين بواسطة الإنجليز وأزلامهم من المصريين .. ولا يعني هذا إلا أن الإضرابات السياسية في مصر الحديثة صناعة عمالية صرفة .. ومن قلب هذا الصراع انبثقت الجمعيات السرية العمالية التي تخصصت في ممارسة العمل الفدائي المسلح ضد الإنجليز وأزلام الإنجليز التي بدأت بشائرها باغتيال "بطرس باشا غالي" رئيس الوزراء ورئيس محكمة فلاحي دنشواي بواسطة الصيدلي القبطي الشهيد "إبراهيم الورداني" العضو النقابي بنقابة الصنائع اليدوية المرتبطة بالحزب الوطني مما جعل "إبراهيم الورداني" أبا ورائدا للعمل الفدائي المسلح في مصر الذي قاده بعد ذلك النقابي العمالي الفارس "إبراهيم موسى" البراد بعنابر السكة الحديد والشيخ "أحمد جاب الله " الخراط بالسكة الحديد أيضا وزملائهما في عنابر السكة الحديد ومصلحة التليفونات وعمال الصناعات اليدوية بالإسكندرية .. هؤلاء الذين قادوا العمل الجماهيري والعمل الفدائي المسلح قبل ثورة سنة

١٩١٩ وخلالها وبعدها حتى تعرضوا للإعدام في عامي ١٩٢٤ و١٩٢٥..

وفي هذا السياق انتشر الأدب التحريضي في صفوف الطبقة العاملة المصرية ونقاباتها العمالية .. ولهذا يبادر الشاعر "عبد الرحمن سالم" بتحريض العمال العاطلين فيقول ..

برح اليوم بالظهور الخفاء ... فكلوا الأغنياء يا فقراء

أمضغوهم وعلقوا الإثم في ... جيدي فهم بانتحارنا الأثماء

وابلعوهم وكلكم مستعد ... لابتلاع الأحجار لولا الحياء

هذه هي نقاباتنا العمالية ذات الطبيعة النضالية واليسارية وأعضائها الذين كان لهم الفضل كل الفضل في إشعال ثورة سنة ١٩١٩ وما حققته من مكاسب للوطنية المصرية رغم تهميش العمال ونقاباتهم وتجاهل تضحياتهم من حكومات الرأسمالية المصرية ومن المثقفين المصريين أيضا..

وقد صاحب هذا الحضور النقابي العمالي بطبيعته اليسارية والنضالية في المجال الوطني وفي المجال الاقتصادي والمطلبي للعمال .. ظهور وحضور الجماعات والمنظمات والأحزاب الاشتراكية ..

ففي القرن الماضي وبدايته تأسس الحزب الاشتراكي المبارك سنة (١٩٠٧-١٩٠٨) برياسة الدكتور "محمد جمال الدين" .. والحزب الشيوعي الإسلامي .. وحزب اشتراكي ثالث برياسة الدكتور "شبلي شميل" وتشكل الحزب الشيوعي المصري سنة ١٩٢١ . والجناح اليساري الاشتراكي في حزب الوفد بزعامة الاشتراكي "عزيز ميرهم" المهتم بقضايا العمال وذلك خلال سنوات ثورة ١٩١٩ ولكن الحزب الشيوعي المصري قد تم حله في عام ١٩٢٤ بعد موجة الإضرابات التضامنية والمطلبية الكبرى في القاهرة والإسكندرية ..

ومن ثم تحول الحزب الشيوعي إلى مجموعات صغيرة مبعثرة هنا وهناك . وقبل الحرب العالمية الثانية وأثنائها تأسست العديد من المنظمات الشيوعية السرية منها .. الحركة المصرية للتحرر الوطني . ومنظمة أسكرا أي الشرارة . ثم منظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) . ومنظمة طليعة العمال والفلاحين . ومنظمة نواة الحزب الشيوعي المصري . ومنظمة النجم الأحمر . ومنظمة طليعة الشيوعيين . ومنظمة

الحزب الشيوعي المصري . وذلك بالإضافة إلى تعاظم الجناح العسكري الاشتراكي بحزب الوفد بقيادة الدكتور "عزيز فهمي" والمهندس "مصطفى موسى" و"عبد المحسن حمودة" . ثم الحزب الشيوعي المصري الموحد الذي استمر حتى عام ١٩٦٤ حيث حل نفسه تحت ضغط سلطة الاشتراكية الناصرية ذات الطبيعة الوحدانية والشمولية ..

وبعد هزيمتنا العسكرية أمام إسرائيل في سنة ١٩٦٧ نشط الشيوعيون وكونوا منظماتهم من جديد وذلك في فترة السبعينيات ومن هذه المنظمات تكون الحزب الشيوعي المصري الذي حظي بالاعتراف الأممي من الأحزاب الشيوعية العربية والعالمية وقد استطاع تحقيق نفوذ محدود في النقابات العمالية التي صارت نقابات سلطوية .. واستطاع أيضا أن يكون له نوابا في مجلس الشعب وفي المحليات بالإضافة إلى عضويته النشيطة في النقابات العمالية ..

وبعد اغتيال الاشتراكية السوفيتية بدأت المنظمات الشيوعية تتراجع وتتضاءل رويدا رويدا وإن كان بعض هذه المنظمات قد حققت نشاطا ناجحا في الحركة العمالية المصرية وفي مجال حقوق الإنسان مثل حزب الشعب الاشتراكي والجماعة الشيوعية والحزب الشيوعي المصري .. وبجانب هذه المنظمات تواجد حزبان اشتراكيا ويساريان هما حزب التجمع الوطني الوحدوي التقدمي والحزب الناصري .. وذلك بالإضافة إلى مجموعات يسارية واشتراكية تمكنت من جمهرة نفسها على المستوى المحلي والقومي خلال فترة الانتفاضة الفلسطينية وجمع التبرعات للشعب الفلسطيني وخلال التحرش الأمريكي الإنجليزي بالشعب العراقي استعدادا لإعلان الحرب الاستعمارية والعدائية عليه حيث استطاع اليسار الشيوعي والاشتراكي الناصري القيام بمظاهرات صاخبة رغم أنف السلطة والشرطة..

هكذا تحقق الوجود الاشتراكي في مصر من خلال الإضرابات العمالية وتأسيس النقابات العمالية والأحزاب الاشتراكية طوال القرن العشرين من الألفية الميلادية الثانية وسنوات الألفية الميلادية الثالثة ..

وكان من أبرز أعمال هذه النقابات والأحزاب مشاركتها في ثورة سنة ١٩١٩ .. ومشاركتها القيادية والفعالة في تشكيل اللجنة الوطنية للعمال والطلبة سنة ١٩٤٦ التي قادت النضال الوطني والاجتماعي في هذه الأيام

بالإضافة إلى مشاركتها في عملية الكفاح المسلح ضد الإنجليز سنة ١٩٥٠ في عهد الحكومة الوفدية الشعبية الأخيرة ..

أما أهم وأبرز إنجازاتها فقد تجلت في مشاركة الشيوعيين المصريين في تأسيس تنظيم الضباط الأحرار بقيادة البكباشي "جمال عبد الناصر" قائد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .. التي كان من أبرز ضباطها خلال عملية تنفيذ الثورة هو الضابط الشيوعي الشاعر والفلاح القائمقام "يوسف صديق" الذي بدأ الثورة وحقق نجاحها ومع هذا فقد تم تهميشه واستبعاده واضطهاده ..

دولة الاشتراكية في مصر الحديثة

لقد كانت مصر والوطن العربي في قبضة الخلافة العثمانية ذات الطبيعة المركزية والاستبدادية . حيث كانت مصر مجرد ولاية عثمانية يحكمها الوالي العثماني المسمى بالباشا العثماني القابع في قلب القلعة .. ثم تعرضت لغزو الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر من الألفية الميلادية الثانية .. ولكن الشعب المصري قد قاوم جيوش هذه الحملة الفرنسية بصناعه وتجاره ومشايخه وفلاحيه بعد أن هرب المماليك كالجرذان ومعهم كبار مشايخ الأزهر حتى رحلت جيوش هذه الحملة الغازية وللأسف فقد حل محلها جيش من العثمانيين يلازمه جيش من الإنجليز .. وبالتالي فقد عادت مصر مرة ثانية إلى ظلام الحكم العثماني لتصبح ولاية عثمانية مرة ثانية يتصارع في قلبها الفرق العسكرية المملوكية مع فرق الجيش العثماني المتعددة ..وكان كل هذا العسكر الهمج والمتوحشين ينهبون ويقتلون الشعب المصري بغير حساب ولا عقاب مما جعل الناس كل الناس في مصر يعضون الأنامل حسرة وتندما على أيام الحملة الفرنسية ..

ولكن الشعب المصري استطاع أن يقهر الليل العثماني والمملوكي الحالك السواد ويأتي بنهار جديد من خلال قيام دولة اشتراكية حديثة في مواجهة الخلافة العثمانية الإقطاعية المتخلفة والمتسلطة على العرب

والمسلمين والنصارى ..بقيادة أحد العساكر العثمانيين مما استفز الخلافة فحاولت محوه وإزالته بطرائقها التآمرية والعسكرية ولكنها فشلت ..

والعسكري المذكور هو "محمد علي" الذي ولد مع "نابليون" في يوم واحد ومع "الإسكندر الأكبر" في بلد واحد ويوصف بأنه مقدوني الجنسية عثماني التبعية يعتنق الإسلام دينا واسمه "مهمت علي" كما ذكرت من قبل .. وأنه مجرد ضابط عسكري لا يتداول اللسان العربي ويتولى قيادة الفرقة العسكرية الألبانية التي هي إحدى فرق الجيش العثماني ..

وقد جاء إلى مصر ضمن الحملة العسكرية العثمانية التي حلت محل جيوش الحملة الفرنسية التي رحلت من مصر .. ومع هذا فقد أصبح واليا على مصر بطريقة ديمقراطية غير مسبوقة في مصر وبلاد العرب والمسلمين فكيف حدث هذا.؟

لقد حدث لأن الشعب المصري كان مهيأ للتغير والخلاص من مظالم الحكم العثماني والمملوكي معا ولكن كان ينقصه القيادة السياسية المشتاقة إلى تحقيق السلطة المصرية .. وللأسف لم تتواجد مثل هذه القيادة المصرية لأن المصريين الذين ظلوا محبوسين غصبا عنهم في مجال الزرع والضرع والحرفة والصنعة طوال حكم الغزاة . ومن ثم أبعدوا تماما عن المجال العسكري والمجال السلطوي ولهذا فقد ظلوا مهمشين في الحياة والمجتمع منذ عهد الفراعنة حتى عهد الوالي "محمد علي" . هذا التهميش الذي أصبح مزاجا اجتماعيا بين المصريين عموما . يؤيد ذلك أن نابليون قد طلب من بعض مشايخ الأزهر المشاركة في سلطة الحملة الفرنسية على مصر فأحالوه إلى الأتراك قائلين .. أن العامة من الناس لا تخاف إلا من سياطهم ..

وفي تقديري أن "محمد علي" قد لمح هذه الظاهرة السلبية بعدسته اللامة وببصيرته الواعية بفضل ما يحمله في دماغه من فكر .. هذا الفكر الذي أرشده وهداه إلى أن مصر حينئذ تعاني فراغا ملحوظا من جراء وجود شخصيات ذات طموح في ممارسة حرفة العسكر والجندية وفي ممارسة حرفة الحكم والسلطة مما جعل طموحه السياسي يتزايد ويتزايد .. ولذلك فقد استفاد "محمد علي" من غضب أهالي القاهرة وانتفاضتهم في عام ١٨٠٤-١٨٠٥ على المماليك والعثمانيين وعساكرهم القتلة والنهابين فبادر بالتحالف مع المصريين وشيوخهم من خلال الاتفاق على تخفيض

الضرائب على الصناع والتجار وانحياز الفرقة العسكرية الألبانية التابعة للجيش العثماني والتي يقودها "محمد علي" إلى أهالي القاهرة ضد الفرق العسكرية الأخرى التابعة للمماليك والعثمانيين ومن خلال توظيف لسان حاله من المشايخ الاشتراكيين مثل الشيخ "محمد المهدي" نظرا لعدم تداوله اللسان العربي ..

وخلال هذه الانتفاضة وظف محمد علي فكره السياسي ومكانته العسكرية وفرقته العسكرية لصالح هذه الانتفاضة التي انتهت باختياره اختيارا حرا وشعبيا ليصبح واليا على مصر .. هذا الاختيار الذي قد تم بواسطة الإرادة الحرة لأهالي القاهرة وعوامها وصناعها ومشايخها وبشروطهم التي حررها بخط يده الشيخ "محمد المهدي" وكان ذلك بمثابة ثورة ديمقراطية مبكرة جدا في قلب بلاد الاستبداد الشرقي وفي مواجهة الخلافة العثمانية المترامية الأطراف ..

إذن فإن "محمد علي" أصبح واليا على لمصر المحروسة بفضل فكره السياسي وبفضل وقفة الشعب المصري باختياره اختيارا حرا في مواجهة المماليك وعساكرهم والعثمانيين وعساكرهم .. ولهذا فلم يستطع الخليفة العثماني ممارسة خلعه .. كما لم يستطع الإنجليز بواسطة حملة فريزر عام ١٨٠٧ ممارسة شلحه ..

هكذا أصبح أفندينا "محمد علي" واليا على مصر مما جعله يفاجئ أوربا والخلافة العثمانية بمبادرته العظيمة التي تتجلى في تأسيس مصر الحديثة التي أصبحت إمبراطورية أسيوية أفريقية عظمى .. إمبراطورية صناعية زراعية تجارية عسكرية .. فكيف حدث هذا أيضا في مصر التي كانت ولاية عثمانية متخلفة إلى أبعد الحدود يتقاسم السلطة فيها عساكر المماليك وعساكر العثمانيين الذين كانوا يمارسون قهر الشعب المصري حتى أصبح الذل مصري الجنسية .. فكيف حدث هذا في سنوات معدودات .. وهل تقمص الوالي "محمد علي" شخصية المصلح الروسي الكبير القيصر "بطرس الأول" الذي حرر ملايين الأقنان في روسيا القيصرية ..

إن الذي حدث في مصر الولاية العثمانية لم يكن يحدث أبدا ما لم يأتي أفندينا "محمد علي" محملا بفكره الاشتراكي السان سيموني الذي هداه خلال توثيق علاقاته وتحالفاته مع المصريين بالذات قبل توليه حكم مصر والذي أرشده إلى ممارسة التطبيق الاشتراكي السان سيموني من خلال

تأسيس مصر الحديثة الدولة الأولى للاشتراكية في مصر الحديثة ذات الثورات المدنية والعسكرية التالية ..

- الثورة الصناعية التي تجلت في إنشاء العديد من مصانع الغزل والنسيج ومصانع الصابون والسكر والصباغة والطرابيش ومصانع البنادق وصب المدافع والترسانات البحرية لصناعة السفن الحربية والتجارية . هذه المصانع التي استقبلت الآلاف من العمال المصريين والأجانب والآلاف من الصبية المتدرجين الذين تدربوا في هذه المصانع مما أدى إلى ظهور بوادر الطبقة العاملة المصرية الحديثة ..
- الثورة الزراعية التي تمت بتحقيق الإصلاح الزراعي الأول والإصلاح الزراعي الثاني وإلغاء نظام الالتزام والملتزمين الذين كانوا يستغلون الفلاحين ويمتصون دماءهم .. وزيادة الأراضي المروية إلى مائة ألف فدان وزيادة مساحة الأراضي المنزرعة من مليوني فدان في عام ١٨٢١ إلى ٣,١ مليون فدان عام ١٨٣٣ .. وانتشار الري الدائم بدلا من الري الدوري ..
- ثورة الحفر والردم والإنشاءات التي تمثلت في حفر ٤٠ ألف ساقية للري الزراعي والكثير من الترع مثل ترعة المحمودية والقنوات والرياحات وإنشاء القناطر الخيرية التي بلغ مكعبات إنشاءها ٩٦٤١٤٠ مترا مكعبا . وإنشاء جسري النيل من دمياط إلى أسوان ومن رشيد إلى أسوان بعرض ستة أمتار وارتفاع مترين على مسافة ٢٣٢٠ كيلو بطول النيل من الجانبين ..
- ثورة الثقافة والتعليم .. إن دولة اشتراكية أفندينا "محمد علي" حققت ثورة في مجال الثقافة بإنشاء المطبعة الأميرية أول مطبعة في مصر وأصدرت جريدة الوقائع الرسمية لنشر القرارات الحكومية وأهم أخبار الدول وترجمة مئات الكتب إلى اللغة العربية من بينها كتاب الأمير لميكافيلي . وفتحت العديد من المدارس للبنين والبنات من المسلمين والمسيحيين وأرسلت إلى أوربا الكثير من البعثات لتلقي العلوم والخبرات في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وكان أغلب المبعوثين من عامة الناس ..
- ثورة إدارية .. إن دولة الاشتراكية الأولى في مصر كانت في حاجة إلى جهاز إداري وحكومي حديث ومن ثم أنشأت الدواوين والمصالح

الحكومية وأصدرت قانون السياستنامة لتنظيم العلاقة بين الحكومة والمواطنين وتنظيم شئون الدولة والموظفين ..

- ثورة عسكرية .. كان من أهم تطبيق اشتراكية أفندينا تجنيد المصريين لأول مرة منذ عهد الفراعنة مما أدى إلى بناء الجيش المصري الحديث الذي أثبت وجوده العسكري وبطولاته القتالية في حروب الشام والجزيرة العربية والسودان وفي حر جزيرة المورد باليونان وخلال الصدام مع الجيش العثماني الذي كان يقوده أعظم جنرالات العسكرية البروسية "الالماته" ومع هذا فقد هزمه الجيش المصري الحديث ..

هكذا تأسست مصر الحديثة من خلال تطبيق الاشتراكية السان سيمونية الذي شارك في تنفيذها العشرات من الاشتراكيين الفرنسيين من اتباع سان سيمون الذين توافدوا إلى مصر في ضيافة أفندينا "محمد علي" وكان من أبرز كوادر اشتراكية "سان سيمون" الذين شاركوا في التطبيق الاشتراكي في مصر الجنرال "سليمان باشا الفرنساوي" مؤسس الجيش المصري الحديث ومدربه و"كلوت بك" مؤسس كلية طب القصر العيني و"موجل بك" و"لينان بك" اللذين اشرفا على إنشاء القناطر الخيرية ثم شاركوا في حفر قناة السويس وذلك بالإضافة إلى بعض الشخصيات الفرنسية والاشتراكية الآتية..

١. هوار .. طالب سابق بمدرسة الهندسة العسكرية بباريس . مات أثناء عمله في بناء القناطر الخيرية ..
٢. لامبير .. مدير مدرسة الهندسة العسكرية ..
٣. برينر .. مدير مدرسة المدفعية بطرة ..
٤. فورتل .. كبير المهندسين في مناجم الجزائر ..
٥. براكس .. ضابط بحري ..
٦. تورنيه .. مهندس سكك حديدية ..
٧. دشارم .. مهندس طرق وكباري ..
٨. لينان .. ضابط بحرية كبير مهندسي الطرق والكباري في مصر ..
٩. لقفر .. أخصائي في المعادن توفي بسيناء بمصر ..
١٠. جوندريه .. كيمائي توفي بالطاعون في الإسكندرية ..
١١. إيفون .. أخصائي في الرياضة والحساب ..
١٢. لامي .. مهندس مباني مات بالطاعون أثناء تنفيذ نفق شبرا ..

١٣. ماشرو .. رسام مدرس بمدرسة الخيالة بالجيزة ..
١٤. دوملار .. حداد مات بالطاعون أثناء عمله بالقناطر الخيرية ..
١٥. الكسندر .. ميكانيكي مات بالطاعون أثناء عمله بالقناطر الخيرية ..

هؤلاء بعض كوادر الاشتراكية السان سيمونية الذين شاركوا في تطبيق اشتراكية أفندينا "محمد علي" في مصر .. إذ أن الاشتراكية ذات صبغة دولية تدعو إلى التآخي بين البشر من خلال ضرورة زواج الشرق بالغرب بإقامة المشاريع الإنسانية والصناعية في بلاد الشرق ..

ومن ثم فقد تحقق حلم حياتهم بوصول "محمد علي" إلى حكم مصر معشوقتهم مما زاد حماسهم من أجل المساهمة في بناء مصر الحديثة باعتبارهم اشتراكيين ملتزمين بفكر أستاذهم "سان سيمون" وباعتبارهم فنيين متخصصين في العلوم الطبيعية والهندسة والعسكرية وكل الفنون التطبيقية .

يقول المهندس الاشتراكي "انفاتال" خليفة "سان سيمون" .. السويس هي مدينة العمل بالنسبة لنا . هناك سوف نحقق ما ينتظره العالم لكي يعرف أننا رجال حقا حيث أنه يقصد مشروع حفر قناة السويس ويبشر بتنفيذه ..

ثم يقول أنني مسافر يا صديقي وإنك تعلم أنني سأقلع إلى الإسكندرية أما الذي لا تعلمه فهو أننا نريد أن نقوم بعمل في أراضي مصر وهي تلك الأرض الهرمة والغنية بما توحي به من آمال .. إنها الأرض التي يقف فيها مجد الأقدمين .. نريد أن نعبر الصحراء حتى يتصل البحرين . .ان نتم الدراسات التي بدأت لنصل السويس بالبحر الأحمر وبذلك نصل الهند بأوربا..

هكذا أصبحت مصر في عهد "محمد علي" المسرح الرئيسي لنشاط جماعة السان سيمونية ومجالا لتطبيق اشتراكيتهم من خلال تأسيس دولة صناعية واستبدادية يكون الوالي الاشتراكي "محمد علي" هو القائد العلمي للإنسانية إلى جانب كونه السياسي فهو يمسك بإحدى يديه البوصلة التي لا تخطيء في إرشادها وفي اليد الأخرى يمسك بالسيف لمعارضي النهضة التقدمية . وحول كرسي عرشه يصطف العلماء وأشجع القادة وأكفأ رجال الصناعة حيث تشكل حكومة اقتصادية لتحل محل الحكومة السياسية في مصر الحديثة التي تكون الصناعة حجر الزاوية في بنائها الجديد ..

هذه هي بعض المواصفات السان سيمونية بشأن تطبيق اشتراكية أفندينا من خلال بناء مصر الحديثة التي يجب أن يتحسن في رحابها مستوى عمال الزراعة والصناعة والتخلي عن أساليب استغلالهم .. وعلى حكومة مصر الحديثة أن ينصرف اهتمامها إلى تحسين أحوال هذه الطبقة التي لا تلقى أي رعاية .. ويجب أن ينظر إليها كعنصر أساسي في تقدم الإنسانية وازدهارها..

وحتى يتحقق ذلك فلابد أن ترث الدولة جوهر الإنتاج (القطاع العام) حتى يوجد نوع من الطبقة الصناعية التي يسمى أشخاصها بالقادة الصناعيين العقائديين الذين يتم اختيارهم بواسطة الدولة ..

ولكي تتقبل الطبقة العاملة هؤلاء القادة الصناعيين وسلطتهم البيروقراطية والاستبدادية فلابد من وجود نوع من التعليم المهني والأخلاقي للعمال على أن يصاحبه قيام ديانة جديدة تعمل على ربط الإنسان بأخيه الإنسان ..

تلك هي دولة الاشتراكية الأولى في مصر الحديثة بجانبها المادي والنظري التي هدمها ماديا ونظريا تحالف أوربا والخلافة العثمانية لما حققته من إنجازات عسكرية وصناعية وزراعية وتجارية . هذه الإنجازات التي هددت المصالح الأوربية ومستقبل الخلافة العثمانية حيث ثبت أن الاشتراكية مهما كانت مساوئها فإنها تحقق التقدم والرخاء والتنمية المستقلة وهذا ما يؤكد أن قدر مصر ومستقبلها وازدهارها مرهون بتحقيق الاشتراكية كنظام سياسي واقتصادي واجتماعي ..

هكذا ظهرت دولة أفندينا الاشتراكية .. وهكذا توارت بعدوان خارجي من أوربا والخلافة العثمانية .. وبعدوان داخلي قاده الوالي "عباس باشا الأول" حفيد أفندينا "محمد علي" وحزبه الرجعي المتعاون مع الإنجليز فمما يذكر أنه قد تكون في آخر أيام حكم "محمد علي" حزبان . حزب وطني تقدمي بزعامة "إبراهيم باشا" ابن "محمد علي" وبطل حروبه العسكرية يضم المثقفين الموالين لمصر والمصريين . والحزب الآخر بزعامة "عباس باشا" حفيد "محمد علي" ويضم الضباط الأتراك والشخصيات التركية التي تمقت مصر والمصريين ..

وبوفاة إبراهيم باشا ووالده محمد علي باشا أصبح الحفيد عباس باشا واليا على مصر مما مكنه من تدمير اشتراكية أفندينا وصناعتها ومصانعها

وفابرقاتها وكارخاناتها الصناعية التي تحول بعضها إلى ثكنات عسكرية وبعضها إلى خراب يسكنه البوم والمومسات ومرضى اللواط الأمر الذي ادى إلى إذلال اسم الكرخانة (الفارسي) كمصنع ومكان للعمل وممارسة الحرفة حيث أصبح اسما كريها لكونه مكانا للدعارة وممارسة الفاحشة واللواط ..

ورغم زوال اشتراكية أفندينا فقد ظل العديد من كوادر الاشتراكية السان سيمونية يتواجدون ويترددون على مصر بغية تحقيق حلمهم الذي يتجلى في تنفيذ حفر قناة السويس بربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض مما يؤدي إلى زواج الشرق بالغرب كمبدأ من مبادئ الاشتراكية السان سيمونية..

ولقد تحقق ذلك الحلم من خلال ممارسة الضغط على والي مصر بعدئذ "محمد سعيد" باشا الذي أصدر فرمانا بحفر قناة السويس البحرية بواسطة السخرة التي اصطلى بنارها كل فلاحي مصر الذين حفروا قناة السويس بأيديهم وفئوسهم مما أدى إلى موت الآلاف منهم ..

إن هذه السخرة وأحوالها كانت سببا رئيسيا في بعث الوطنية المصرية الحديثة ونهوضها الذي تجلى في ظهور الأحزاب والصحافة والثورة العرابية التي انبثقت من خلالها أول حكومة مصرية تنادي بالمساواة والعدل الاجتماعي في مواجهة الخديوي "توفيق" وطبقة الإقطاعيين المصريين ..

يقول زعيم الثورة "أحمد عرابي" .. إن هدفنا الوحيد هو إنقاذ وطننا من ذل العبودية والظلم والجهل وأن نرفع شعبنا إلى المستوى الذي يمكنه من مقاومة أي محاولات لإعادته إلى ظلمات الماضي ..

ويحدد لنا أيضا "أحمد عرابي" هدف الثورة والثوار وحكوماتها في الآتي ..

- إلغاء نظام السخرة الذي يفرضه الباشاوات الأتراك على الريف المصري..
- القضاء على إقطاع الماء واحتكار الباشاوات الأتراك لمياه الفيضان ..
- حماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين ينشبون أظافرهم في أجساد الفلاحين مستعينين بالمحاكم المختلطة ..
- إصلاح القضاء فهو مليء بالفساد ..
- نشر التعليم بالنسبة للرجال والنساء على السواء ..

- انتخابات حرة لبرلمان جديد ..
- إلغاء نظام العبيد ..

إن هذه الأهداف تثبت أن الثورة العرابية وحكومتها الوطنية كانتا تبغيان المساواة والعدل الاجتماعي للشعب المصري الذي ساندها رغم طبيعتها العسكرية التي كانت سببا في هزيمتها أمام الإنجليز ولو أن هذه الثورة عملت على تغليب الجانب الشعبي على الجانب العسكري لانتصرت على الإنجليز وأزلامهم من الإقطاعيين المصريين لأن الجانب الشعبي له القدرة على مقاومة الإنجليز وعملائهم كما فعل أستاذ الثورة الشيخ "عبد الله النديم" بعكس السادة العسكريين الذين بادروا بالاستسلام ..

ومن خلال ثورة العسكر أي ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. ومن خلال حكم العسكر تصاعدت الوطنية المصرية الحديثة .. وتعاظمت القومية العربية الحديثة .. ورغم أن هذه الوطنية التي كانت تنز بالطغيان كل الطغيان .. وأن القومية التي كانت تطفح بالإكراه كل الإكراه .. ولهذا ففي ظل هذه الوطنية المصرية سجن وعذب الآلاف من القوى اليسارية والديمقراطية وكل الجماعات المعارضة باسم الوطنية المصرية وحماية الأمن القومي .. وفي ظل تلك القومية العربية قتل من قتل وعذب من عذب من الشخصيات العربية المخالفة والمعارضة وحدثت حروب وانقلابات باسم القومية العربية وحمايتها من الشعوبية .. كل هذا وذاك كان بسبب العسكر وحكم العسكر الوطنيين والقوميين معا وهذا أمر محزن ..

وفي قلب ذلك المناخ .. مناخ الضبط والربط والقشلاق العسكري ظهرت الاشتراكية الناصرية .. التي بدأت باسم الاشتراكية التعاونية ثم بالاشتراكية القومية ثم بالاشتراكية الناصرية والاشتراكية العلمية ..

وكانت هذه الاشتراكية ذات حزب واحد وشمولي كان اسمه الاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي .. وكان أيضا ذات سلطة ودولة يحكمها شخص الزعيم والرئيس "جمال عبد الناصر" الذي كان يضاهي إلى حد ما الرفيق "ستالين" في الاتحاد السوفيتي في شدته وبأسه ووحدانيته المطلقة وممارسة سلطته بفكرة السيادة دون فكرة الحرية .. وإن كان الرفيق "ستالين" يتميز بنجاحاته وإنجازاته الأسطورية ..

وتتجلى الاشتراكية الناصرية في صدور وتنفيذ قانون الإصلاح الزراعي الأول والثاني وما فيه من مكاسب للعمال الزراعيين والفلاحين الفقراء

وفي تأميم قناة السويس وتمصر الاقتصاد المصري وإصدار قانون التأمينات الاجتماعية للعمال والموظفين والعلاج المجاني والتعليم المجاني وتأميم الصناعات الكبيرة وإنشاء القطاع العام وزيادة الحد الأدنى لأجور العمال والموظفين وحق العمال في سبع ساعات عمل فقط وفي إجازات مرضية وسنوية وحقهم في الحماية القضائية من النقل التعسفي والنقل العقابي والإكراهي .. هذه بعض ملامح التطبيق المادي للاشتراكية الناصرية . أما الملامح النظرية للاشتراكية الناصرية فتتجلى في نصوص الميثاق الوطني باعتباره الوثيقة النظرية للاشتراكية الناصرية باعتبارها دولة وثورة بقيادة الزعيم والرئيس "جمال عبد الناصر" ..

عن الديمقراطية يقول الميثاق ..

ومن هنا فإن العمل الثوري الصادق لا يمكن أن يكتمل بغير سمتين أساسيتين هما .. أولهما شعبيته .. وثانيهما تقدميته ..

- إن الديمقراطية هي الترجمة الصحيحة لتكون الثورة عملا شعبيا ..
- إن الديمقراطية هي توكيد السيادة للشعب . ووضع السلطة كلها في يده وتكريسها لتحقيق أهدافه ..
- إن الديمقراطية والاشتراكية من هذا المنظور تصبحان امتدادا واحدا للعمل الثوري ..
- إن الديمقراطية هي الحرية السياسية .. والاشتراكية هي الحرية الاجتماعية ..
- إن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تنفصل عن الديمقراطية الاجتماعية . وأن المواطن لا تكون له حرية التصويت في الانتخابات إلا إذا توافرت له ضمانات ثلاث ..
  - أن يتحرر من الاستغلال في جميع صوره ..
  - أن تكون له الفرصة المتكافئة في نصيب عادل من الثروة الوطنية ..
  - أن يتخلص من كل قلق يبدد المستقبل في حياته ..
- إن التنظيمات الشعبية وخصوصا التنظيمات التعاونية والنقابية تستطيع أن تقوم بدور مؤثر وفعال في التمكن للديمقراطية السليمة . إن هذه التنظيمات لابد أن تكون قوى متقدمة في ميادين العمل الوطني الديمقراطي . وأن نمو الحركة التعاونية والنقابية معين لا ينضب

للقادات الواعية التي تلمس بأصابعها مباشرة أعصاب الجماهير وتشعر بقوة نبضها ..

وبشأن حتمية الحل الاشتراكي يقول الميثاق ..

- أن الحرية الاجتماعية طريقها الاشتراكية
- أن الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في مصر . وصولا ثوريا إلى التقدم - لم يكن افتراضا قائما على الانتقاء الاختياري . وإنما كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير . كما فرضتها الطبيعة المنتصرة للعالم ..
- أن الاشتراكية العلمية هي الصيغة المناسبة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم..
- أن أي منهاج آخر لا يستطيع بالقطع أن يحقق التقدم المنشود .. والذين ينادون بترك الحرية لرأس المال . ويتصورون أن ذلك طريق إلى التقدم يقعون في خطأ فادح ..

ولكن ما هي مرجعية الاشتراكية الناصرية التي حققت دولتها في مصر المحروسة .؟ في تقديري أن مرجعية هذه الاشتراكية المصرية والعربية تمثلت في أدبيات الماركسية والاشتراكية العلمية عموما وكذلك علاقتها باشتراكية "نهرو" في الهند واشتراكية الدول الأفريقية بالإضافة إلى الواقع المصري المشتاق إلى العدل الاجتماعي كان مرجعا له تأثيره ..

والجدير بالذكر أنه يوجد بعض التشابه بين دولة الاشتراكية الناصرية ودولة اشتراكية أفندينا "محمد علي" من حيث النهوض الزراعي والصناعي والاقتصادي والرخاء والتنمية المستقلة الأمر الذي يدعونا إلى تكرار المقولة بأن الاشتراكية هي الحل بشأن مواجهة مشاكل مصر وبشأن مستقبل أفضل لحياة الشعب المصري ..

وإذا كانت دولة اشتراكية أفندينا قد جعلت من مصر إمبراطورية أفريقية وأسيوية وحققت إنجازات رائعة في كل مجالات الحياة فإن الفلاح المصري قال عن "محمد علي" ودولته واشتراكيته .. أنه قد بنى قصرا وهدم مصر .. أن الإنسان المصري .. وكذلك فإن دولة الاشتراكية الناصرية .. دولة الوطنية المصرية والقومية العربية ودولة العدل الاجتماعي بمعنى دولة الخبز دون الحرية .. الحرية السياسية والنعامة وبسبب غياب الحرية فقد ذهبت أدراج الرياح ..

اليسار الجديد مجرد مجعرة

فور صدور العدد الأول من الإصدار الثاني لمجلة اليسار التي يصدرهـا حزب التجمع الاشتراكي بنظري معنونا بعنوان "اليسار الجديد" ومصاحبـا تقريبا لظهور نظرية السقوف المنخفضة المخالفـة لمفـهوم الاشـتراكية للدكتور "رفعت السعيد" الأمين العام لحزبنا حزب التجمع . اسـتبدت بـي الدهشة وأخذتني الحيرة ومن ثم كتبت في العدد الثاني من الإصدار الثـاني لمجلة اليسار الجديد وقلت ما يلي ..

لعلي أكون قد أخطأت واعتراني الشطط فيما أبديـه مـن رأي بشـأن الإصدار الثاني لمجلة اليسار التي يصدرها حزبنا حزب التجمع اليساري .. هذا الإصدار الذي أضاف كلمة الجديد إلى كلمة اليسـار توصيفـا واعيـا لطبيعة مجلة حزبية فكرية يسارية جديدة . وتوصيفا لطبيعة اليسار الجديـد .. وإذا تأملنا في كلمة الجديد المضافة إلى كلمة اليسار فسوف نرى أنـها كلمة مقصودة لما تتضمنه من مغزى سياسي ومضمون طبقي لا علاقة لـه باليسار الاشتراكي . وبالتالي فإن الإصدار الثاني لمجلـة اليسـار الجديـد قصده المشاركة في زفـة تـهليل أمريكـا ورأس المـال فرحـا بسـقوط الإشتراكية السوفيتية . وغيرها من الاشتراكيات بما في ذلـك الاشـتراكية الناصرية . وقصده أيضا المشاركة في إشهار فشل الاشتراكية في مواجهـة عالم رأس المال وعولمته الأمريكية والصهيونية المتوحشة التي لـم تعـد أعلى مراحل الرأسمالية فقط بل باتت أعلى مراحل الاستعمار الكوكبي ..

ومن ثم فإن المنبر اليساري الجديد الصادر عن حزب اليسار في مصـر . هو بمثابة شهادة ضد الماركسـية واشـتراكيتها صـدرت مـن أهلـها اليساريين المصريين في وقت تفشت فيـه عبوديـة العولمـة الأمريكيـة والصهيونية واستعبادها الصارخ للبشر كل البشر الذين يعضـون الأنـامل حسرة وتندما على سقوط القطبية الاشتراكية . والذين أحسوا أن العولمـة تعاملهم معاملة الهنود الحمر أثناء فتح أمريكا وتعاملهم معاملـة الزنـوج الأفارقة الذين اختطفوا من سواحل أفريقيا القريبة حيـث القتـل بالجملـة والإبادة بالجملة والسخرة بالجملة والنهب بالجملة وفقا لوصايا "يشوع ابن نون" التي وردت في الأسفار التوراتية والتي هي عقيدة العولمة الأمريكيـة والصهيونية ..

ولذلك فإن الاشـــتراكية وتنميتـــها وعدلـــها الاجتمـــاعي ومناهضتـــها للاستعمار باتت حلما ملحا للبشر كل البشر الذيـــن يعـــانون مـــن ويـــلات العولمة الاستعمارية الأمريكية وما سببته من حروب عنصريـــة عدوانيـــة كوكبية صاحبها نهب كوكبي وفقر كوكبـــي وبطالـــة كوكبيـــة وأمـــراض اجتماعية وصحية كوكبية وجرائم كوكبية وتجار رقيق وسلاح ومخـــدرات كوكبية وتلوث الأرض وبحارها ومناخها تلوثا كوكبيـــا .. بالإضافـــة إلـــى ممارسة الإبادة للشعب اليوغسلافي والفلسطيني والأفغانستاني والعراقـــي بواسطة أسلحة الدمار الشامل الأمريكية ..

هذه هي العولمة التي انبهر بها وللأسف بعض المثقفين اليساريين فـــي مصر وغير مصر بعد سقوط القطبيـــة الاشـــتراكية الســـوفيتية رغـــم أن العولمة الأمريكية المبهرة هي مجرد فجر كاذب بشأن طموحات البشر فـــي الخبز والزبد والعدل والحرية والسلام ..

ولقد بدا ذلك الانبهار في مصر المعاصرة بظـــهور نظريـــة الســـقوف المنخفضة المنافية للاشتراكية للدكتور "رفعت السعيد" الأمين العام لحـــزب التجمع اليساري وبظهور الإصدار الثاني لمجلة اليســـار .. التـــي تســـمت باليسار الجديد الداعية إلى نشوء يسار جديد يرتكز على أصـــول مرجعيـــة غير الاشتراكية العلمية .. علما بأن الاشتراكية العلمية هي علم العلوم فـــي مجال المساواة والعدل الاجتماعي وصراع الطبقات .. وذلك فضلا عن أنـــها وريثة دعوات العدل الاجتماعي في التراث الدينـــي والإصلاحـــي .. وفـــي المضمون الاجتماعي لثورات العبيد والأقنان والفلاحين والعمال .. ولـــهذا يقال أن هيئة الأمم المتحدة قررت علم الاجتماع الاشتراكي الماركسي فـــي مدارس وجامعات العالم ..

ففي مجلة اليسار الجديد التي كتب افتتاحيتها الأستاذ الدكتور "إبراهيـــم سعد الدين" بقصد التعبير عن توجهها العام ، الـــذي كـــان بمثابـــة لطمـــة للماركسيين وحرب على الاشتراكية مـــن خـــلال مـــا ورد منـــها بعنـــوان "التناقض بين الطابع الاجتماعي للإنتاج والطابع الفردي للملكية" .

إن إحدى المسلمات التي كان يستند إليها فـــي القـــول بحتميـــة الحـــل الاشتراكي . وفي تفوق التنظيم الاقتصادي الاجتماعي للاشـــتراكية ، هـــي مقولة بروز وزيادة التناقض بين الطابع الاجتمـــاعي للإنتـــاج والتوزيـــع والطابع الفردي للملكية الرأسمالية . إن مثل هذا التناقض يؤدي إلى هـــدر

في الموارد البشرية والمادية التي تتعطل بين فترة وأخرى كنتيجة للتعليمات الدورية بين الرواج والكساد . كما أن أغلب المشروعات الرأسمالية تعمل بأقل طاقاتها الإنتاجية معظم الوقت .

وعلى العكس من ذلك فإن الملكية المجتمعية وما يصحبها من تخطيط شامل .. ومن السعي لتحقيق توازن فعلي بين العرض والطلب وبين فروع الصناعات والأنشطة الاقتصادية والاجتماعية المختلفة ، هو الكفيل بتحقيق كفاءة أعلى واستخدام أكثر كفاءة لعناصر الإنتاج واستبعاد ظاهرة السهدر التي يتضمنها الاعتماد على المنافسة .. إن هذه المقولة لم تثبت صحتها في الواقع العملي . ورغم أن الاعتماد على المنافسة قد يتضمن هدرا لبعض الموارد بين وقت وآخر ، فإن التنافس لتحقيق أقصى الربح بواسطة المشروعات الرأسمالية ، يدفع بصفة مستمرة إلى السعي لتحقيق خفض في التكاليف والسعي للوصول إلى تحسين طرق الإنتاج ، وتطوير المنتجات خاصة بعد أن حلت المنافسة غير السعرية محل المنافسة السعرية ، واعتمدت هذه المنافسة على التجديد المستمر للمنتجات والتطوير المستمر لطرق الإنتاج ذاتها ..

من ناحية أخرى فإن المشروعات الرأسمالية المستقلة عن بعضها البعض قد تصدر قرارات في اتجاهات متعاكسة ، مما يؤدي إلى إلغاء تأثير أخطائها بواسطة بعضها البعض ..

وعلى العكس من ذلك فإن أخطاء أجهزة التخطيط كثيرا ما تبقى غير مصححة ، إلا بعد تراكم الأخطاء وبروز الاختلافات في التوازن بين الأنشطة والقطاعات . وقد صاحب التخطيط في العديد من الحالات بروز عجز شديد في عرض العديد من السلع مع وجود فائض كبير في منتجات أخرى ..

من ناحية أخرى فإنه بينما كان التطوير والتحسين هو جزء أساسي من أنشطة المشروعات الرأسمالية المتنافسة . فقد كان مثل هذا النشاط محدودا في إطار وحدات الإنتاج الخاضعة للتخطيط المركزي في المجتمعات التي كانت تسعى لبناء الاشتراكية . وذلك باستثناء فروع الإنتاج المتعلقة بالإنتاج الحربي وبصنع السلاح..

وقد تطورت الرأسمالية في المرحلة المعاصرة ، لتصبح رأسمالية ذات طابع كوكبي . وأصبحت الشركات المتعددة الجنسيات هي المسيطرة على

الإنتاج والتوزيع ، وعلى حركة رءوس الأموال واستطاعت هذه الشركات أن تدير بكفاءة وحداتها المتعددة في أرجاء المعمورة بفضل ثورة الاتصالات الحديثة وبفضل الثورة في طرق الإدارة التي صاحبتها ..

هكذا تخلت قناعة الأستاذ الدكتور "إبراهيم سعد الدين" عن حتمية الحل الاشتراكي ، وعن التخبط الاشتراكي للاقتصاد حيث ثبت له عدم صحة قوانين الماركسية والاشتراكية في الواقع العملي ، فالتناقض بين الطابع الاجتماعي للإنتاج والتوزيع ، والطابع الفردي للملكية لم يعد شيئا مذكورا ، وأن التخطيط الاقتصادي قد تأكد فشله في الحياة والمجتمع وإن الرأسمالية تستطيع تصحيح أخطائها بنفسها وأنها باتت ذات طابع كوكبي تدير بكفاءة وحداتها وشركاتها المتعددة الجنسية بكفاءة . مما جعلها تسيطر على الإنتاج الكوكبي والتوزيع الكوكبي وعلى حركة رءوس الأموال في العالم .. مما يثبت أن الاشتراكية فقدت مصداقيتها أمام الرأسمالية ..

ولا يعني هذا إلا أن قناعة الأستاذ الدكتور "إبراهيم سعد الدين" قد رست على ضفاف مفهوم العالم الياباني الأمريكي "فوكوياما" فيلسوف عولمة رأس المال الذي قال قولته المشهورة .. الرأسمالية نهاية العالم ..

أسباب السقوط

ولكن كيف استطاعت الاشتراكية السوفيتية أن تحقق قطبية عالمية متعددة . أي قطبية اقتصادية حولت روسيا القيصرية من دولة متخلفة ترتيبها السابعة عشرة في قائمة الدول المتقدمة إلى دولة عظمى وقطبية صناعية في صناعات الحليب والكهرباء والحديد والصلب والصناعات العسكرية والذرة والفضاء .. وقطبية عسكرية استطاعت دحر وهزيمة ألمانيا النازية والهتلرية وساعدت الثورة الصينية وحرب كوريا ضد أمريكا وأتباعها ، وحرب فيتنام المجيدة ضد فرنسا ثم ضد أمريكا .. وقطبية في مجال العدل الاجتماعي تعليم مجاني للشعب السوفيتي وشعوب العالم الثالث . وقطبية في مساعدة حركات التحرر ودول العالم الثالث بالخبرات والمساعدات الفنية والصناعية والإنشائية والسلاح .. وقطبية إنشائية استطاعت إنشاء أول نفق للمترو في العالم ، بالإضافة إلى بناء السدود في

الاتحاد السوفيتي وفي مصر .. وقطبية سياسية استطاعت تحجيم العدوانية الأمريكية ..

هذه هي القطبية الاشتراكية العملاقة التي حققتها الاشتراكية رغم عيوبها وسلبياتها . ولكن لم يقل لنا الأستاذ الدكتور "إبراهيم سعد الدين" كيف نشأت ؟ وكيف سقطت القطبية ؟ فهذا السقوط لم يكن بسبب عيوب القوانين الاشتراكية والماركسية كما نوه أستاذنا الدكتور ولكن السقوط حدث بسبب أمور مختلفة وهي .. عيوب التطبيق الاشتراكي دون عيوب النظرية الاشتراكية .. وحداثة عمر وتجارب الاشتراكية بالنسبة للرأسمالية .. وتآمر أمريكا ورأس المال والصهيونية .. وعدم تعدد المراكز والأحزاب الاشتراكية وعدم تعدد النقابات العمالية والجمعيات التعاونية في الوطن .. الاشتراكي .. وتغليب المركزية على الديمقراطية في الحزب الاشتراكي والمجتمع الاشتراكي .. وتهميش العمال والفلاحين في قيادة الحزب الاشتراكي والسلطة الاشتراكية ..

وبشأن مستقبل اليسار بين المفهوم والمضمون فقد حررت مقالا في الأهرام في ١٦ ديسمبر ١٩٩٤ جاء فيه ..

إن حرب المفاهيم التي دارت بين د. وحيد عبد المجيد وأ. محمود أمين العالم بالأهرام حول مفهوم اليسار تدعوني إلى المشاركة فيها باعتباري واحد من عمال مصر البسطاء الذين اختاروا اليسار الاشتراكي طريقا لهم منذ الصبا المبكر جدا والكادح والفقير . فاليسار هو العدل الاجتماعي بخبزه وحريته وإنسانيته ، ولا أغالي إن قلت أن اليسار المفترى عليه موجود في حياة البشرية منذ بزوغ فجر ضميرها وإن حاجات البشر الحسية هي التي دفعته تلقائيا إلى المناداة الفطرية بالعدل الاجتماعي . إنني اختلف مع مقال د. وحيد عبد المجيد عن اليسار في أهرام ٧ أكتوبر ، لكن لا يسعني غير تحيته لأن مقاله بمثابة تحريض مطلوب ومحبوب من أجل تطوير مفهوم ومضمون جديد لليسار الاشتراكي الجديد يستطيع مواجهة العصر ..

وقد تحدث د. وحيد عن انهيار أهم مرجعية يسارية في الاتحاد السوفيتي لكن يجب الإشارة إلى أنه لم يهزم فيها غير الجانب البيروقراطي الشمولي السلطوي الذي كان محل اعتراض الاشتراكيين في أنحاء كثيرة ، وباستثناء سدنة هذه المرجعية من الذين طمعوا في ذهب المعز ..

أما أن الرأسمالية قد حققت قدرا من العدالة لم تحققها الاشتراكية فهذا كلام مردود عليه حيث ثبت أنه رغم ما شاب النظام الاشتراكي من مظاهر البيروقراطية السلطوية فقد حقق قدرا كبيرا من العدل الاجتماعي فالبطالة لم تكن موجودة تقريبا في النظم الاشتراكية بينما تتفشى البطالة الظاهرة والمستترة في الدول الرأسمالية . والسوق الاشتراكية تتميز بالانضباط وتحيد الأسعار بعكس السوق الرأسمالية . والأجور الاشتراكية تتفوق حتما على نصيب الملكية في الدخل القومي . فهل الديمقراطية الرأسمالية التي تعاني من البطالة استطاعت أن تحقق مضمونا اجتماعيا؟.

كما يطرح د. وحيد أن اليسار لا ينسجم مع الطبيعة البشرية وأن أحد عوامل نجاح الديمقراطية الرأسمالية هو المفهوم الواقعي للطبيعة البشرية بخلاف اشتراكية اليسار التي سعت لتغيير هذه الطبيعة بأساليب القمع والتبشير ..

إن تغيير وتبديل طبيعة البشر أمر تقره وقائع التاريخ وعلم الأجناس والعلوم الإنسانية حيث طبائع البشر والإنسانية تختلف من عصر لآخر ..

وبالمناسبة فإن الرأسمالية كانت وما زالت أكثر الطبقات وحشية في تبديل وتغيير طبيعة البشر حيث أشاعت العبودية بشكل ليس له مثيل من خلال خطف الأفارقة الأحرار وبيعهم واستعبادهم وتشغيل الأطفال في إنجلترا وحشدهم بالآلف في معسكرات عمل نائية لتغذية المصانع الرأسمالية بالأيدي الناعمة والرخيصة ..

هذه هي الرأسمالية التي توصف بأن لها قدرة غير مسبوقة في التاريخ على إنتاج ثروة هائلة ينعم بها أفراد المجتمع بدرجات متفاوتة مع العلم بأن هذه القدرة قد أثبت التاريخ أنها قدرة بغيضة إلى أبعد الحدود وأن أهوالها تفوق بكثير أهوال جنكيز خان وهولاكو عدو البشر ، وأن ثروتها الهائلة سرقتها ولم تنتجها على امتداد خمسمائة عام من عمرها في حين أن الاشتراكية قد أنتجت فعلا ثروة هائلة ذات ظلال وارفة على كثير من شعوب الأرض ..

ومن هنا بادر أ. محمود العالم فكتب في أهرام ١٧ أكتوبر ١٩٩٤ دفاعا عن اليسار الاشتراكي ، ولكن هذا الدفاع لم يشف الغليل لطابعه الأكاديمي ، أن يصارح الرأي العام وأجيال الشباب بحقيقة الكارثة التي حاقت باليسار الماركسي والاشتراكي ..

لقد سقط فقط اليسار الذي تخلى عن عماليته تماما وعـن ديمقراطيتـه العمالية والاشتراكية حيث استعاض عـن العمالـة بالسلطوية وعـن الديمقراطية الاشتراكية بالشمولية والمركزية المطلقة وحيث قضـى علـى المبدأ القائل بأن الاشتراكية من صنع الجماهير لقد انفرد بعض المثقفيـن اليساريين بالحزب الشيوعي والسلطة الاشتراكية السـوفيتية دون الطبقـة العاملة ، ومن هنا طفت ظاهرة اليسار البيروقراطي السلطوي المعتمد على الحركات العمالية والنقابات العمالية السلطوية الموظفة في خدمة السـلطان الاشتراكي وجعله أشـبه بالقطـاع العـام الـذي تحكمـه إدارة مركزيـة بيروقراطية شمولية ..

هذه بعض ملامح النموذج المشوه لليسار البيروقراطي السلطوي الـذي تم تصديره إلى الدول والأحزاب الاشتراكية ..

هكذا يرى أسـاتذتنا المثقفـون واليسـاريون عمومـا أن الماركسـية والاشتراكية العلمية قد شاخت وتساقطت أوراقها بحكـم خريـف الزمـن والحياة في حين يقول الكاتب السوري "نقولا الزهر" .. مـن الملاحـظ أن أكثر النقد الذي يتناول العولمة يستحضر ماركس تلميحا أو تصريحا إلـى حلبة المناقشة والتحليل وقد كان بارزا إلى حد كبير لدى بعـض الأوسـاط الكاثوليكية في أسبانيا ، ففي النصف الأول من عام ١٩٩٨ دعـت مجلـة "أكسودو" التي تصدرها في مدريد جماعة مـن رجـال الديـن الكـاثوليك والأشخاص المدنيين ذوي الميول اليسارية المرتبطيـن بمركـز (الإنجيـل والتحرير) الذي ينشط في العاصمة الأسبانية والذي ينشط فيه أيضا لاهوت التحرير وجمعيات لاهوتي "يوحنا الثالث والعشرين" وفريقا مـن المثقفيـن لمناقشة سؤال قد طرحه محرروها على أنفسهم وعلى القراء هو التـالي .. ماذا بقي اليوم من الماركسية ؟ ..

فيقول في هذا الإطار الفيلسوف الأسـباني "مـانويل باليسـتروس" .. بفضل المستوى النظري لأبحاث "كارل ماركس" وتحليله الجدلي للظواهـر الاقتصادية نستطيع صياغة استراتيجية واقعية للخروج من الأزمة الحاليـة .. ويقول الكاهن الإيطالي "جيوليو جيراردي" المولود فـي القـاهرة .. أن انهيار الشيوعية الأوربية وإقامة نظام عالمي جديد قد أدى إلى ترك مسألة البؤس مفتوحة بشكل درامي . وإلى تهميش قسم كبير من البشرية التـي تسكن كوكبنا وأن هذه المشكلة تزيد حدة في كل يوم وكل ليلة ، ثم يؤكـد

هذا اللاهوتي أنه لابد من إحداث انعطاف بين المسيحيين والماركسية .. ويقول أيضا .. أن الجانب الأكثر فتكا في الليبرالية الجديدة أي الرأسمالية الاستعمارية المتوحشة والنظام العالمي الجديد القدرة على اقتلاع جذور الإيمان المعقود حتى الآن على الفقراء ..

ويقول الفيلسوف الأسباني "كارلوس باريس" بشأن المستقبل .. الاشتراكية أو الهمجية ..

ولذلك فاليسار المصري الجديد الذي عرض نفسه وأعلن وجوده على صفحات مجلة اليسار الجديد لم يعد يسارا طبقيا ولا اشتراكيا ولكنه أصبح يسارا سياسيا ومظهريا يرفض الصراع الطبقي رفضا باتا ولكنه يتدثر بغلالة اشتراكية رقيقة من خيوط العنكبوت ليحمي وجوده الحزبي والسياسي في قلب القوى الوطنية وفي صفوف الجماهير باعتباره مجرد مجعرة كلامية مرجعيتها الأصولية تبدو في فلسفة مشي حالك النفعية والبرجماتية مما مكن اليسار الجديد من محاورة السلطان وأزلام السلطان من كبار المالكين والحاكمين لكي يحظى بفتات ألفتات من المائدة السلطوية تتمثل في عدد ضئيل من مقاعد المجالس النيابية ومساحة من الزمن الرديء أمام شاشات التليفزيون المصري الكريه في الشكل والموضوع . ولهذا فاليسار المصري الجديد شبه باليسار الهيجلي . يسار ألمانيا الفتاة المؤمن بفلسفة التأمل دون فلسفة الفعل والمستقبل غير مدرج في فكره ونشاطه وهدفه تحقيق دولة عقلانية فقط ..

وبسبب تلك الوضعية غير المنطقية لليسار المصري الجديد فلم يشارك بجدية وحماس في نضالات فصائل اليسار الطبقي والاشتراكي ضد النظام المصري وضد أمريكا وإسرائيل لدعم انتفاضة الشعب الفلسطيني ومساندة الشعب العراقي ..

وبشأن الموقف المعارض لليسار الجديد باعتباره فصيلا أو حزبا معارضا فإنه لا شأن له بالنظام الحاكم وما يتهم به من فساد واستبداد وتوريث للسلطة لنشوء عائلة جمهورية حاكمة .. ولكنه يعارض الحكومة بمنهج ضرب الغزية أي الراقصة لحمارها .. وفي هذا المقام ينبغي أن نلتمس العذر لأحبائنا من شخصيات اليسار الجديد في ممارسة المشي للخلف دون الأمام من جراء تغيير وجودهم الاجتماعي ومكانتهم الاجتماعية مما أدى إلى تغيير وعيهم الاجتماعي حيال الاشتراكية

والطبقات الكادحة من عمال وفلاحين وفقراء وبالتالي فقد تعمدوا نسيان قوانين الاشتراكية العلمية التي كانوا يحفظونها عن ظهر قلب كمبرر لتقاعدهم عن الممارسة النضالية الصعبة لقناعتهم بأن نهاية التاريخ قد تقف محليا ومصريا عند الدولة العقلانية دولة الثالوث المقدس دولة مبارك الأب وجمال الابن ... والروح القدس ..

وفي نفس الوقت الذي تراجع فيه بعض اليساريين المصريين تثور البشرية الكادحة فوق كوكبنا الأرضي وتنفجر ثوريتها الكامنة ببعث يساري طبقي اشتراكي جديد يضم ملايين الملايين من الأجراء والكادحين والمثقفين الثوريين الذين انتفضوا ضد العولمة الأمريكية ومؤسساتها وضد أزلامها من الدول الغنية في مدينة سياتل الأمريكية وفي غيرها من المدن الأوربية .. ذلك اليسار الطبقي في أوربا وأمريكا وآسيا واستراليا الذي ثار أيضا ضد حرب الإبادة العدوانية والاستعمارية التي تشنها أمريكا وإسرائيل الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني والشعب العراقي ..

أليس ذلك بكاف لكي نقول لأساتذتنا أهل اليسار الجديد بدون استحياء عيب . عيب . عيب . فإن التاريخ المصري على الأقل لم ولن يتوقف أمام ظاهرة الثالوث الجديدة في مصر المعاصرة الأب والابن والروح القدس التي تحكم مصر المعاصرة ..

نظرية السقوف المنخفضة
هي البديل السوقي للاشتراكية

إن الأستاذ الدكتور "رفعت السعيد" أستاذ فلسفة التاريخ بالجامعة الأمريكية والأمين العام لحزبنا حزب التجمع والرئيس المنتظر لنفس الحزب بدأ حياته السياسية مناضلا شيوعيا صلبا تعرض للسجن الطويل والتعذيب الشديد في سجن مصر وسجن القناطر وسجن المحاريق بالواحات وسجن القلعة ثم أصبح مفكرا شيوعيا وكاتبا شيوعيا ومؤرخا شيوعيا استطاع أن يؤرخ الحركة الشيوعية المصرية باقتدار ..

وفوق هذا فقد كان الدكتور "رفعت السعيد" سفير السفراء وسفيرا فوق العادة للحركة الشيوعية المصرية لدى دولة الاشتراكية السوفيتية وحزبها

الشيوعي ولدى كافة الدول الاشتراكية وأحزابها ولدى الأحزاب الاشتراكية والعمالية والشيوعية في الدول العربية والعالم ..

وفي كتاباته قدم لنا كنوز الفكر الاشتراكي وأفكار العدل الاجتماعي في التاريخ المصري الحديث ..

وفجأة بادر الرجل بشن حرب المفاهيم على الجماعات الإسلامية التي يسميها الجماعات المتأسلمة حتى عرض حياته للخطر فحرسته الحكومة بشرطي مسلح يلازمه ليل نهار .. وخلال حرب المفاهيم هذه صدر قرار جمهوري بتعيينه عضوا بمجلس الشورى .. وفور تعيينه هذا ناداني في مكتبه وأخبرني أن الأنبا شنودة هو الذي طالب بتعيينه في ذلك المجلس النيابي ..

وخلال عضويته النيابية ارتبط بصداقات حميمة بشخصيات طبقة رأس المال الكبير والطفيلية التي اصطنعها النظام الحاكم بطريقة سلطوية وليست مجتمعية ، ولهذا فقد أصبح الدكتور "رفعت السعيد" واحدا من أعيان مصر المعاصرة له احترامه وتقديره لدى السلطة ورأس المال حيث تستضيفه شاشات التليفزيون باعتباره نجم يساري ونجم في دنيا الأعيان المصريين ..

خلال هذه الوضعية الاجتماعية الجديدة للدكتور رفعت السعيد فاجأ اليسار الاشتراكي المصري والعربي بكتابه المعنون بعنوان "كلام في السياسة" الذي طبعته ووزعته مكتبة الأسرة التي تشرف عليها سيدة مصر الأولى سوزان مبارك .. وقد حملت لنا سطور هذا الكتاب نظرية طبقية سياسية جديدة سماها الدكتور رفعت السعيد بنظرية السقوف المنخفضة .. وبفضل نفوذه الحزبي أصدر مجلة اليسار الجديد لخدمة هذه النظرية وتأكيدها .. وفي عددها الأول كتب موضوعا عن الصين عرج فيه على الاشتراكية الماركسية لإثبات عدم صحتها اليوم وذلك باعتبارها مسألة من مسائل تأكيد نظريته .. نظرية السقوف المنخفضة .. وسبحان مغير الأحوال ..

وبما لدي من يقين بمسألة العدل الاجتماعي ومسألة الاشتراكية كحلم وعلم فقد كتبت ونشرت كتابا معنونا بعنوان .. أيها النمل أدخلوا مساكنكم .. حاورت بسطوره مفاهيم نظرية السقوف المنخفضة وقد تم طبع ذلك الكتاب مرتين .. ونظرا لأن نظرية السقوف المنخفضة قد تم ترجمتها إلى

أفعال في حياتنا الحزبية بحزب التجمع اليساري فقد اضطـــررت كواجـــب اجتماعي ومسئولية أخلاقية تجاه العمال والفلاحين والأجراء والفقراء فـــي مصر المحروسة إلى إصدار كتابي هذا لكـــي يواجـــه مســألة الســقوف المنخفضة كنظرية وممارسة في حزبنا حزب التجمع اليساري ..

وتبدأ نظرية السقوف المنخفضة بضرورة معرفة الواقع وكأن الواقع قد تجمد بداخله الزمان كل الزمان والمكان كل المكان بمعنى الزمن المــاضي والزمن الحاضر دون المستقبل وبمعنى مكان وأي مكان .. والواقع الــذي عرضه علينا الدكتور رفعت هو جزء من سيرته الشخصية والنضالية فـــي فترة الصبا المبكر عندما كان يحبو في النضال السياسي بمدينة المنصــورة وذلك بقصد تقديس الواقع والخضوع المطلق لظروف هذا الواقع ومتطلباته دون التفكير في تغييره . هذا التغيير الذي يؤدي إلـــى محظــور توظيــف فلسفة العقل المرفوضة ضمنا في نظرية السقوف المنخفضة . هذه الفلسفة التي تؤدي إلى محظور آخر هو تحقيق المســتقبل المشــطوب فـــي هــذه النظرية أيضا . وهذه فلسفة الحق لدى هيجل مما يثبت أن الدكتور رفعت قد انتقل من صفوف اليسار الاشتراكي إلى صفوف اليسار الهيجلي ولـــهذا يدعونا مشكورا إلى ضرورة معرفة الواقع حتى نقدسه ونؤلهه مـــن دون الله .. والعياذ بالله . ثم يعرض لنا الدكتور بضاعته الجديدة متجليـــة فـــي نظرية السقوف المنخفضة الذي يستهلها بمقدمة جنائزية تقول ..

.. نبكي .. وأحيانا نتباكى على الأسقف التي تنخفض . فتفرض علينـــا أحيانا الانحناء بشعاراتنا .. أو نتحاشاها سعيا وراء توافق مع الواقع قـــد يعتبره البعض تخليا .. بينما يتمسك البعض بواقعيته .. ولكـــن وعلـــى أي ضفة نقف نكتشف . أو بالدقة يفرض علينا أن نكتشف أن الدنيا تتغـــير . وأن من لا يغير الزي القديم . قد يفرض عليه أن يغير جلـــده أو حتـــى أن ينقرض ..

والحقيقة أن عملية التلازم مع الجديد أي جديد كانت دوما مشكلة تعـــثر فيها السياسيون . البعض تجاوزها بعد عثار . والبعض توقف . تجمـــد . تحايل . والبعض اعترف بضرورة الجديد . وبحتمية الجديد . لكنـــه ظـــل يعبئ ذات الشراب القديم في آنية جديدة .. والبعض انتهز فرصـــة القـــول الجديد فأقام حفل سياسي ربما حظي بتصفيق الخصوم التاريخيين لكنـــه إذا

فقد عذريته المبدئية أصبح مبتذلا يتنصل مما كان وكأنه يستحم من رجس..

ثم يقول ووسط هذا المهرجان التغييري يتمايز موقف .. ربما كان الصواب أن نتمسك بالمبدأ والثوابت .. منتميا في ذات الوقت إلى الواقع ملتحفا به . وملتزما بالتجاوب معه .. فهل هذا صعب أعتقد .. لا .. بل واعتقد أنه لا من مخرج سواه ..

هكذا طلق الدكتور رفعت السعيد حتمية الحل الاشتراكي طلاقا بائنا لكي يتزوج بحتمية الواقع الجديد ثم يعود فيقول بتعدد الزوجات من خلال التمسك بالمبدأ القديم والثوابت القديمة .. منتميا في ذات الوقت إلى الواقع ملتحفا به وملتزما بالتجاوب معه .. وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .. وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة .. صدق الله العظيم ..

ويحاول الدكتور تذكيرنا بأن المعسكر الاشتراكي ذهب مع الريح ولم يعد في واقعنا الكوكبي غير قطب واحد .. ولم يعد هذا العالم عالمنا الذي كنا نعيش فيه .. إنه عالم آخر إما أن نعيشه لنسعى من جديد لإعادة صياغة معطياته .. أو نعتزله فنعيش في عزلة نتعرض فيها للانقراض كما انقرضت كائنات عديدة ..

إن هذه النظرية تحاول أن تفرض علينا تلازما تعسفيا إكراهيا مع الواقع الجديد بواسطة التهديد بالعزلة والانقراض وهذا هو التخويف بعينه والإرهاب بعينه لكي يقبل الناس التعايش في سلام مع العولمة الأمريكية والصهيونية وكذلك التعايش في سلام ووئام مع النظام المصري الحاكم وعسكرته ووحدانيته السياسية والسلطوية وتبعيته للعولمة الأمريكية ..

وبعد هذا التهديد يبادر الدكتور رفعت السعيد بزلزلة يقين الاشتراكيين بشأن اشتراكيتهم العلمية من خلال جعل الاشتراكية والدين صنوان وذلك على غير الحقيقة حيث يوجه إليهم السؤال التالي ..

ثمة سؤال ألي سخيف ويبدو تافها لكنه من فرط سخافته يتحول إلى لغز كبير . السؤال هو .. ما هي الماركسية ؟.

تحديدا كيف نمسك بها . في الأديان نعرف الحدود .. الإسلام تعاليمه ومحتواه في القرآن والسنة . والمسيحية تعاليمها متضمنة في الأناجيل الأربعة ورؤية يوحنا وقرارات مجمع نيقية .. ولكن ماذا عن نظرية علمية

وعلمانية كيف نحدد حدودها .. وكم من المخطوطات عن وضعناها جنبـــا إلى جنب قلنا هنا الماركسية ..

هذا السؤال السخيف باعتراف د. رفعت السعيد .. قد طرحـــه الدكتـــور بعد عشرات السنين عاشها منظرا ومفكرا ومؤرخا وزعيما ماركسيا .. يـــا سبحان الله ..

ومع هذا فالرد على الدكتور واجب الواجبات .. حيث يعرف الجميـــع أن الماركسية باعتبارها فلسفة الطبقة العاملة وأيضا الاشتراكية العلمية مجـرد نظرية بشرية اجتماعية قابلة للخطأ والصواب والحذف والإضافة وليســـت دينا موحى به على رسول من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين . وليســت دينا أيضا له كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تـــنزيل من عزيز حكيم مما جعل نصوصه مقدسة تماما ..

الأمر الثاني يبدو في أن الاشتراكية العلمية .. الماركسية تحظى بأصول مرجعية تتجلى في تراث العدل الاجتماعي في الأديان السماوية والوضعيـــة وفي ممارسات المصلحين ورجال الإصلاح الاجتمـــاعي وفـــي مضـــامين ثورات العبيد والأقنان والفلاحين والعمال وفي تراث الاشتراكية الفرنســـية والفلسفة الألمانية والاقتصاد الإنجليزي وفي أعمال ماركس وإنجلز ولينيـن وستالين وماوتسي تونج وغيرهم وغيرهم .. وقبل هؤلاء وهؤلاء تتجلـــى هذه المرجعية في تراث المسيحيين الاشتراكيين الأوائل وأقـــوال المســـيح عليه السلام .. وفي آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية وفي الظــــاهرة العمرية الأولى وممارسات الإمام علي بن أبي طالب والصحابي الجليل أبـــي ذر الغفاري كما سبق ذكره في بحثي هذا .. تلك هي ضفـــاف الاشـــتراكية العلمية الضفاف الخضراء التي نبتت عليها تعـــاليم الاشـــتراكية العلميـــة ومحتواها ..

أما الإسلام الحنيف فليس له ضفاف حيث يقول ربنا ســـبحانه وتعـــالى "ولو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولـــو جئنا بمثله مددا" صدق الله العظيم ..

ولعل الدكتور يكون قد تصفح كتاب الملل والنحل للشهرســـتاني التـــي يزيد عددها على سبعين ملة ونحلة إسلامية لكل منها أصولها المرجعية ..

كما أن فرق المذاهب الفقهية عند أهل السنة وعند الشيعة لدى كل منها مرجعيتها الأصولية التي انبثقت منها تعاليم كل مذهب فقهي ومحتواه في فقه العبادات وفقه المعاملات ..

وفضلا عن هذا فإن تعاليم الإسلام الحنيف ومحتواه لم تنبثق من القرآن والسنة فقط حيث يحدثنا مجاهد تلميذ عبد الله بن عباس وأول مفسر للقرآن الكريم عن مصادر تفسير القرآن فيحددها في المصادر التالية ..

١. القرآن الكريم وقراءاته .
٢. السنة النبوية .
٣. قرة الاستنباط والاجتهاد فيما لا نص فيه من قرآن وسنة ويندرج تحت ذلك الرجوع إلى عادات العرب وشعرهم الجاهلي وإلى أحوال أهل الكتاب.
٤. أهل الكتاب من اليهود والنصارى .
٥. ويقال أيضا العقل .

وبشأن مرجعية أهل الكتاب من النصارى واليهود في تفسير القرآن الكريم فقد ورد في سفر مجاهد التفسير والمفسر للدكتور أحمد محمد نوفل أن بن عباس وعبد الله بن عمر كانا لهما صلات بأهل الكتاب .. وقال أحمد أمين اتصل بعض الصحابة بكثير من مسلمة اليهود والنصارى والمجوس ..

وفي تفسير الطبري عن كريب قال .. دعاني بن عباس فقال .. اكتب باسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن عباس إلى فلان حبر تيماء .. سلام عليك فإني أحمد إليك الله ثم سأله عن "فمستقر ومستودع" وبعد أن حيا كتاب بن عباس وطرح أسفاطا لا يلتفت إليها حتى وصل إلى سفر موسى قال ..

المستقر الرحم ثم قرأ "ونقر في الأرحام ما نشاء" .. "ولكم في الأرض مستقر" ثم قال .. مستقره فوق الأرض ومستقره في الرحم ومستقره تحت الأرض حتى يصير إلى الجنة أو إلى النار ..

وفي الدر المنثور قال السيوطي .. أخرج سعيد بن منصور . وابن المنذر وابن أبي حاتم عن كريب قال .. أرسلني عبد الله بن عباس إلى رجل من أهل الكتاب أسأله عن هذه الآية "وجنة عرضها السماوات والأرض" فأخرج أسفار موسى فجعل ينظر .. قال .. سبع سموات وسبع

أرضين . تلفق كما تلفق الثياب بعضها إلى بعض هـــذا عرضـــها . وأمـــا طولها فلا يقدر قدره إلا الله .. وبعد كل ما طرحته أقول لصاحب الســقوف المنخفضة .. إن علمت شيئا فقد غابت عنك أشياء ..

وإذا رجعنا إلى الأمور المرجعية للمسيحية فسوف نجدها مرجعيــة دون ضفاف أيضا حيث لم تقتصر على الأناجيل ورؤيا يوحنا بل نراهـــا ممتــدة إلى أصول الثقافة الرومانية والفكر اليونــــاني والتـــوراة .. فضـــلا عــن المناقشات اللاهوتية بشأن الطبيعة الواحدة أو الطبيعيـــة للمســـيح عليـــه السلام .. هذه المناقشات التــي أدت إلـــى اجتـــهادات تمـــوج بالخلافـــات والاتهامات المذهبية مما أدى إلى انقسام الكنـــائس المســـيحية .. وحتـــى اليهودية فلم تقتصر مرجعيتها على التوراة والتلمود وكتابـــات الفيلســـوف اليهودي بن ميمون نجيد اليهود في القاهرة فقط بل وجدت مرجعيتها فـــي الأدبيات الفرعونية .. في كتاب متون الأهرام وكتاب الموتى بالإضافة إلـــى الثقافات الآشورية والفارســـية والهنديـــة المجـــاورة .. وقـــد أدت هـــذه المرجعيات المختلفة إلى انقسام اليهود إلى فرق مذهبية مثـــل الموســـوية والهارونية ومثل الربانيين والقرائين ..

هكذا قدمنا ما يفيد بأن الاشتراكية العلمية ذات مرجعية محـــدودة وذات ضفاف في حين أن الأديان وخاصة الدين الإسلامي والدين المسيحي ليـــس لها ضفاف تحددها على الأرض لأن كلا منهما دين للعالمين عموما ..

ونظرا لأن نظرية السقوف المنخفضة تشبه حشرة أبي النطيط لا تمشي على الأرض ولا تزحف على الأرض ولكنها تقفز من مكان إلـــى مكـــان .. وهذا ما فعلته بنا هذه النظرية التي قفزت من مسألة الديـــن والاشـــتراكية إلى مسألة أن هذه الاشتراكية أصبحت دواء فقد صلاحيته فكيـــف تتنـــاول المجتمعات دواء مثله قد تجاوز زمانه ومكانه ..

وأقول الحمد لله أن نظرية السقوف المنخفضة اعترفت بأن الاشـــتراكية العلمية دواء حتى ولو فقد صلاحيته ومن ثم فـــإن مـــن الممكـــن إعـــادة تصنيعه طالما هو دواء للمجتمعات البشرية وطالما هو صناعة بشرية مـــن الضروري أن يتعاطاه البشر لتشفى مجتمعاتهم المريضـــة بوبـــاء القـــهر والفقر ..

ولم يكد تفكيرنا يأخذ أنفاسه بعد مسألة الدواء الذي فقد صلاحيته فـــإذا بقفزة جديدة تؤدي بنا إلى مواجهة مسألة الديمقراطية المستحيلة في ظـــل

الاشتراكية حيث وضعتنا نظرية السقوف أمام مرجيحة عبثيـة لابـد مـن ركوبها كأطفال وقد ارتضينا هذا الركوب العبثـي لكـي نرضـي نظريـة السقوف المنخفضة حيث دفعتنا المرجيحـة إلـى بـر دولـة اشـتراكية ديمقراطية مؤمنة بالتعدد الحزبي والنقابي وممارسـة الحريـات العامـة وتبادل السلطة ولكنها حققت تطبيقا اشتراكيا بتأميم الصناعـة والتجـارة والزراعة والحريات ثم جاءت الانتخابـات فتغيـرت السـلطة الاشـتراكية بسلطة أخرى رأسمالية بادرت بتغيير المجتمـع وإعادتـه إلـى مجتمـع رأسمالي وانتظر الناس حتى جاءت الانتخابات التالية التي أطاحت بالسلطة الرأسمالية وحل محلها السلطة الاشتراكية مرة ثانية فبادرت هي أيضا إلـى عودة الاشتراكية في الحياة والمجتمع ..

هكذا فرضت نظرية السقوف المنخفضة هـذه الأورجيحـة المجتمعيـة والعبثية والشاذة لكي تقنع الناس بأن الديمقراطية مسألة مستحيلة في ظـل نظام اشتراكي .. مع العلم أن عملية تبادل السلطة بطريقة ديمقراطية أمـر معقول .. ولذلك فإن تبادل المجتمعات الاشتراكية بالمجتمعات الرأسـمالية ممكنة ولكن في عالم اللامعقول .. وفضلا عن هذا فإن الجماهير الكادحـة والمنتجة الأكثر عددا والأشد فقرا لا يمكن أن تفرط أبدا أبـدا فـي نظـام اشتراكي ديمقراطي يتوافر في رحابه الخبز والزبد والعمل والحرية ..

كما أن ما عرضته نظرية السقوف هـذه متضمنـا اسـتحالة ملازمـة الديمقراطية للاشتراكية في السلطة يعني انحيازا لسلطة رأس المـال فـي مصر وخارج مصر مما يعني أنها تحاول إقناع النـاس بـأن الرأسـمالية والديمقراطية صنوان بينما الاشتراكية والديمقراطية ضدان وهذا أخطر مـا تضمنته نظرية السقوف المنخفضة على استحياء ملحوظ ..

وقد اعتمدت نظرية السقوف فيما طرحته بشأن مسألة الديمقراطية على الحملة الشعواء على مبدأ دكتاتورية العمال دون المساس بدكتاتوريـة رأس المال التي وصلت إلى درجة النازية والفاشية والبوستية الأمريكية التي قـد تجاوزت النازية والفاشية حيث استباحت إبـادة البشـر بأسـلحة الدمـار الشامل..

والجدير بالذكر ان دكتاتورية الطبقة العاملة هـي فـي الوقـت نفسـه ديمقراطية الطبقة العاملة . هذه الطبقة الديمقراطية بالغريزة خلال العمليـة الإنتاجية وخلال ممارسة عضويتها في النقابات العمالية التي هي مدرستها

الأولى .. ولو ان دكتاتورية الطبقة العاملة ظلت في قبضتها لانتشرت الديمقراطية العمالية في الاتحاد السوفيتي ودول المعسكر الاشتراكي ..

ومن ثم أصبح مستحيلا ممارسة أي اعتداء أو اغتيال ضد الاشتراكية المحروسة بدكتاتورية الطبقة العاملة المضادة لدكتاتورية رأس المال والمحروسة أيضا بديمقراطية الطبقة العاملة المجيدة ..

ونختتم نظرية السقوف المنخفضة بتقديم المقولات الفلسفية التالية ..

- التناقض هو اختلاف القطبيتين بالإيجاب والسلب بحيث يقتضي صدق أحدهما كذب الآخر كقولنا زيد لإنسان .. وزيد غير إنسان ..

الجرجاني

- الأشياء متناقضة في ذاتها .

هيجل

- يقول هيجل أن فحص أي شيء يبين أنه في تطابقه مع ذاته مباين لذاته . وفي تناقض مع ذاته . وأنه في تباينه وفي تناقضه متطابق مع ذاته . ومعنى ذلك أن الشيء هو ذاته ونفي ذاته ونفي نفيه .

د. مراد وهبه

- التناقض علاقة داخلية بين ما للشيء أو العملية من نزعات وجدانية يتداخل أحدها مع الآخر . وينفيه في الوقت ذاته ويأتي التناقض في صورة وحدة وصراع الأضداد .. وليس ثمة شيء غير متناقض داخليا ويعود هذا إلى أن الأشياء كلها تتغير وتتطور باستمرار فتظهر فيها جوانب جديدة فتصير رغم محافظتها على وحدتها منطوية على نزعات متناقضة داخليا .. والتناقض مصدر كل حركة وكل تطور .

المعجم الفلسفي - دار التقدم - موسكو

وأضيف إلى تلك المقولات مقولات فلسفية أخرى توضح لنا ما هو التناقض وهي ..

- وفي المجتمع أيضا توجد قوى متضادة .. قوى طليعية ثورية من جهة . وأخرى متخلفة ومحافظة من الجهة الأخرى .. والأضداد ليست معزولة بعضها عن بعض .. بل هي بالعكس موجودة في ظواهرها نفسها . وتبرز في وحدة واحدة . ولا تستطيع أن تعيش بدون بعضها البعض .

العلم والناس والمجتمع - لعدد من العلماء السوفييت

- ويشير هيجل بأن التناقض هو جذر كل حركة . وكل مظــهر حيــاتي . فالشيء لا يكون قادرا على الحركة والفاعلية وإظهار الميول والدوافــع إلا بمقدار ما يحتوي على تناقض . ويضيف أن التناقض هو مبدأ كـــل حركة عفوية . وهذه الحركة ليست شيئا آخر سوى مظهر التناقض .

النظرية المادية في المعرفة - روجيه جارودي

- إن قانون التناقض في الأشياء أي قانون وحدة الضدين هــو القــانون الأساسي في الديالكتيك المادي أي في نظرية وحدة الأضداد

ماوتسي تونج

ونتوج هذه المقولات الفلسفية بشأن التناقض بثلاث آيات قرآنية كريمــة كصورة لما يحدث في الطبيعة تؤكد مســألة التنــاقض ووحــدة أضــداده وصراع أضداده على مستوى العائلة الواحدة والفــرد والمجتمــع وهــذه الآيات البينات هي ..

- المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. سورة الكهف
- إنما أموالكم وأولادكم فتنة .. سورة التغابن
- يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكــم فــاحذروهم .. سورة التغابن

إن هذه المقولات الفلسفية .. والآيات القرآنية .. قالت بوجود التنــاقض في المجتمع . وفي الطبيعة . ولم تضف إليه صفة التداخل أو التخــارج لأن محله المختار والطبيعي داخل الظاهرة البشرية والطبيعة .. أما ما يســمى بالتناقض المتداخل فإنه بدعة ابتدعتها نظرية السقوف المنخفضة بذريعــة أن التداخل أمر طبيعي ينتج عن تفاعل الأضداد معا .. علما بــأن مســرح التفاعل موجود بداخل الفرد والمجتمع أو بداخل الطبيعة . فمن أين يــأتي ذلك التداخل المزعوم . وهل يمكن استيراده من خارج المجتمــع والفــرد والطبيعة ؟..

وتنفي نظرية السقوف أن التداخل هو استسلام رغم أنه هو الاستســلام بعينه مهما كان متسترا ببدعة فلسفية .. بدعة تزعم أن المصريــين هــم أساتذة التناقض المتداخل حيث استوعبوا الغــزاة كــل الغــزاة وتمثلتــهم وهضمتهم الأمعاء المصرية حتى تمكنت مصر من تأكيد مصريتــها عــبر عمليات تناقض متداخل مستمرة ..

وللأسف فإن هذا لم يحدث .. وبالتالي فإن بدعة التناقض المتداخل ووجودها مجرد وهم لا شأن له بالحقيقة التاريخية ..

والدليل على ذلك أن الغزاة استطاعوا تهميش المصريين في الحياة والمجتمع وحرموهم حرمانا مطلقا من العمل الحربي والعسكري والقتالي وحبسوهم حبسا مطلقا في مجال الزرع والضرع والحرفة والصنعة مما جعل المصريين عاجزين عن تفعيل التناقض بينهم وبين الغزاة إلى حد أن الغزاة الذين حكموا مصر بشكل متتال بواسطة حروب دموية لم يشارك فيها المصريون الذين كانوا يعيشون في غربة سحيقة على ضفاف النيل الخالد لأنهم استسلموا للغزاة وحتى عندما قاوموهم بفعل التناقض قتلوا أنفسهم بأنفسهم كما حدث في العصر القبطي ..

ولقد أدى ذلك إلى أن المصريين قد غيروا دينهم مرتين ولغتهم مرتين وبالتالي فلم تؤكد مصر مصريتها إلا في الشهور القبطية التي يعيها الفلاح المصري جيدا لارتباطها بشئون الزرع والضرع وكذلك في احتفالات عيد شم النسيم ..

هكذا شدتنا نظرية السقوف المنخفضة إلى الماضي بقصد إقناعنا بصحتها من خلال إثبات قدرة الشعب المصري على هضم الغزاة فمن باب أولى أن يستوعب ويهضم سلطة رأس المال في مصر المعاصرة .. علما بأن هذه السلطة سلطة الرئيس مبارك ذات الطبيعة العسكرية والاستبدادية قد استوعبت شعبنا العظيم وقواه الوطنية والسياسية فأكلته وهضمته وحولته للأسف إلى خراء كما قلت في كتابي "أيها النمل أدخلوا مساكنكم" وذلك لأنه خفض سقوفه أي مطالبه وأهدافه حتى لامست الأرض مما جعل سلطة رأس المال سلطة الرئيس مبارك في منأى من أي نقد بالكلام أو بالفعل وأي احتجاج بالكلام أو بالفعل بفضل بدعة التناقض المتداخل التي كفرت كفرا مبينا بالصراع الطبقي واحتجاجاته بواسطة الفعل وبواسطة المفهوم.حيث انحصر صراع الشعب المصري ضد الطغاة الرأسماليين الحاكمين والمالكين في حدود التأفف والغضب المكتوم والتوسلات والتضرعات وصب اللعنات على الحكومة ووزرائها ومحافظيها وحكامها دون المساس برأس النظام الرأسمالي في مصر ..

ومن منطلق الواقع المصري من جهة .. ومن منطلق أن المصريين هم أساتذة التناقض المتداخل من جهة أخرى . كان لابد من إحياء ذلك

التناقض المتداخل (الذي كان سببا في جعل الفل مصري الجنسية) بواسطة نظرية السقوف المنخفضة وذلك حتى يتخلى حزبنا اليساري وشعبنا المصري عن مشقة الصراع الطبقي وتضحياته ..

وأن إحياء نظرية السقوف المنخفضة تعني شيئين هما ضرورة الركوع والسجود لسلطة رأس المال .. وخلع أنياب ومخالب الذئب أي التناقض باعتباره جذر الثورات والانتفاضات الشعبية ضد الطغاة .. وهذا يعني تجريد الذئب من وحشيته فيصبح ذئبا أليفا ومستأنسا يسمى باسم التناقض المتداخل..

ولذلك تدعو نظرية السقوف المنخفضة زملائنا نواب حزب التجمع وأعضائه في المجالس المحلية والنقابات إلى التداخل في قلعة الطرف الآخر أي سلطة رأس المال وحزبها ونوابها وأزلامها لأن ذلك سوف يؤدي إلى تعاظم مكانة حزب التجمع حزب اليسار المصري وتعاظم قدرته على التأثير لأنه ليس من المستهدف انتزاع هؤلاء السادة الحكام الرأسماليين الذين لا يشكلون سبيكة واحدة من قلعتهم السلطوية .. ولكن التداخل سيخلق مناخا مواتيا لنا لمزيد من الفعل ومزيد من التأثير وسوف يمنحنا القدرة على طرح أفكارنا ومواقفنا بصورة أفضل واجتذاب مناصرين لها ولنا .. حتى في قلعة الخصم ..

ذلك هو جوهر التناقض المتداخل والمتخاذل معا الذي يسوقنا إليه الذوبان في جسم الخصم الرأسمالي والسلطوي وكسب الأنصار له واقناعه بأن الخصخصة وبيع القطاع العام كارثة وطنية وأن الارتباط بأمريكا مصيبة وأن تعويم الجنيه المصري العتيد شر مستطير وأن تزوير الانتخابات تجعل مصر المعاصرة بغير شرعية .. فهل من الممكن ترويج هذه الآراء وتلك الأفكار في قلعة الخصم وأهلها ..

ولو أن نوابنا اليساريين قد فعلوا ذلك . ماذا يصيبهم من الشعب المصري الذي يحترم مواقفهم وممارساتهم البرلمانية ؟..

إن الجواب على ذلك يقول .. أن النظام الرأسمالي الحاكم سوف يبارك نوابنا اليساريين .. وأن شعبنا المصري سوف يلعنهم إلى ما شاء الله ..

ولم تكتف نظرية السقوف المنخفضة بدعوة نوابنا اليساريين وأعضاء حزبنا في المحليات والنقابات والجمعيات إلى الذوبان في الخصم الطبقي

والعدو السياسي بممارسة التناقض المتداخل الأليف والمستأنس بل تقول ما يلي ..

ففي انتخابات مجلس الشعب الأخيرة قدم عديد من رجال الأعمال مساندة مالية لمرشحي التجمع فكيف كان ذلك . ولماذا .. هم ونحن مختلفون أشد الاختلاف في مواقف وتوجهات وانتماءات فكرية عديدة .. لكنهم يحترموننا . ويحترمون شجاعتنا ووطنيتنا ونظافة أيدينا ويحترمون جريدتنا لأنها بعيدة عن الابتزاز مترفعة عن الدنايا ..

ولقد كان على نظرية السقوف وواضعيها أن يقرعوا الآية القرآنية الكريمة "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم" إلى آخر الآية ..

إن قراءة هذه الآية تثبت لنا أن دولة رأس المال وأزلامها من السادة الرأسماليين ورجال الأعمال يحترمون حزبنا وجريدته الأهالي ويتفضلون عليه بالنفحات المالية من منطلق نظرتهم السياسية ووعيهم الطبقي الرأسمالي الذي شخص لهم بأن حزبنا حزب اليسار الاشتراكي وريث النضالات العمالية والفلاحية والاشتراكية وتضحياتها الذي مات وقتل وسجن وعذب وشرد خلالها خيرة أبناء شعبنا من العمال والفلاحين والمثقفين .. أصبح وللحزن هو وجريدته الأهالي من المؤلفة قلوبهم مما دفع رأس المال باعتباره سلطة مصر المعاصرة .. إلى بسط لسانه بالاحترام المظهري لحزب اليسار المصري وجريدته .. وبسط ماله وفلوسه تحت شعار شعبي يقول "إطعم الفم تستحي العين" .. وذلك حتى تندفع سفينة اليسار المصري وحزبه نحو ضفة رأس المال وحكم رأس المال ..

وللعلم فإن احترام رأس المال الحاكم وفلوسه المنهوبة من دماء الشعب المصري كان ثمنا لفلسفة السقوف المنخفضة وتنفيذها عمليا وحزبيا من خلال الرقص للقرد في دولته ..

إن هذا الرقص قد شاهده شعبنا المصري .. فرد عليه بسحب احترامه وتقديره لحزبنا حزب التجمع اليساري بدليل التضاؤل المستمر للعضوية الشابة والجديدة في حزبنا هذا .. ورد عليه أيضا بمخاصمة جريدتنا الأهالي بدليل هبوط توزيعها إلى عدة آلاف فقط .. وهكذا فقد اليسار المصري وحزبه احترام شعب بأكمله في مقابل احترام قلة من الرأسماليين

الحاكمين والمالكين قلة مكروهة جدا من طـوب الأرض المصرية فأين المكسب وأين الخسارة .. وما قيمة نظرية السقوف المنخفضة ومبدؤها مبدأ التناقض المتداخل من كل هذا ..

وفي هذا السياق يجب أن أروي تجربة نضالية جماهيرية وحزبية قادها حزب التجمع في ميت غمر من منطلق التناقض وليس التناقض المتداخل حيث استطاع العمال اليساريين في ميت غمر الذين لا يتمتعون بأي جاه إلا الجاه السياسي والشعبي ترشيح واحد منهم في انتخابات عام ١٩٩٠ .. وخلال الدعاية الانتخابية نظم الزملاء اليساريين مظاهرة بدأت من مصنع ميت غمر في الساعة الثالثة بعد الظهر وقد ضمت هذه المظاهرة في صفوفها قرابة ثلاثين ألف شخص وكان يتقدمها المناضل خالد محيي الدين ورموز اليسار المصري مثل المفكر عبد الغفار شكر والشيخ مصطفى عاصي والأستاذ محمد خليل والدكتور شريف حتاتة ..

هذا مشهد شعبي وحزبي حدث في ميت غمر في غيبة نظرية السقوف المنخفضة . ثم حدث مشهدا آخر أكثر روعة حيث انتفضت مدينة ميت غمر انتفاضة شعبية استمرت عدة أيام ضد السلطة المحلية فور وقوع التزوير السلطوي وسقوط مرشح اليسار وحزب التجمع وتغيير نتيجة أصواته من خمسة واربعين ألف صوت إلى سبعة وثلاثين ألف صوت . وفي هذه الانتفاضة قبض على مئات المواطنين ومن بينهم المرشح اليساري ..

إن هذين المشهدين كانا يمثلان سابقة شعبية أولى تعبر عن حب اليسار المصري وتقديره واحترامه في مواجهة سلطة رأس المال التي تمقت اليسار وتضطهده بدون حدود .. حدث هذا بفضل التناقض وصراع أضداده .. فهل يستطيع التناقض المتداخل والمتخاذل والمستأنس أن يحقق مثل هذه الشعبية لليسار المصري ؟.. طبعا كلا .. وألف كلا ..

ومما يذكر أن فعالية التناقض وصراع أضداده (وليس التناقض المتداخل وتصالح أضداده) قد ظل له تأثيره في ميت غمر مما مكن اليساريون وحلفائهم في حزب العمل ومن المستقلين أن يحققوا مشاهد نضالية وجماهيرية في كل الانتخابات البرلمانية والمحلية .. هذه المشاهد التي تعاظمت خلال مساندة الانتفاضة الفلسطينية وخلال الحرب الأمريكية الإنجليزية العدوانية على الشعب العراقي .. ومما يذكر فإن ميت غمر

وقراها قد قدمت دعما ماليا وغذائيا ودوائيا للشعب الفلسطيني يضاهي ما قدمته مصر رغم الصدامات والملاحقات الأمنية في ميت غمر وقراها ..

ولو أن اليساريين قد التزموا بنظرية السقوف المنخفضة وتناقضها المتداخل لما قدم الشعب المصري أي مساندة للشعب الفلسطيني وأي دعم للشعب العراقي ..

ولذلك فإن نظرية السقوف المنخفضة في مواجهة سلطة رأس المال .. تعني الرقص للقرد في دولته من خلال السكوت على الفساد والاستبداد والخراب الاقتصادي والاجتماعي والتبعية لأمريكا .. وتعني أيضا مخاطبة السلطة بالحسنى وتحجيم المطالب الشعبية في حدود إصلاحات ضئيلة ومحدودة حتى لا يفسد التداخل بين اليسار وحزبه وبين سلطة رأس المال .. فمن جاور السعيد يسعد ..

الفصل الخامس
الرئيس مبارك يرحب
بنظرية السقوف المنخفضة

هدية اليسار لدولة
العسكر ورأس المال

لم تتفضل سيدة مصر الأولى سوزان مبارك بطبع ونشر كتاب "كلام في السياسة" للدكتور رفعت السعيد الذي يتضمن نظريته . نظرية السقوف المنخفضة إلا بعد أن قرأه الرئيس "حسني مبارك" ورحب به وباركه واعتبر نظرية السقوف المنخفضة هدية مقبولة من اليسار الاشتراكي بحزب التجمع لدولته .. دولة العسكر ورأس المال ..

ولقد سبق لليسار المصري أن قدم هدية للرئيس جمال عبد الناصر تمثلت في قرار حل الحزب الشيوعي المصري .. حزب الطبقة العاملة المصرية .. في سنة ١٩٦٤ بذريعة وجود مجموعة اشتراكية ناصرية في السلطة لأول مرة في مصر الحديثة .. وبقصد تعاظم زعامة الرئيس عبد الناصر وتعاظم اشتراكيته الناصرية ووحدانيته السلطوية والسياسية والحزبية المطلقة حيث كانت وحدانيته المطلقة تهيمن على الدولة . وعلى الحكومة باعتبارها السلطة التنفيذية وعلى الحزب الواحد والشمولي حزب الاتحاد الاشتراكي رغم أن الزعيم جمال عبد الناصر كان يحكم مصر بشعبيته وسلطته الوحدانية .. وهذا ما دفع بعض قيادات الحزب الشيوعي إلى حل حزبهم .. حزب العمال والفلاحين حتى يتوحد اليسار الاشتراكي في مصر في حزب واحد هو الاتحاد الاشتراكي بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر .. وقد ثبت أن هذه الخطوة النفعية والمتهورة لليسار المصري كان وراءها فلسفة مشي حالك التي وضعها بعض المثقفين الشيوعيين دون العمال من قيادات الحركة الشيوعية المصرية الذين شغلوا مواقع هامة في حزب الاتحاد الاشتراكي ومواقع أخرى ذات أهمية مثل موقع رياسة مجلس إدارة صحافة أخبار اليوم الحكومية .. ومما يذكر أن هؤلاء السادة قد تركوا رفاقهم محبوسين في العزل السياسي حتى صدور قرار إلغاء العزل السياسي في سنة ١٩٧٥ .. ولهذا فإن هؤلاء المثقفين الشيوعيين الذين باتوا من صنف المؤلفة قلوبهم يتحملون وحدهم مسئولية

حل حزب الطبقة العاملة والفلاحين المصريين ومسئولية حرمان زملائهم من ممارسة حرياتهم العامة والنقابية ..

ولقد لاحظت أن بعض المثقفين المصريين يساريين وغير يساريين يتعاملون مع سلطات العسكر والعسكرة بعد قيام ثورة يوليو وسلطتها بمنهج مشي حالك خوفا من البطش وقطع الرزق حيث تمارس هذه السلطات الحكم من منطلق فكرة السيادة دون فكرة الحرية ..

فبعد هزيمتنا العسكرية أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧ .. دعاني المرحوم الأستاذ لطفي الخولي إلى برنامج تليفزيوني بشأن هزيمتنا العسكرية أعدته المذيعة والشاعرة المرحومة سلوى حجازي وكان ضيوف البرنامج شخصيات مصرية وعربية منهم الأستاذ الأخضر الإبراهيمي سفير الجزائر في مصر في هذه الأيام . وأمام شاشة التليفزيون المصري قلت .. أن الديمقراطية وحدها هي الطريق للنصر العسكري .. وأن الديمقراطية أيضا هي المدخل الوحيد للنصر العسكري :. ودليلي على ذلك موقعة سلاميس العسكرية التي انتصرت فيها اليونان الديمقراطية بجيش صغير جدا على الإمبراطورية الفارسية الاستبدادية وجيشها الكبير ..

وفور انتهاء البرنامج التليفزيوني استقبلني الشاعر اليساري صلاح جاهين وكان معه الفنان كمال الطويل . وقال لي بانفعال .. لا يقول مثل هذا الكلام في مصر إلا العامل عطية الصيرفي .. الأمر الذي أدهشني وأزعجني من تفشي ظاهرة .. مشي حالك في صفوف المثقفين المصريين عموما خوفا من سيف المعز وطمعا في ذهب المعز .. وهذا بالضبط ما دفع سيدة مصر الأولى سوزان مبارك والرئيس حسني مبارك إلى طبع ونشر كتاب كلام في السياسة الذي تحمل سطوره نظرية السقوف المنخفضة وذلك لمعرفتهما بطبيعة المثقف المصري اليساري وغير اليساري ومزاجه الاجتماعي .. وذلك فضلا عن قراءتهما وتأملهما سطوره لمعرفة نظرية السقوف المنخفضة ومضمونها وقصدها حيث انتهى بهما المطاف بالترحيب بها واعتبارها هدية مقبولة من بعض قيادات حزب التجمع اليساري الاشتراكي المعارض ..

تلك القيادات اليسارية التي سبق لها أن قدمت للرئيس مبارك هدية حزبية قيمة تمثلت في إهدار وتمييع قرار أغلبية حزب التجمع المعارض بشأن رفض مبايعة الرئيس مبارك لفترة رياسية رابعة . كما قدمت هدية

أخرى في هذه المناسبة السلطوية بحضور نواب حزب التجمع اليساري المعارض الحفل الجمهوري بتدشين الجمهورية الرابعة للرئيس مبارك حيث كان موظفو القصر الجمهوري مهتمين جدا لحضور النواب اليساريين لذلك الحفل إلى حد أن بعض موظفي الرياسة ظل يبحث في جمهور الحضور على الدكتور رفعت السعيد ليطمئن على أنه لم تمسسه سخافة من سخافات المدعو كمال الشاذلي الذي كان يوزعها على الحاضرين خلال محاولتهم التبرك بصاحب الليلة وصاحب المقام ..

ومن هنا فقد رأى الرئيس مبارك ومستشاريه أن نظرية السقوف المنخفضة قدمت لدولته .. دولة العسكر ورأس المال خير تنظير وخير تبرير لعلاقاتها الاجتماعية عموما والطبقية خصوصا باعتبار أن هذه العلاقات تحدد الطبيعة العامة للدولة ونظام الحكم وقد أدى هذا التبرير وذاك التنظير إلى بروز الأمور التالية ..

الأمر الأول .. أن نظرية السقوف هذه أخذت بفلسفة العقل والمفهوم .. ونبذت فلسفة الفعل والتمرد والثورة بجعل التناقض بين دولة مبارك . دولة العسكر ورأس المال وبين الشعب المصري تناقضا مغلولا من أي فعالية بعد استئناسه وجعله تناقضا متداخلا يرفض صراع الطبقات كلية ويمارس صراع الكلام والمفاهيم بين الحاكمين والمحكومين والظالمين والمظلومين لأنهم كلهم من المصريين وأن الدولة المصرية الحاضرة هي والحق سواء لأن التاريخ يقف عند هذا الحاضر ولا يتعداه ..

الأمر الثاني .. تبرر نظرية السقوف هذه وجود الحاضر السلطوي رغم تجاوزاته وسلبياته في كل مجالات الحياة وتبرر أيضا وجود تحالف سلطة العسكر ورأس المال وسياسته العامة ..

الأمر الثالث .. وقد ترتب علي تبرير وجود الحاضر السلطوي باعتباره قيمة مقدسة تبرر قيام دولة الجمهورية الوراثية المقدسة كواقع . فإذا أراد المعارضون شيئاً آخر فليبحثوا عنه خارج الواقع المصري ..

الأمر الرابع .. أن نظرية السقوف المنخفضة التي لم تذكر لفظ التغيير ولا كلمة المستقبل ولا عبارة الصراع الطبقي فإنها أعطت للرئيس مبارك صفة الكمال البشري المطلقة وأضفت علي دولته الرأسمالية والوراثية وعسكرتها ووحدانيتها وفسادها واستبدادها وتبعيتها لأمريكا صفة الخلود مما يعني أنها نهاية التاريخ..

تلك هي نظرية السقوف المنخفضة باعتبارها هدية يسارية في الشكل دون الجوهر والمضمون المقدمة لدولة الرئيس مبارك .. دولة العسكر ورأس المال معبأة في كتاب كلام في السياسة باعتبارها جهدا فلسفيا ونظريا لا يقدر على بذله إلا الأستاذ العالم الدكتور رفعت السعيد الذي تقمص قميص الفيلسوف الألماني الكبير .. هيجل .. فيلسوف النزعة الواقعية الذي بدأ حياته ثوريا ثم أصبح محافظا وعاشقا للدولة البروسية المستبدة ..

وفي تقديري أن هذه الهدية باعتبارها نموذجا للتناقض المتداخل سوف تأتي أكلها وتأثيرها المتبادل بين دولة مبارك .. دولة العسكر ورأس المال وبين بعض اليساريين محدودي العدد وإن كان الناس كل الناس في مصر المعاصرة سوف تفقد إلى حين من الدهر أي أمل في تحقيق الخبز والحرية .. وبالتالي فإن لهم حق العتاب والحساب على حزبنا وأعضائه ..

مبارك بين التوحيد والتثليث

لقد جمع الوالي محمد علي خلال حكمه جميع السلطات بيده . ولذا كان الوالي والخديوي يتمتعان بسلطة تكاد تكون مطلقة مستمدة من الفرمانات المختلفة . فكان الوالي والخديوي يجمع في شخصه كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وذلك في إطار فرمان الخط الشريف الصادر عام ١٨٣٩ من الباب العالي كما يقول الدكتور سيد صبري ..

هذا الفرمان الذي يضمن المساواة في الوظائف . والمساواة في الالتحاق بالمدارس الحكومية . والمساواة في الخدمة العسكرية . والمساواة أمام القانون . والمساواة أمام القضاء .. وحماية الأفراد وحرية الملك . وحرية المسكن . وحرية العمل والتجارة والصناعة ..

ومما يذكر أن أفندينا محمد علي كان يحكم بواسطة مجالس متخصصة مثل المجلس الخصوصي . ومجلس الزراعة . ومجلس التعليم .. ولهذا فقد وصفه كلوت بك بأنه أول عثماني استطاع إدراك الأفكار النافعة فيما يتعلق بالحكومة والإدارة .. ولقد ظل الحكم شبه المطلق ساريا حتى تأسس مجلس النواب سنة ١٨٦٦ ثم ظهرت الصحافة المصرية الحديثة مما دفع الخديوي إسماعيل إلى النزول من القلعة ذات الطبيعة العسكرية إلى قصر عابدين للسكن فيه وسط أهالي القاهرة ليعيش عيشة مدنية مما دفعه أيضا

إلى ممارسة حكم مصر بواسطة وزارة مسئولة فتشـــكلت وزارة شــريف باشا التي نشرت لائحة مجلس شورى النواب الأساســية لســنة ١٨٧٩ . ودعت مجلس النواب للانعقاد وكان أهم ما قررته .. الحصانة البرلمانيــة . وعدم تنفيذ القوانين واللوائح ما لــم يصــدق عليــها مجلــس النــواب . وضرورة وضع قانون محاكمة الوزراء . ولكن إبعاد الخديــوي إســماعيل بسبب مأساة الديون المصرية وتغييره بولده الخديوي توفيق الذي عطـــل الأمور الدستورية ثم اضطر تحت ضغوط مـــن الحــزب الوطنـــي وحــرب العسكر العرابيين إلى إجراء الانتخابات النيابية وعقد مجلس النـــواب فـــي يناير سنة ١٨٨٢ . وحدثت أزمة حادة بين مجلس النواب والحكومة حيـث استند المجلس في هذه الأزمة على الحزب الوطني والحزب العسكري وقــد وقفت هذه الأزمة بسبب لائحة مجلس النواب وطلب تعديلها في مواجهـــة الخديوي والمراقبين الماليين الأجانب الذين كانوا يـــرون حرمـــان نــواب الشعب من مناقشة ميزانية الحكومة .. وانتهت هـــذه الأزمـــة باســتقالة حكومة شريف باشا وتشكيل حكومة محمود سامي البارودي التـــي كــان أحمد عرابي وزيرا للحربية بها ..

وبفضل هذه الحكومة العرابية صدر القانون الجديد بشأن لائحة مجلـس النواب في فبراير ١٨٨٢ وقد تضمنت الكثير من المزايا أهمها الحصانـــة البرلمانية وحق النواب في إبداء آرائهم وأن يعتبر النائب وكيلا عن القطــر المصري وللمجلس حــق اســتجواب الــوزراء .. والــوزراء مســئولون بالتضامن أمام المجلس ..

وللأسف يأتي الاحتلال الإنجليزي بعد هزيمة الثــورة العرابيــة فيلغــي الحياة الدستورية والنيابية في مصر ويستبدلها بشكل نيابي يتـــلاءم مــع مصالح تحالف الإنجليز والخديوي وأزلامه مـــن الإقطـــاعيين المصرييـــن المعادين للشعب المصري والثورة العرابية وقد تمثل ذلك الشكل النيابي في تأسيس مجالس المديريات الذي ينتخب أعضاء في كل مديريـــة لمســـاعدة مديرها في الأمور الإدارية .. وتأسيس مجلس شورى القوانين بالانتخــــاب ويختص بنظر القوانين والأوامر العالية قبل إصدارها .. وتأسيس الجمعيــة العمومية من الوزراء ومن أعضاء ينتخبون على درجتين وتختص بــاقرار الضرائب ويستشار أعضائها في الأمور الإدارية والسلطوية ..

وأمام ظهور الطبقة العاملة المصرية ونقاباتها العمالية واحتجاجاتها الإضرابية فتصاعدت الحركة الوطنية المصرية التي أجبرت الاحتلال الإنجليزي على تحقيق حياة نيابية أفضل . هذه الحياة التي بدت في قيام الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ التي تتكون من مجلس واحد يضم ٨٣ عضوا منهم ١٧ عضوا معينون من الحكومة و٦٦ عضوا منتخبون من الأهالي عن جميع القطر المصري . وتختص الجمعية في النظر في القوانين ولها حق اقتراح القوانين وكان من أبرز وأشهر أعضائها سعد باشا زغلول .. ولم تعش هذه الجمعية التشريعية إلا سنة واحدة فقط حيث توقف نشاطها النيابي فور نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .. هذه الحرب العالمية التي توقفت في عام ١٩١٨ تاركة وراءها هموم كثيرة للمصريين من بطالة وغلاء وسخرة مات فيها الآلف من العمال والفلاحين المصريين بالإضافة إلى إهدار الحريات العامة ..

ولقد ساهمت هذه الهموم في دفع الشعب المصري عماله وفلاحيه ومثقفيه إلى التعجيل بثورته العظمى ثورة ١٩١٩ بهدف تحقيق الاستقلال الوطني وكان من إنجازات هذه الثورة المجيدة وضع دستور سنة ١٩٢٣ هذا الدستور الذي وضعته لجنة الثلاثين الملكية التي هاجمها حزب الوفد وسماها الزعيم سعد باشا زغلول بلجنة الأشقياء ..

ولكن هؤلاء الأشقياء المصريين والملكيين العظام قد رفعوا من شأن الوطنية المصرية وعظموا شأنها في مناقشات وضع الدستور المصري الأول . دستور سنة ١٩٢٣ ..

ففي هذه المناقشات الوطنية والمجيدة لم تراع أي هيبة لجلالة الملك فؤاد حيث طالب بعض الأعضاء بصدور القوانين من البرلمان بغير التصديق عليها من الملك بنفسه . وتنفذ القوانين رغم أنفه طالما وافق عليها نواب الشعب وأقروا بضرورة أن يحكم الملك مصر بواسطة وزرائه وممنوع عليه حضور اجتماعات مجلس الوزراء . وحرموا الأمراء من الأسرة المالكة من حصولهم على عضوية البرلمان المصري ..وتمسكوا بضرورة النص في الدستور على حرية العقيدة بشكل مطلق وعلى حق المصريين في ممارسة الحريات العامة والشخصية والنقابية وذلك بالنص على حق تكوين الجمعيات .. وإبداء حرية الرأي بالقول والفكر والكتابة والتصوير بالإضافة إلى حرية الصحافة وعدم جواز إفشاء أسرار الخطابات

والتلغرافات والتليفونات .. ولذلك يقول الدكتور سليمان الطحاوي "ولكن دستور سنة ١٩٢٣ كان أول دستور مصري تضمن كشفا مفصلا بالحريات العامة التي كافح الشعب المصري خلال ثورة سنة ١٩١٩ وبعدها للحصول عليها ..

هكذا كان الموقف الوطني الخالد والعظيم للجنة الدستور المصري دستور سنة ١٩٢٣ بقيادة الوطني العظيم عبد اللطيف المكباتي الذي غفل عن ذكره كل أشخاص القوى الوطنية واليسارية في مصر الحديثة ..

والأمر المثير للانتباه أن حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول وزعيمه مصطفى النحاس قد احتضنا دستور سنة ١٩٢٣ وحافظا عليه بكل حبات عيونهم بدليل أنهما اصطدما مع الملك فؤاد وابنه الملك فاروق حفاظا على ذلك الدستور الديمقراطي .. وذلك في مسألة تعيين كبار موظفي القصر الملكي حيث تمسكت حكومة الوفد بحقها في ترشيح هؤلاء الموظفين الملكيين والموافقة على تعيينهم .. وفي مسألة قسم الجيش المصري قاتلت حكومة حزب الوفد على ضرورة أن يتضمن القسم النص على احترام الدستور المصري والمحافظة عليه .. وفي مسألة تتويج الملك فاروق في الجامع الأزهر أصرت حكومة حزب الوفد أن يتم التتويج الملكي بطريقة مدنية .. لأن جلالته ليس أميرا للمؤمنين ولكنه مجرد ملك مدني . في بلد مدني هي مصر المحروسة ..

وفي هذا المناخ المصري الذي كانت تعتري ديمقراطيته المد والجذر نهضت الحركة الوطنية وتألقت الحركة العمالية والنقابية وإضراباتها ومظاهراتها الاحتجاجية في مواجهة الملك والإنجليز معا ..

كما نهض القضاء المصري الواقف والجالس حتى تجلت نهضته ووطنيته في قضائه وفي مواقفه التي تفيض بالعدل كل العدل والموضوعية كل الموضوعية في مواجهة النظام الملكي والاحتلال الإنجليزي حيث تعرض القضاء المصري لأول مرة لدستورية القوانين في قضية الحزب الشيوعي المصري في محكمة جنايات الإسكندرية سنة ١٩٢٤ .. حيث طعن الدفاع عن المتهمين بأن المادة رقم ١٥١ فقرة ٢و٣ عقوبات مقيدة لحرية الرأي المكفولة بالدستور بنص المادة ١٤ من ناحية . ومن ناحية أخرى مخالفة لنص المادة ١٦٤ من الدستور ..

وعندما رفض عمد البلاد استلام دفاتر الانتخابات العامة وأضربوا عن العمل في سنة ١٩٢٥ بادرت حكومة زيوار باشا بتقديمهم إلى المحاكمة بمحكمة تلا الجزئية بتهمة مخالفة الأوامر . وقد جاء في دفاع العمد . أن هذا القانون غير دستوري . وعلى ذلك فإضراب العمد عن العمل عمل مشروع لا يصح معاقبتهم من أجله . كما أصدرت محكمة مصر الابتدائية الأهلية في أول مايو سنة ١٩٤١ حكما قررت فيه لأول مرة بصراحة ووضوح حق القضاء في نظر دستورية القوانين . ثم توج قضاء مجلس الدولة مسألة حق المحاكم المصرية في التصدي للقوانين غير الدستورية بحكم مجلس الدولة رقم ٦٥ لسنة ١ قضائية بعدم دستورية المرسوم بقانون ١٤٨ لسنة ١٩٤٤ الصادر في غيبة البرلمان . وتعليقا على صدور هذا الحكم القضائي يقول الأستاذ الدكتور السيد صبري "ويسرنا أن أخذت المحكمة بمبدئنا وقضت صراحة بحقها بل وحق المحاكم المصرية عموما في ممارسة الرقابة الدستورية على القوانين" ..

ذلك هو شكل الحكم في مصر الحديثة الذي يلخصه الدكتور سيد صبري أستاذ القانون الدستوري على النحو التالي ..

المرحلة الأولى .. حكم مطلق من أول عهد محمد علي حتى سنة ١٨٨١ . وفي هذه المرحلة كانت جميع السلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية في يد هيئة واحدة هي الوالي حتى سنة ١٨٧٨ ثم مجلس وزراء شكلا . والمراقبة الثنائية الأجنبية فعلا حتى ١٨٨١ ..

المرحلة الثانية .. حكم دستوري مضطرب من وقت انعقاد مجلس نواب سنة ١٨٨١ إلى سقوط وزارة محمود سامي البارودي سنة ١٨٨٢ .. وفي تلك الفترة كان حكم مصر متنازعا بين الوزارة التي يديرها نواب الأمة والمراقبة الثنائية الأجنبية المؤيدة للخديوي توفيق ..

المرحلة الثالثة .. عودة الحكم المطلق من بدء احتلال الإنجليز لمصر حتى اجتماع مجلس النواب في سنة ١٩٢٤ .. وفي هذه الفترة كانت السلطة المصرية في مجلس الوزراء شكلا وفي يد المعتمد البريطاني فعلا..

المرحلة الرابعة .. حكم دستوري مضطرب من ابتداء الحياة النيابية في سنة ١٩٢٤ حتى عودتها سنة ١٩٣٦ .. فالسلطة المصرية في بعض الأحيان في يد حكومة مرتكزة على إرادة الأمة . إلا أن تلبث حتى تضطر

إلى ترك الحكم للتدخل الأجنبي . فيعود الحكم إلى وزارة مطلقة تمارس جميع السلطات . وهي في الواقع متأثرة بالسياسة الأجنبية ..

ومنذ عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٥٢ ظلت سلطة مصر في قبضة الاحتلال الإنجليزي والملك حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وقد تخللها سنوات حكم حكومة الوفد ذات الطبيعة الديمقراطية والوطنية والشعبية التي لم تسلم من تدخل تحالف الملك والإنجليز المحتلين ضد سياستها مما جعلها تقرر إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا هذا الإلغاء الذي ترتب عليه نشوب حرب المقاومة الشعبية المصرية ضد معسكرات الاحتلال الإنجليزي في مدن القناة ..

تلك هي الحكومات الملكية والمدنية التي حكمت مصر شبه المستعمرة وشبه الإقطاعية حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو وظهور حكم العسكر والعسكرة في مصر الحديثة ..

ولنترك مصر الملك والملكية .. مصر شبه المستعمرة وشبه الإقطاعية .. مصر تعدد الأحزاب السياسية وتعدد النقابات العمالية والديمقراطية والمنظمات اليسارية والاشتراكية .. مصر النضال الوطني والصراع الطبقي والثورات والانتفاضات والمظاهرات والإضرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. مصر الصحافة الحرة والشجاعة ..

ولنستقبل مصر الجديد .. مصر ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .. مصر الجمهورية .. مصر المستقلة .. مصر العسكر والعسكرة .. مصر الحزب الواحد والشمولي .. هيئة التحرير . الاتحاد القومي . الاتحاد الاشتراكي . حزب مصر . الحزب الوطني . خانقة الصراع الطبقي وثوراته وانتفاضاته ومظاهراته وإضراباته الاحتجاجية والسياسية والاقتصادية .. مصر المنتصرة في حرب الداخل والمهزومة في حرب الخارج ..

إن مصر هذه قد تولى أمر حكمها فور قيام دولة ثورة يوليو البكباشي جمال عبد الناصر أبرز عسكري في تنظيم الضباط الأحرار الذي دبر ونفذ هذه الثورة العسكرية التي أطاحت بالإقطاع والنظام الملكي وحررت مصر من الاستعمار البريطاني . وبذلك فقد حظيت مصر المحروسة لأول مرة بحكم مصري . مصري . مصري بالتثليث منذ عهد الأجداد الفراعنة ..

ومن ثم فالبكباشي .. الرئيس .. الزعيم جمال عبد الناصر هو أول حاكم مصري يتبوأ رئاسة مصر التي تحولت من الملكية إلى الجمهورية وقد مارس حكمه بمنهج المستبد العادل فاعطى الشعب المصري الخبز دون الحرية من خلال اشتراكيته الناصرية . وخلال ذلك تجلت مظاهر وطنيته وإنجازاتها ولكن للأسف فقد كانت وطنيته مصرية تنز بالطغيان كل الطغيان ضد العمال في كفر الدوار وفي إمبابة وضد معارضيه مخالفي الرئيس عبد الناصر ..

والغريب أن حكم الرئيس عبد الناصر ظل معتمدا على الاستبداد والعدل وعلى الوطنية والطغيان مما أدى إلى زيادة شعبيته رويدا رويدا .. ومن منطلق سلطته وشعبيته أصبح حكم الرئيس والزعيم عبد الناصر حكم الفرد المطلق . هذا الحكم الذي فرخ الوحدانية السياسية والسلطوية المطلقة في مصر الحديثة والمعاصرة التي تمثلت في جمع سلطات الدولة الثلاث السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية في قبضة الرئيس والزعيم جمال عبد الناصر وحده حيث أعطاه دستور سنة ١٩٥٦ حق دعوة مجلس الأمة للانعقاد وهو الذي يفض دورته . ولا يجوز لمجلس الأمة أن ينعقد دون دعوة وإلا كان اجتماعه باطلا . وتبطل بحكم القانون القرارات التي تصدر منه ..

كما أن السلطة التنفيذية تشارك مجلس الأمة وظيفته التشريعية عن طريق حق رئيس الجمهورية في اقتراح القوانين والاعتراض عليها وإصدارها ونشرها وأخيرا فمن حق رئيس الجمهورية حل المجلس .. مما يعني أن السلطة التنفيذية برياسة رئيس الجمهورية تهيمن على المجلس النيابي هذا المجلس الذي يرشحه لمنصب رئيس الجمهورية في فترة رياسية قادمة وقادمة ثم يعرض هذا الترشيح في استفتاء شعبي وفقا لدستور سنة ١٩٥٦ ..

إن هذا الاستفتاء الشعبي لاختيار رئيس الجمهورية في مصر استفتاء تهليلي باطل لأن السلطة التنفيذية ممثلة في الشرطة المصرية الخاضعة لرئيس السلطة التنفيذية الذي هو رئيس الجمهورية هي التي تنظم الاستفتاء وتشرف عليه . كما أن هذا الاستفتاء لا يقابله ممارسة حق المواطنين في الاعتراض الشعبي على سياسة الحكومة وحق المواطنين

في الاقتراح الشعبي بشأن المصالح العامة للشعب .. كما تنص كل دساتير العالم ..

ولذلك فالفقه الدستوري يدين هيمنة السلطة التنفيذية أي سلطة رئيس الجمهورية على السلطة التشريعية مما يؤدي إلى بطلان اختيار رئيس الجمهورية المعمول به في مصر الحديثة والمعاصرة ..

يقول الفقيه الدستوري "منتسكيو" إذا كانت السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في يد شخص واحد أو هيئة واحدة انعدمت الحرية إذ يخشى أن يسن ذلك الشخص أو تلك الهيئة قوانين جائرة لينفذها بطريق ظالم .. كما تنعدم الحرية إذا لم تكن سلطة القضاء منفصلة عن سلطة التشريع لأن حرية أبناء الوطن وحياتهم تصبحان تحت رحمتها ما دام القاضي هو المشرع . وإذا كانت السلطة القضائية متحدة مع السلطة التنفيذية فإن القاضي سيكون طاغيا..

ويرى "روسو" أن السيادة للسلطة التشريعية .. وعلى ذلك ففصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية أمر طبيعي لأن هذه الأخيرة سلطة مستقلة بها هي مندوبة وخادمة أو تابعة للشعب الذي له حق رقابتها وإقالتها..

إذن فإن الرئيس والزعيم عبد الناصر رغم عدله الاجتماعي واشتراكيته الناصرية ووطنيته ومواقفه ضد الاستعمار قد شاب حكمه شرعية دستورية مشوهة وباطلة طفحت بحكم الفرد المطلق ووحدانيته السياسية والسلطوية وسببت لمصر والمصريين كوارث غير محدودة ..

ولقد توفى الرئيس والزعيم عبد الناصر فورث الرئيس المقتول أنور السادات هذه التركة السلطوية ثم آلت من بعده للرئيس حسني مبارك مشطوبا منها العدل الاجتماعي والوطنية المصرية ..

ولقد وظف الرئيس مبارك هذه التركة السلطوية في تدعيم حكمه لمصر باعتباره حكم الفرد المطلق ووحدانيته السياسية والسلطوية حيث قبض بيد من حديد على السلطة التنفيذية وحكومتها ووزرائها ومحافظيها وحكامها وشرطتها التي تحولت إلى جيش جبار لضرب الداخل "الشعب المصري" وقبض على السلطة التشريعية بقدرته السلطوية على حل مجلسي الشعب والشورى وفض جلسات كلا منهما وعقد هذه الجلسات بالإضافة إلى تعيين

عدد من النواب بمجلسي الشعب والشورى ومشاركته في تقديم القوانين لإقرارها وقبض كذلك على السلطة القضائية بطريقة مواربة ..

ولذلك فالرئيس مبارك هو رئيس الجمهورية وسلطاتها التنفيذية ورئيس السلطة التشريعية وهو أيضا رئيس مجلس القضاء الأعلى ورئيس المجلس الأعلى للشرطة والقائد الأعلى للقوات المسلحة ..

وحتى الحياة الحزبية والنقابية في قبضته السلطوية فسيادته رئيس الحزب الوطني الحاكم وجناحه المهني للأطباء والمهندسين والمحامين وغيرهم .. وجناحه العمالي والنقابي ممثلا في الاتحاد العام لنقابات عمال مصر ونقاباته العامة واتحاداته الإقليمية ونقاباته القاعدية ..

إن كل هذه السلطات تحولت إلى إمبراطورية يملكها الرئيس حسني مبارك مما أدى إلى تضخيم وضعية الرئيس مبارك في الحياة والمجتمع في مواجهة غضب المواطنين وتزايد همومهم في عهده . ولهذا بادر سدنة السلطة في الإعلام المصري وفي مؤسسات الحكومة إلى إبراز شعار "مبارك هو الحل" بهدف تعظيم وحدانيته السياسية والسلطوية لتصبح مظهرا من مظاهر عبادة الفرد وصفة من صفات التوحيد في الحياة والمجتمع حتى يحظى بالهيبة والتقديس وصب اللعنات على أزلامه من الوزراء والمحافظين والحكام ..

ونظرا لشوق الرئيس مبارك لتوريث السلطة لولده جمال مبارك فقد أطلق لأسرته العنان في ممارسة النشاط الرسمي باسم مصر الرسمية فالابن جمال مبارك يتحدث في الداخل والخارج بأسم مصر باعتباره الوزير الأول وكذلك السيدة سوزان مبارك حرم الرئيس مبارك تتصرف أيضا كوزير أول وذلك دون حق وبدون قانون ..

ولا يعني هذا إلا إن صفة التوحيد والوحدانية للرئيس مبارك قد انبثق منها صفة الثالوث والتثليث على أسرته لكي تصبح في مصر سلطتين متشابكتين دما ولحما ونفوذهما يتجلى في سلطة الوحدانية والتوحيد للرئيس مبارك وسلطة الثالوث والتثليث للأب الرئيس مبارك .. والابن جمال مبارك .والروح القدس .. كل ذلك بهدف توريث السلطة من الأب إلى الابن ..

هكذا نشأت أول أسرة جمهورية حاكمة في مصر المحروسة بقوة الوحدانية والتوحيد السلطوي وبقوة الثالوث والتثليث السلطوي .. حقا فإن

مصر المحروسة وطن التثليث ووطن التوحيد .. وللعلم فإن هـذا التثليـث المعاصر قد سبقه التثليث الفرعوني .. إيزيس . أوزوريس . حـورس .. والتثليث المسيحي .. الأب . والابن . والـروح القـدس .. وإن التوحيـد المعاصر قد سبقه توحيد الملك الفرعوني إخناتون ..

" جمال مبارك بن أبيه رئيسا لمصر "
عجبي

سوف يأتي حين من الدهر يوصف فيه عهد الرئيس حسني مبارك بعهد الإبادة الجماعية للشخصية المصرية العامة المحلية والقوميـة والقضـاء على وجودها في القرية والمدينة وفي النقابات والأحزاب والجامعات ممـا أدى إلى محو وإزالة إرادة المصريين وشـخصياتهم العامـة فـي مصـر المعاصرة ..

فالشخصية المصرية العامة بدأت تنمـو فـي مصر خـلال ثـورات المصريين ضد جيوش الحملة الفرنسية .. وخلال تولية أفندينا محمد علـي حكم مصر وفي عهد الخديوي إسماعيل ثم تعاظم شأنها في الثورة العرابية وفي ثورة سنة ١٩١٩ وفي كل معارك الوطنية المصرية حتى قيام ثـورة يوليو ١٩٥٢ ..

وقد برزت هذه الشخصية العامة المحلية والقوميـة مـن المصريين المسلمين والمسيحيين مما جعلها قادرة على تأسيس الأحـزاب والنقابـات العمالية والمهنية والجمعيات كوسائل كفاحية ذات غايات وطنية واجتماعية . فمن صفوفها تجلى النضال الوطني للشعب المصري والصـراع الطبقـي للعمال والفلاحين والفقراء ضد الاستعمار وتحالف الإقطاع ورأس المال ..

تلك هي الشخصية العامة التي أفرزتها الأمة المصرية والتي نبتت نباتـا حسنا فباتت أصلها ثابت وفرعها في السماء فلم تنحني للسلطة والسـلطان حتى لو كانت تشغل مناصب سلطوية بدليل إضراب عمد البلاد "الذين كـانوا من الشخصيات العامة" ضد حكومة زيور باشا بسبب تزويـر الانتخابـات النيابية سنة ١٩٥٢ ..

ولكن هذه الشخصية العامة التـي كـانت رمـزا للوطنيـة المصريـة والمجتمع الديمقراطي المدني قد توارت واختفت رويدا رويدا فـور قيـام

ثورة يوليو وحكم العسكر والعسكرة ووحدانيته السياسية والسلطوية في مصر الحديثة والمعاصرة ..

وفي عهد الرئيس حسني مبارك وعسكرته ذات البأس الشديد فقد تم قطع دابر فلول الشخصية العامة وردم منابع ظهورها في الحياة والمجتمع بتأميم النقابات أكثر وأكثر ومحاصرة الأحزاب المعارضة خوفا من بروز الشخصية العامة باعتبارها شخصية معارضة لحكم العسكر ووحدانيته السياسية والسلطوية .. ولهذا فلم يعين الرئيس مبارك نائبا له بالإضافة إلى إسراع الحكم باغتيال عمد القرى ومشايخها باعتبارهم آخر ما تبقى من الشخصيات العامة في القاع الاجتماعي المصري . وقد حدث ذلك الاغتيال بتعيين عمد القرى ومشايخ القرى بواسطة الشرطة التي قد عينت أزلامها وعملائها في هذه المناصب المدنية ..

وعلى جثة الشخصية المصرية العامة طفحت الشخصية المصرية المشهورة إلى حين من السادة نجوم كورة القدم ونجوم الطرب والمسلسلات التليفزيونية وأعضاء البرلمان والوزراء والمحافظين ورجال المال والأعمال والرشوة والبرطلة ..

إن هؤلاء المشاهير الذين يمثلون في جملتهم ظاهرة مرضية أفرزتها السلطة دون المجتمع باعتبارهم طبقة السلطة والسلطان ورأس المال التي سوف تختفي شهرتهم المظهرية لا لأنها غير محترمة من المصريين فقط .. ولكن لأنها شهرة مؤقتة ومدانة لارتباطها بالسلطان وجودا وعدما ..

هكذا ازدحمت مصر المعاصرة بالسادة المشاهير السلطويين من كل لون الذين اصطنعتهم السلطة ونفخت فيهم من روحها البرجماتية (النفعية) والاستبدادية مما جعل هؤلاء السادة مجرد شلل من المؤلفة قلوبهم وجيوبهم . بينما تم إخلاء مصر وتفريغها تماما من الشخصية المصرية العامة والعتيدة ذات الشعبية والوطنية ..

ذلك هو الشأن المصري المعاصر الذي أدى إلى وجود وضعية غير منطقية وغير ديمقراطية في مصر دفعت الرئيس مبارك إلى بسط نفوذه السلطوي المطلق الذي يعاني اليتم كل اليتم في شعبيته ولكنه يحظى بالجبروت كل الجبروت حيث يهيمن السيد الرئيس مبارك بوحدانيته على سلطات الدولة الثلاث التنفيذية . والتشريعية . والقضائية مما جعله جالسا

متربعا على عرش مصر طوال ربع قرن من الزمـــان بواسـطة اسـتفتاء تهليلي لا يقره الفقه الدستوري ..

إن هذه الفترة الزمنية المستقرة سلطويا جعلت الرئيس مبارك يــرى أن منصبه وحياته صنوان لا يفترقان .. هذا الصنوان الــذي عرضــه لقلــق الشيخوخة . والهرم . والموت . فراودته أوهام البقاء (البقاء لله وحـــده) واستبدت بشخصه أحلام الخلود السلطوي .. فبالغ في توحيد ذاته وسلطته . هذا التوحيد السلطوي الذي ولد التثليث السلطوي لأسـرته . باعتبـاره الأب .. وجمال مبارك الابن ... والروح القدس مثلمـا ثلـث الفراعنـة .. إيزيس . وأوزوريس . وحورس . تلاه التثليث المسيحي . الآب . والابـن . والروح القدس . وذلك بقصد وأد أي شخصية عامة تحاول القفز علـــى وراثة الجمهورية التي باتت حقا مكتسبا وحكرا للابن جمال مبارك . عجبي وعجب الناس جميعا ..

والغرض من ذلك التثليث السلطوي هو إشهار قيام أول أسرة جمهورية وراثية في مصر عموما .. أسرة أفرزت أول ولي عـــهد جمـــهوري هــو الشاب جمال مبارك بن أبيه رئيس الجمهوريـــة .. ولقــد دقـت الزمــور والطبول فور إشهار هذه العائلة الحاكمة المتوجة بولي العهد الجمـــهوري الذي باشر سلطاته لا يعنيه إن كانت رسمية أو عرفيـــة .. فمصـــر دولـــة وحكومة وشعبا صارت في قبضة يمينه حيث تجاوز حدود يزيد بن معاويـة الذي لم يقترب من السلطة إلا بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان .. وتجـاوز حدود الفاتح البطل إبراهيم باشا ابن والي مصر محمـــد علــي الــذي لــم يمارس السلطة إلا بعد مرض والده وعجزه عن أداء السلطة وذلك رغـــم حروبه وفتوحاته وانتصاراته العسكرية التي جعلــت مصــر إمبراطوريـــة أسيوية وأفريقية ..

ووفقا للمذهب البرجماتي (النفعي) الأمريكي الذي يعتنقه الرئيس مبارك والابن جمال مبارك بشهادة محاضرته في الجامعة الأمريكية وإعلانــــه أن البرجماتية هي الحل وهي المستقبل لمصر فإن من حقـــها السـعي الجـاد لجعل مصر جمهورية وراثية أسوةً بكوريا وسوريا بالإضافة إلــى أنــهما يحظيان بأسانيد قوية تبدو في الآتي :

١. أن الرئيس مبارك بسلطته الوحدانية المطلقة وليس بشعبيته حكم مصر قرابة ربع قرن من الزمان بدون أن يسمع صرخة شعبية واحدة تعارضه..
٢. وأن سيادته يمتلك حزبا سياسيا هو الحزب الوطني الحاكم الذي يسيطر على الأغلبية كل مجالس الشعب والشورى والمحليات والنقابات العمالية . ويضم في عضويته نصف مليون عضو .. وإن كان كلهم من بغاث الطير (الحشرات الطائرة) حيث يقول الشاعر ..

بغاث الطير أكثرها فراخا ... وأم الصقر مقلاة نذور

٣. وأن وزارة داخليته لديها جيش الأمن المركزي للتصدي لأي حرب من حروب الداخل المصري .
٤. وأن وزارة التعليم العالي في مصر عسكرت الجامعات وطلابها برؤساء من ضباط أمن الدولة الذين يحملون الدكتوراه .
٥. وأن الرئيس مبارك المورث صديق حميم للبيت الأبيض الأمريكي المانح والمانع كما كان يفعل الباب العالي العثماني في الدولة العثمانية.
٦. وأن الابن الوريث تربيته أمريكية وثقافته أمريكية وعقليته أمريكية وتوجهاته أمريكية .
٧. أن الوارث والوريث سوف يقدمان للبيت الأبيض الأمريكي خدمة العمر بتخليص مصر من حكم العسكر المصريين بتعطيل القانون المغولي والمملوكي المعمول به في مصر الذي يقضي بأن تقوم السلطة كل السلطة على أكتاف حملة السلاح وحدهم .. حيث يتولى عرش مصر الجمهورية الوراثية شخصية مدنية تتجلى في شخص جمال مبارك الابن مما يعني استبعاد العسكر المصريين وطموحاتهم الوطنية من ممارسة السلطة والسلطان .
٨. إن تولية الابن جمال مبارك رئيسا للجمهورية في مصر المعاصرة باعتباره وريث أبيه الرئيس مبارك .. وباعتباره شخصا مدنيا لا ينتمي عضويا للمؤسسة العسكرية المصرية سوف يطمأن الإدارة الأمريكية وإسرائيل بشأن تجميد حرب الخارج المصري وتعظيم حرب الداخل المصري لإسكات الأصوات المعارضة والمعادية لأمريكا وإسرائيل كما يطمأن كلاهما بشأن عدم بروز شخصية وطنية عسكرية يفرزها الجيش

المصري في حالة همود حرب الخارج مثلما أفرز مجموعة الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر خلال الحرب بيم مصر وإسرائيل ..

ومع هذا فإن مشروع قيام هذه الأسرة الجمهورية الوراثية يقابل بالرفض الشعبي المطلق وأنه في حد ذاته مخاطرة وأن تنفيذه محفوف بالمخاطر لأن ذلك المشروع السلطوي والوراثي لا يقارن أبدا بمشروع العائلة الملكية السابقة .. فزمن أفندينا محمد علي وطريقة اختياره واليا على مصر وما حققه من إنجازات رائعة وانتصارات عسكرية أدت إلى تأسيس مصر الحديثة وقيام الإمبراطورية المصري .. يختلف تماما عن زمن الرئيس مبارك وما سببه من حسرات وتناقضات تستبد بالمصريين كل المصريين الذين اقتربت عقولهم من التفجير المؤدي إلى وقوع . القارعة . ما القارعة .. وما أدراك ما القارعة .. صدق الله العظيم ..

الاستبداد الشرقي .. وظاهرة الجمهورية الوراثية

ما كان في حسبان مصري من المصريين المناصرين لقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وسقوط الملكية وإعلان الجمهورية أن تصبح هذه الجمهورية المصرية جمهورية وراثية يحتكر وراثتها فئة العسكر المصريين دون المدنيين . وذلك من منطلق القانون المغولي والمملوكي الذي يقضي بأن تقوم السلطة كل السلطة والحكم كل الحكم على أكتاف حملة السلاح وحدهم ، حيث لا يعترف بحقوق سياسية لسواهم وفقا لشريعة الاستبداد الشرقي وأهواله التي تجعل الولدان شيبا ..

ومن هذا المنطلق الوراثي والسلطوي وفور وفاة الرئيس البكباشي جمال عبد الناصر ورثه في رئاسة الجمهورية البكباشي والرئيس المقتول أنور السادات الذي ورثه أيضا بعد موته وقتله الجنرال الرئيس حسني مبارك .. وهكذا بتت مصر الحديثة والمعاصرة جمهورية وراثية فئوية عسكرية إلى ما شاء الله ..

ولكن جمهورية الرئيس مبارك طويلة العمر التي استمرت أربع فترات متتالية رأت أن النيل الخالد قد جرت خلاله مياه كثيرة مما ينبغي التغيير الوراثي والتفكير في صياغة وراثية سلطوية جديدة للجمهورية . بحيث تنتقل من وراثة العسكر للعسكر إلى وراثة سلطوية مدنية وعائلية .. ولهذا ما كان في حسبان مصري من المصريين أن يشهد بنفسه تتويجا

صارخا لولاية الجمهورية وتعميدا ملحوظا لشخص ولي العهد الجمهوري من خلال المؤتمر الثامن للحزب الوطني الحاكم الذي شارك في إعداده كل الحكام المصريين وهلل له تليفزيون الدولة وإذاعتها وصحافتها ورموزها وطبولها ، حيث انتهى ذلك المؤتمر بتعيين شخصيات قيادته الحزبية بواسطة الرجل الفرد رئيس الحزب والدولة حسني مبارك وكان من أهم وأبرز هذه التعيينات الحزبية والسلطوية تعيين ولده جمال مبارك أميرا لأمانة السياسات باعتبارها أمانة الأمانات في الحزب الوطني الحاكم . ولهذا علقت الإذاعات الأجنبية والناس كل الناس في مصر بأن هذا المؤتمر الحزبي كان تتويجا سلطويا لولاية العهد الجمهوري وتعميدا لولي العهد الجمهوري جمال مبارك .. ومن ثم فإن مصر المعاصرة تشهد قيام أسرة جمهورية حاكمة مثل أسرة أفندينا والي مصر محمد علي ..

والجدير بالذكر أن بدعة الجمهورية الوراثية سواء كان المورث عسكريا والوارث عسكريا أو المورث عسكريا والوارث مدنيا فهي بدعة سلطوية طفحت بها سياسات الاستبداد الشرقي مثلما فعل معاوية مع ولده لكي يقضي على دولة الخلفاء الراشدين التي قامت على مبدأ الشورى ..

إن الاستبداد الشرقي ظاهرة سلطوية متوطنة في بلاد الشرق منذ قيام الممالك العبودية من فرس وأشور وبابل دون مصر الفرعونية الإقطاعية المتقدمة التي لم تعرف النظام العبودي . ولقد تزايدت هذه الظاهرة الاستبدادية بعد زوال دولة الخلفاء الراشدين في الحكم الأموي والعباسي والتركي والمغولي والعثماني . ثم اختفت بعض الشيء ولكنها عادت في ظل حكم العسكر والعسكرة في مصر وسوريا والعراق وليبيا واليمن والسودان والأردن والسعودية ذات الحكم المدني والقبلي معا ..

ومن هنا فظاهرة الاستبداد الشرقي وظاهرة الجمهورية الوراثية الحديثة تربطهما علاقات تبادلية من خلال تواجدهما في بلاد الشرق فقط دون بلاد الغرب فالدولة الرومانية قد تأثرت بالديمقراطية اليونانية وتأثرت بقوانين الحكيم اليوناني سولون وبالفلسفة اليونانية فلسفة أرسطو وسقراط وأفلاطون وجمهورية وفلسفة أبيقور الاشتراكية . مما جعلها تفرز أول جمهورية ديمقراطية في التاريخ القديم . حيث ظهرت من خلال سقوط النظام الملكي الروماني القديم بفضل ثورة أحرار روما من الصناع والتجار والفلاحين والعبيد المحررين وقد تأسست الجمهورية الرومانية

من خلال الجمعية العمومية لأحرار روما كانت تنتخب مجلس الشيوخ الروماني الذي كان ينتخب بدوره قنصلين كل عام يقومان مقام رئيس الجمهورية الرومانية ..

وكان دستور الجمهورية الرومانية ينص على أن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجوز قتله .. وكل من يحاول أن يتولى منصبا عاما من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام .. وكل مواطن يحكم أحد الحكام بإعدامه أو جلده يحق له أن يعرض أمره على الجمعية العمومية .. وأن عقوبة الإعدام في وقت السلم من حق الشعب وحده ..

ومن القوانين المهمة التي أصدرتها الجمهورية الرومانية قانون توزيع الأرض الزراعية المملوكة للدولة على الفلاحين الفقراء وقانون إباحة زواج أبناء العامة من أبناء الأشراف ..

هذه هي الجمهورية الرومانية القديمة التي ولدتها الديموقراطية اليونانية مما جعلها الأم الكبرى للجمهوريات القديمة في أوروبا سواء كانت اشتراكية أو رأسمالية هذه الجمهوريات التي لم ولن تعرف الوراثة السلطوية والجمهورية لبعدها عن تأثيرات الاستبداد الشرقي .. هذا الاستبداد الذي جاء بالجمهورية الوراثية في سوريا والذي دفع الكثير من الحكام في بلاد الشرق إلى إعادة تنفيذ الجمهورية الوراثية في مصر وفي أذربيجان الشيوعية السابقة وفي ليبيا واليمن ..

ولكن الجمهوريات الوراثية المبتدعة التي تأسست والتي في طريق التأسيس في بلاد الشرق واستبداده الشرقي ذات ظروف مختلفة . هذه ظروف لم تشغل بال السادة المصريين فخططوا أمر تنفيذ الجمهورية الوراثية في مصر المعاصرة ..

فالجمهورية الكورية الديمقراطية في الشرق الأقصى في آسيا ذات شعب أغلبيته يعتنق الفكر الشيوعي ويسوده مزاج اشتراكي مما جعله يفرز حزبا شيوعيا قويا وجيشا شيوعيا قادرا على مواجهة الاستعمار ورأس المال ، هذا الشعب الشيوعي الذي استطاع أن يحرر نفسه من الاستعمار الياباني ويبني صرح النظام الاشتراكي في كوريا الديمقراطية وأن يسحق الجيش الأمريكي في حروب كثيرة وأهمها حرب عام ١٩٥٠ التي شهدت هزيمة الجيش الأمريكي ومعه عشرات الجيوش العميلة هزيمة منكرة . وفضلا عن هذا فالشعب الكوري الشمالي يحظى بدفء جوار

الصين الشيوعية وفيتنام الشيوعية . ومن ثم فإن إرادته وحده هي التي حققت الجمهورية الوراثية ..

وكذلك فالجمهورية الوراثية السورية ذات جيش علوي وبعثي وحزب اشتراكي والشعب السوري يسوده شيء من الرضا الاجتماعي رغم تجاوزات السلطة السورية "التي تعتمد على الوحدانية السياسية" ضد الديمقراطية والحريات العامة ، وبالتالي فإن إرادة الجيش السوري العلوي والبعثي وإرادة حزب البعث الاشتراكي والأحزاب المتحالفة معه . وإرادة قطاعات كبيرة من الشعب السوري هي التي اختارت بطريقة ما قيام جمهورية وراثية في سوريا تجنبا من وقوع صراع عسكري في الجيش وصراع حزبي في حزب البعث الحاكم ولهذا فالجمهورية الوراثية في سوريا كانت هي الحل الأمثل ..

هذه هي الظروف التي ساندت قيام الجمهورية الوراثية في كوريا وسوريا التي غفل عنها سادتنا الحكام الذين بادروا بإعداد الجمهورية الوراثية في مصر المعاصرة ذات الجيش الوطني المحترف الذي لا شأن له بالسياسة وذات الحزب الوطني الحاكم الذي لا يحظى بأي تراث نضالي أو وطني والذي طفحت به السلطة مما جعله حزبا مترهلا مصابا بالورم الفيلي عضويته دفترية ومظهرية تعرف قصدها في تحقيق مصالحها وأطماعها وفي تحصين نفسها ضد أي مساءلة خلال ممارستها للفساد والاستبداد ولهذا فعضوية الحزب الوطني الحاكم لا شأن لها بالتضحية الوطنية .. يضاف إلى ذلك فإن القوى الوطنية واليسارية والديمقراطية معبأة بالسخط الاجتماعي بسبب تفشي الفساد والاستبداد وغياب العدل في توزيع الثروة القومية مما أدى إلى البطالة وانتشار الفقر ..

ولذلك فالشعب المصري يرفض الجمهورية الوراثية الفئوية والعسكرية العائلية والمدنية رفضا مكتوما تخفيه الصدور كل الصدور في مصر المعاصرة .. وحتى لو قامت الجمهورية الوراثية بقوة الاستبداد الشرقي وسياساته فسوف تواجه بصعاب غير محدودة . وصراع لا يتوقف بسبب الأمور التي سبق عرضها بشأن الحال المصري وأوضاعه البائسة ..

قال الإنترنت لا فض فوه الوريث الذي لا ينازع :

إن أوضاع الحكم في بلادنا تجاوز التعليق عليها مرحلة التحليل ، نحن أمام مستنقع من التدهور الأخلاقي والفساد .. ماله من قرار .. وأصبح الحديث في ذلك من نافلة القول .. ولذلك فإننا نركز على العمل .. بعد أن مللنا من الأقوال ..

ولكن لا بأس من عرض بعض الحقائق المذهلة .. حول عملية توريث الحكم .. من مبارك الأب للابن .. مع ملاحظة أننا نعيش في وهم كبير .. اسمه احتمال توريث الحكم .. بينما لقد تم التوريث بالفعل .. فالبلد يديرها الآن جمال وثلة من أصحابه .. أما الأب فهو يوزع النياشين .. ويحضر بعض المناسبات العامة .. أما لجنة السياسات التي يرأسها الابن .. فهي التي تسير السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ويبدو أن التوريث الرسمي قد يحدث عام ٢٠٠٥ حيث يكون الابن قد بلغ السن الدستورية (أربعين سنة) .. فهناك وجهتا نظر في الثلة الحاكمة الأولى أن يتم التوريث في حياة الأب .. حتى يطمئن على استقرار الابن في الحكم .. ووجهة نظر أخرى .. ترى أن التوريث بعد وفاة الأب . ولكن تحسبا لكل الاحتمالات يتم حرق المراحل بسرعة .. وفرض هذا "الشاب" علينا بقوة السلاح !!

"الوريث الذي لا ينازع" كان عنوان تقرير نشرته مجلة بيزنيس ويك الأمريكية في ٢٠٠١/١١/٥ وكتبه اثنان من الراسلين في القاهرة ستانلي ريد وسوزان بوستلويت .

أخطر ما في التقرير أنه يكشف عالم البيزنيس لجمال مبارك ، وهو أمر يتعارض بشدة مع خطة تسليمه الحكم .. ذلك أن عالم المال والأعمال .. غير عالم السياسة والحكم .. والخلط بين الاثنين هو من أبرز علامات الحكم الفاسد ، بمعايير الشريعة الإسلامية ، وبمعايير القوانين الوضعية الغربية (من الناحية النظرية) .. وهذا مع افتراض حسن النوايا .. فما بالنا أن هذا الشاب لم يبدأ في عالم الأعمال من الصفر .. بل من القمة وباعتباره ابن رئيس الجمهورية .. كذلك فإنه تربح من ديون مصر وهذه وصمة عار في جبينه وجبين والده (كان مبارك الأب قد أجرى حديثا مع الأستاذ مكرم محمد أحمد في المصور بمناسبة اقتراب موعد الاستفتاء في

عام ١٩٩٣ .. وعندما تطرق الحديث إلى الابن جمال .. قال مبارك أنه يعمل في بنك بإنجلترا وأنه شارك في شراء وبيع ديون مصر ، وحقق البنك الذي يعمل به أرباحا من وراء ذلك) . وقد علمنا فيما بعد أن الأستاذ مكرم نشر هذا الكلام على سبيل الخطأ ، وأن مبارك كان يتحدث له في هذه النقطة دون أن يتصور أن مكرم سينشرها . وقد غضب مبارك من هذا النشر ولكنه يتسامح مع رؤساء التحرير التابعين له .

ونحن نسمع عن الأخوين علاء وجمال من الأساطير كثيرا .. ولكن كيف لنا أن نكتب دون وثائق ومستندات .. بل إن هذه الأساطير والحكايات أو الشائعات تستند إلى أنهم يشاركون رجال الأعمال شفويا .. ولا تكتب أسمائهم في أي عقود ..

ولذلك فقد آثرت الصمت طوال هذه السنين في الكتابة عن الأخوين (علاء - جمال) .. ولكن الآن فإن مجلة بيزنيس ويك الأمريكية أعطتنا بعض المواد عن أشياء في عالم المال والأعمال لجمال مبارك . فبعد المعلومات المعروفة عن تخرجه من الجامعة الأمريكية وعمله في بنك أوف أمريكا في القاهرة ولندن . وهو البنك الذي كان يتحدث عنه الرئيس مبارك الأب في حديث المصور . يضيف التقرير أن جمال مبارك أسس شركة مالية خاصة في مجال الأسهم والسندات اسمها ميد إنفيست med invest .. أما جمعية شباب المستقبل فتتعاون مع مدرسة هارفارد ..

والغريب أن التقرير الصادر عام ٢٠٠١ - وحتى قبل أن يتولى جمال لجنة السياسات - يؤكد أن جمال وراء زيادة الاستثمارات الأجنبية في مصر ، وإنه وراء تخفيض الجنيه المصري وأن له دوره في ازدهار قطاع الهواتف المحمولة (فودافون - موبينيل) ونموه السريع . واحدة إنجليزية والثانية ملك ساويرس .. وبرجاء ملاحظة حالة الهوس التي تعيشها البلاد بسبب الهواتف المحمولة .. والأرباح الطائلة التي تحققها هاتان الشركتان .. وضياع دخول الأسر في هذا الإنفاق السفيه الذي تم تحت ضغط أضخم حملة إعلانية ..

يقول التقرير (الشائعات تنتشر في القاهرة حول الرئيس مبارك وعائلته وتشير إلى أنهم يحققون مكاسب من العمل الحكومي ، وقال ممول قاهري أنه عندما كان مبارك الصغير يعمل في المصرف الأمريكي - بنك أوف أمريكا - في الثمانينات كان يحصل على الموافقات الحكومية بشكل أسرع

من المصارف الأخرى المنافسة ، وذلك فيما يخص برنامج استبدال الديون التجارية بسندات أو أسهم في شركات أو مواد تصديرية "كانت حقلا للمنافسة" حسب قول هذا الممول) ..

ويضيف التقرير الأمريكي (أن جمال ترك مهمة تدبير التمويل لشركته للأوراق المالية إلى شركة هيرميس EFH فتولت تدبير المال وجلب الاستثمارات الممكنة ، ويقود مبارك الصغير لجنة استثمارات تدير أمواله ، وتقدر هذه الاستثمارات ب ١٠١٠ مليون دولار (أي ٧٠٠ مليون جنيه) .. وهذا يقترب من ضعف قيمتها عندما بدأت نشاطها في ١٩٩٧ ويرى المستثمرون أن هذه نتيجة طيبة (!!) خاصة فيما بعد انهيار بورصة القاهرة للأوراق المالية بمعدل ٧٠% ، وهذه الشركة استثمرت أموالها في شركات تكنولوجية ، مثل شركة مصر فون للاتصالات كشركة تابعة لشركة فودافون والمقرر أن تطرح أسهمها للجمهور . ومبارك الصغير يكرس نصف وقته هذه الأيام للأعمال المالية والتجارية ، ويقضي النص الآخر في الخدمة العامة) . انتهى الاقتباس ..

ابن رئيس الجمهورية يعمل إذن في عالم المال والأعمال .. جهارا نهارا . وأخيرا وجدنا له شركة واحدة بحوالي ثلاثة أرباع مليار جنيه مصري .. وبينما انهارت البورصة بنسبة ٧٠% حقق هو مكاسب ب ١٠٠% .. ترى من سيرفض لشركة ابن الرئيس طلبا في توقيت البيع والشراء ..

ونفهم من التقرير أن الشاب منهمك نصف الوقت على الأقل في إدارة أمواله واستثماراته وأن عينيه على البلدان المجاورة (ربما يقصد ليبيا) .. هل شاب بهذا التكوين يصلح لقيادة مصر ؟! إن رجل الأعمال عموما لا يصلح لهذا المنصب ، فما بالكم برجل أعمال غير حقيقي .. أي استند إلى مكانة والده ليحقق نجاحا مزعوما وثروات .. فالحقيقة أن المتاجرة في ديون مصر - التي تسبب فيها الأب - ليست نجاحا ، والمشاركة في شوكة إنجليزية للمحمول .. ليست نصرا مؤزرا في عالم المال والعمال .. إذا كنت ابنا للرئيس ..

والحقيقة فقد كان من الأصل أمر غير كريم ، أن يعمل ابن رئيس الجمهورية في شركة أو بنك أجنبي .. وكان من غير الكريم أكثر .. أن يعمل في فرع البنك في إنجلترا أي في بلد أجنبي .ز فإن جاز للمواطن

العادي أن يرسل ابنه للخارج بعقد عمل مجز فإن ابن رئيس جمهورية بلد بوزن مصر ما كان له أن يكون موظفا عند بنك أجنبي .. حتى وإن كانت دولة صديقة .. حتى وإن لم تكن أمريكا اللدودة .. فما بالكم أن يذهب للعمل في فرع خارجي . هناك أصول وتقاليد وأعراف .ز تمنع ذلك ، وليس بالضرورة أن تكون هناك قوانين لذلك .. فلابد من احترام مكانة الرئاسة وأيضا مراعاة الأمن القومي ..

وهذه هي النتيجة لقد اصبح الشاب الصغير أكثر حبا للغرب من تقاليد وعقيدة بلاده .. وهو يتحدث فلا تظهر في أحاديثه ثقافة وطنية أو قومية أو دينية .. بل يوصف بأنه يتحدث بلكنة أمريكية .. ويفهم العقلية الأمريكية ..

وأن يصبح ابن رئيس الجمهورية لاعبا أساسيا في عالم الاستثمار .ز في وقت يحرم الدستور على الأب ممارسة الأعمال التجارية .. فهذا تلاعب بالدستور .. وهذا هو الأساس المادي .. أو هذه هي البنية التحتية للفساد .. في نظام يكون الحاكم فيه هو الكل في الكل .. (رئيس الجمهورية - رئيس الجيش - رئيس الشرطة - رئيس القضاء - رئيس الحزب الحاكم - رئيس مجلس الوزراء - هو الذي يختار مجلس الشعب - رئيس عدد لا نهائي من اللجان) .. والجميع يعمل وفقا لتوجيهاته السامية وحكمته التي لا مثيل لها في الأرض ولا في السماء .. فمن الذي يجرؤ على جرح مشاعر ابنه في عالم الاستثمار ..

ويا ليته فعل شيئا مهما أضاف للاقتصاد .. حتى نتجاوز عن ذلك .ز فإن كان مثلا أسس شركة خاصة لإنتاج الأقمار الصناعية .. فربما كنا صمتنا من أجل المصلحة العامة .. أما أن تكون مشاركته في مجال مصر فون .. وفودا فون .. نقول : يفتح الله .. ولن نسكت على هذا الفساد ..

المادة (٨١) من الدستور تقول :

(لا يجوز لرئيس الجمهورية أثناء مدة رئاسته أن يزاول مهنة حرة أو عملا تجاريا أو ماليا أو صناعيا أو أن يشتري شيئا من أموال الدولة ، او أن يؤجرها أو يبيعها شيئا من أمواله أو أن يقايضها عليه) .. وهذا النص لا يجوز التحايل عليه من الأبناء ..

الفصل السادس
أحوال المصريين في عهد مبارك
زفت وطين وخراب

الرأسمالية الجديدة صناعة سلطوية

بعد هزيمة ثورتنا العرابية واحتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ بدأ المجتمع المصري في إفراز طبقته الرأسمالية رويدا رويدا من صفوف طبقة الإقطاعيين وطبقات التجار والحرفيين .. ولقد تم إشهار وجود هذه الطبقة في العقد الثاني من الألفية الميلادية الثانية من خلال إقامة أول غرفة تجارية بواسطة طلعت حرب وغيره من طلائع هذه الطبقة الرأسمالية والوطنية هذه الطبقة التي قد تجلت في شخص أحمد باشا عبود رائد صناعة السكر والأسمدة والسفن . وفرغلي باشا تاجر الأقطان وصاحب محالج القطن . والعتال في صناعة الغزل والنسيج والسيد ياسين في صناعة الزجاج وأحمد حمزة في صناعة الثلج والعطور ومحمد سالم وفؤاد درويش في صناعة النقل والأتوبيس .. هذه الشخصيات الرأسمالية كانت معروفة ومشهورة لدى كافة المصريين في النصف الأول من القرن العشرين .. ولقد توارت هذه الشخصيات الرأسمالية وغيرها فور قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتحقيق اشتراكيتها الناصرية ..

وفي عهد الرئيس المقتول أنور السادات وانفتاحه الاقتصادي . وتساقط أموال المعونات والقروض العربية والأجنبية على مصر الرسمية بالمليارات بعد حرب أكتوبر ضد إسرائيل بدأت تظهر الطبقة الرأسمالية الجديدة التي تساقط في جوفها الكثير من هذه الأموال إلى حد أن الشعب المصري كان يردد مقولة تقول .. من لم يغتني في عهد السادات فلن ولم يغتني أبدا .. وإلى حد أن الموظف الغلبان بشركة أتوبيس شرق الدلتا المتهم في تهمة اختلاس بواسطة شرطة النقل مما أدى إلى سجنه بسجن المنصورة أثناء التحقيق معه قد حقق ثروة تقترب من ملياري جنيه في عهد شقيقه الرئيس أنور السادات الأخ الأكبر للموظف المسكين أبو العيال الكثيرة العدد والزوجات الكثيرات طلعت السادات الذي أصبح مليارديرا بقدرة قادر ..

إن هذه الطبقة قد تضخمت أكثر فأكثر في عهد الرئيس مبارك واصلاحه الاقتصادي حيث تكونت من فئة ضباط الجيش والشرطة وأولادهم .. ومن فئة الوزراء والمحافظين وأولادهم ومن بعض أساتذة الجامعات وأعضاء مجالس إدارات شركات القطاع العام ونواب مجلسي الشعب والشورى وأولادهم وذلك بالإضافة إلى شخصيات الأغنياء القدامى بالداخل والخارج ويتقدم الجميع علاء مبارك ابن رئيس الجمهورية والقاسم المشترك شفويا في كل النشاط الرأسمالي المصري .. ومن هؤلاء وهؤلاء تشكل تحالف السلطة وعساكرها ورأس المال ورجاله في مصر وخارج مصر ..

وإن هذه الطبقة الرأسمالية الجديدة لم يفرزها المجتمع المصري بدليل أن تراكمها المالي لم يتجمع ويتكون بواسطة نشاطها الرأسمالي في المجتمع المدني .. ولكنها جمعت ثرواتها في أغلب الأحيان من الرشاوي والبرطلة ومن اختلاس المال العام ومن نهب القطاع العام يشهد بذلك واقعة الحباك رئيس الشركة القابضة للصناعات المعدنية . ولهذا فكل هؤلاء السادة الرأسماليين من صنف الحباك ومن عينة محافظ الجيزة المستشار ماهر الجندي ..

يقول رجل الشارع في مصر أن السادة الرأسماليين الكبار علاء مبارك .. وأبو العينين .. وأحمد عز .. والعيوطي أسماء مغمورة لم نسمع عنها إلا حالة وجودها المفاجئ في عالم المال وظهورها في أضواء السلطة باعتبارهم حاكمين ومالكين .. ولكن ينبغي على القارئ أن يعرف أسماء هذه الطبقة الحاكمة والمالكة من خلال الإطلاع على براويز النعي الفخيمة بجريدة الأهرام التي ابتدعت في أيام الرئيس حسني مبارك . ففي هذه البراويز اليومية سوف نجد خارطة طبقة رأس المال المصري الجديدة وأزلامها واحدا واحدا .. هذه الخارطة التي تثبت أن عدد أفراد هذه الطبقة الرأسمالية المتوحشة ومعها أفراد حاشيتها وأزلامها لا يزيد عددها عن خمسة في المائة من عدد سكان مصر ومع هذا فقد استولوا على أكثر من نصف الثروة المصرية بالنهب والسرقة ..

الرأسماليون المصريون السلطويون

لصوص ومخربون

كان الإعلام المصري الرسمي والسلطوي يبشرنا بأن الرئيس حسني مبارك قد بادر بالإصلاح الاقتصادي لكي يحقق للشعب المصري الخبز والزبد والعمل والرخاء .. ولكن تسري الرياح بما لا تشتهي السفن ..

فالرأسماليون المصريون لأنهم سلطويون مثلهم مثل ملوك إقطاعيين لا يوجه إليهم ولا يسري عليهم قانون مارسوا التخريب واللصوصية بفجر ووقاحة بقصد تخريب مصر مما اضطر رئيس الجمهورية حسني مبارك للاعتراف بوجود أزمة اقتصادية في حديثه لرئيس تحرير وكالة أنباء الشرق الأوسط في ١٥ يناير سنة ٢٠٠٠ حيث فسر الأزمة تفسيرا صوريا (وكان الشعب المصري قد أصابه البله) .. فالأزمة في حديث الرئيس مبارك هي محصلة مجموعة من الأخطاء والتراكمات بدأت من عام ١٩٩٦ حتى عام ١٩٩٩ .. وفي تقرير لمجلس الشورى يفسر نفس الأزمة بشكل صوري أيضا حيث يقول التقرير الذي وضع في نوفمبر سنة ٢٠٠٢ .. من المسلم به أن كثيرا من الإحصائيات الرسمية التي تصدرها الدولة تفتقد الدقة وتتناقض مع بعضها البعض الأمر الذي يؤثر سلبيا على استخدامها .. وعلى الصعيد الداخلي يواجه الاقتصاد المصري من عدة سنوات العديد من المشكلات التي أدت إلى تباطؤ معدل النمو الاقتصادي .. والانخفاض التدريجي في قدرته على خلق فرص عمل حقيقية جديدة الأمر الذي أدى إلى تفاقم مشكلة البطالة . وخلال السنوات القليلة الماضية أخذ الاقتصاد القومي يواجه حالة من الركود تحولت تدريجيا إلى حالة من الكساد .. إن السياسة الحكومية أدت إلى زيادة أسعار الكثير من خدمات المرافق العامة والمواصلات والاتصالات والكهرباء ومياه الشرب والصرف الصحي ..

واعترف د. عاطف عبيد رئيس الوزراء أمام مجموعة الرأسماليين الاستثماريين في شرم الشيخ في فبراير ٢٠٠٢ بوجود انخفاض في الناتج القومي بنسبة تتراوح ما بين ٤% إلى ٤,٥% .. وانخفاض في فرص العمل بنحو ٣٧٠ ألف فرصة عمل . وانخفاض احتياطي النقد الأجنبي في العام المقبل بنحو مليارين و٢% دولار . وفجوة في ميزان المدفوعات

تقدر بمليارين ونصف دولار .. بالإضافة إلى تراجع في شراء باقي القطاع العام.. وكل هذه المصائب يحملها رئيس الوزراء على عاتق أحداث ١١ سبتمبر في أمريكا وتأثيرها على الاقتصاد المصري ..

مع العلم أن الاقتصاد المصري يعاني الكثير من المصائب الاقتصادية والاجتماعية من سنوات طويلة .. أولها استمرار تخلي الحكومة عن مسئولية وعجز القطاع الخاص الرأسمالي عن سد الفراغ الناتج عن بيع القطاع العام . ولهذا تقدر السفارة الأمريكية في تقريرها عن الاقتصاد المصري الصادر في يوليو ٢٠٠٢ أن معدل النمو يتراوح من صفر% إلى ٢% بينما كان ١,٣% عام ٢٠٠١ و٣,٩% عام ٢٠٠٠ و٤,١% عام ١٩٩٩ ..

ومما يلفت النظر كما يقول التقرير السياسي لحزب التجمع الصادر في ٢٠٠٣ أن الاستثمار الإجمالي في الفترة من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٩ بالنسبة للناتج المحلي الإجمالي كان ٢٩% انخفض في التسعينات إلى ١٧% في ظل سياسات الإصلاح الاقتصادي الرأسمالي . وإن كان مفهوما انخفاض استثمارات القطاع العام من٤٢% إلى ٣٢% فمن الصعب فهم تراجع استثمارات القطاع الخاص من ١٧% إلى ١١% .. بالإضافة إلى ذلك فإن قوى الإنتاج في مصر تعمل بنصف طاقتها باعتراف د. عاطف عبيد ..

هكذا فعل الرأسماليون السلطويون والمخربون الذين يعيشون في نعيم دنيوي لا مثيل له فغذائهم من لحم النعام ولحم الطاووس ولحم الغزال ومن الألبان والأجبان والخبز الفرنسي والحلويات الأوربية وقد شيدوا قصورا وقرى لا حصر لها على الساحل الشمالي والساحل الجنوبي وعلى ضفاف بحيرة التمساح . هذه الغابات والمنتجعات السكنية الفخيمة تكلفت أكثر من مائتي مليار جنيه . وفي هذه المنتجعات الصيفية والشتوية تقام حفلات ألف ليلة وليلة واستعراضات السابحات الفاتنات العاريات ..

والأمر الغريب أن رئيس الوزراء عاطف عبيد قد جامل هؤلاء السادة الرأسماليين ببناء مستشفى عام في كل خمسين كيلو متر على هذه السواحل بينما لم يتفضل ببناء مستشفى واحد على طريق الصعيد حيث يقيم نصف الشعب المصري المغلوب على أمره ..

والأدهى من ذلك أن هذه الطبقة الرأسمالية السلطوية المترفة تستورد بضائع كمالية لإشباع حاجتها الاستهلاكية بمبلغ إحدى عشر مليار دولار

خلاف السيارات حسب تقدير مركز التعبئة والإحصاء وفي حفل زفاف واحد أقامته أسرة من هذه الطبقة قدرت تكاليفه سبعة ملايين ونصف من الجنيهات وهكذا ففريق في الجنة وفريق في السعير ..

إن هؤلاء الرأسماليون السلطويون لم يكتفوا بتخريب مصر واقتصادها علما بأن مصر ليست مفلسة ولكنها منهوبة بواسطة تحالف العسكر ورأس المال أو بواسطة السلطة والطبقة الرأسمالية .. ولم يكتفوا أيضا بحياة البذخ وعيشة الترف التي يعيشونها وسط الشعب المصري الأجير والفقير الذي يعيش عيشة الفقر والقهر والجوع والمسغبة على ضفاف النيل الخالد .. لم يكتفوا بهذا وذاك فبادروا بسرقة مصر وبنوك مصر مستغلين في ذلك علاقاتهم السيادية بالسلطة والسلطان ومستغلين قدرتهم على رشوة وبرطلة السادة قيادات هذه البنوك الوطنية وللأسف ..

تقول جريدة الأهرام العربي أن ٢٦ من أبرز رجال الأعمال مديونون للبنوك بأكثر من ١٠٠ مليار جنيه .. ويقول الأستاذ الصحفي مجدي حسين .. إذا رجعنا لأسماء هؤلاء السادة فسوف نجدها هي التي تتبرع - مثلا لمشروعات السيدة قرينة رئيس الجمهورية فهم لا يدفعون شيئا من جيوبهم بل من قروض البنوك أي من أموال الشعب المصري .. وسنجد أيضا ارتباطا حميما بين أصحاب المليارات وأصحاب السلطة السياسية ..

ويقول أحد تقارير البنك المركزي المصري أن مديونية رجال الأعمال في القطاع الخاص بلغت ٩٩,٤ مليار دولار وأن كثير من هؤلاء "رافض" السداد اعتمادا على سندهم السلطوي الجبار ..

ولكن عدسة الشعب المصري اللامة كشفت بعض هؤلاء الرأسماليين السلطويين السراق والنهابين مما أدى إلى وضع نظام الحكم على قرني الإحراج فحاول تقديمهم إلى المحاكمة .. ولكن هذه المحاولة وصلت أخبارها لهؤلاء اللصوص فاسرعوا بالهرب مرتدين عباءة السلطة والشرطة معا . هذه العباءة السحرية التي هربت عشرات المليارات خارج حدود مصر لصالح أشخاص تحالف العسكر ورأس المال يؤيد ذلك ما رصده الدكتور حمدي عبد العظيم الخبير الاقتصادي بأكاديمية السادات من هروب ٣٦ مليار دولار سنة ١٩٩٨ .. ولقد تم الهروب رغم وجود أوامر بمنع أكثر من ألفي رأسمالي منهم ١١٢٦ من رجال وسيدات أصحاب

الأعمال وفقا لما صرح به مصدر قضائي بوزارة العدل علـــى حـــد تعبـــير الصحفي الأستاذ مجدي حسين..

وفي هذا السياق الهروبي نقدم دفعة الهاربين في عـــــام ٢٠٠٠ وهـــم محمود وهبي المدين ب٤٨٠ مليون جنيه . رامي لكــــح المديـــون ب١,٤ مليار جنيه حازم الهواري المديـــن ب٢٥٠ مليـــون جنيـــه . والمســـتثمر اليوناني الأصل مارك دوارف المديــــن ب٧٠٠ مليـــون جنيـــه . وعليـــة العيوطي ب١٤٠ مليون جنيه . والبليدي بمبلغ ١٤٨ مليون جنيه . وماهر قيصر ب٩٥ مليون جنيه . عبد الرحمن متكيـــس ٥٠٠ مليـــون جنيـــه . جيفري بشاي مديون ب٦٠ مليون جنيه . هشام عمارة ٧٠ مليون جنيـــه . محمد الغريب ٢٧ مليون جنيه للبنوك ومدين ب٢٥ مليون جنيه لشـــركات عامة . النمس ٥ ملايين لشركة عامة . ليلى الفار وعلاء الســـيد ب٣٠٠ مليون جنيه ..

الفساد السلطوي

وباء قومي في مصر

عرفت مصر الفساد ومشتقاته (من رشوة وبرطله ونـــــهب واختـــلاس وسرقة) .. في ذروته وأقصى مداه في العصـــــر المملوكـــي والعثمـــاني . فالأجناد المماليك والعساكر العثمانيين وأمراؤهم وبشـــــاواتهم وســـلاطينهم يمارسون هذا الفساد ومشتقاته مما دفع مؤرخنا المقريزي إلـــــى وصـــف المملوك وكل مملوك بأنه أشرس من الذئب وأزنى من القرد وألـــص مـــن الفأرة ..

وللأسف فإن هذا الفساد السلطوي بعينه قد تفشى في مصر المعـــاصرة مصر الرئيس مبارك حتى أصبح وباء قوميا فإذا دخل المواطن المصـــــري أي مكتب حكومي فلن ولم يستطيع قضاء مصلحة قانونية أو غير قانونيـــة مل لم يرشي الموظف الحكومي سواء كان كاتب محكمة او محضر قضـــائي أو مهندس في مجلس مدينة .. وحتى الشرطة فإن أمين الشـــرطة وربمـــا ضابط الشرطة يحقق محضره وتحرياته بالنقد والعد . فضلا عن أن جنيـــه الشرطة يشبه الجنيه الجيشي في العهد الأيوبي في قدرته الشرائية الجبارة . فضابط الشرطة المصري يحظى بجنيه يشتري به كل شيء ويعود إلـــى

صاحبه سالما وكذلك المدرس المربي أصبح غولا اجتماعيا في ممارسة الدروس الخصوصية بأجور خرافية هي الرشوة بعينها ..

وفي تقديري أن فساد صغار الموظفين له أسبابه التي تبدو في ضآلة المرتبات والأجور وفي تفشي مرض التطلعات والأطماع الطبقية من جراء جنون الدعاية الاستهلاكية ويبدو في انعدام الرقابة الفعلية على هؤلاء الموظفين الصغار ..

ولكن الأدهى من ذلك فساد كبار موظفي الدولة من وزراء ومحافظين ووكلاء وزارة وأعضاء في مجلسي الشعب والشورى وقيادات الحزب الوطني الحاكم . هؤلاء السادة الفاسدين الذي اضطر نظام الحكم إلى كشف بعضهم دون البعض لكي يتوضأ أمام الشعب لإشهار براءته منهم بعد خراب بصرة ..

ففي تقرير النيابة الإدارية المقدم إلى رئيس الجمهورية فقد تم ضبط ٦٤ ألف قضية عام ٢٠٠١ بزيادة ٧٠٠ قضية عن عام ٢٠٠٠ .. ويشير المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عام ٢٠٠١ إلى وجود ١٢٢١ قضية اختلاس واستيلاء وإضرار بالمال العام ورشوة وتربح .. وفي تقرير حول انهيار المباني نتيجة الفساد والبناء بدون ترخيص في الفترة من أغسطس ٢٠٠١ وحتى فبراير ٢٠٠٢ بلغ عدد الضحايا ١٣٠ قتيل ومصاب..

كما بلغ حجم الأموال القذرة أو الاقتصاد السري في مصر الناتج من أنشطة غير مشروعة ١١,٣% من الناتج المحلي الإجمالي .. ومن أهم مصادر هذا الاقتصاد الأسود الذي شاع في هذه الفترة الأموال الناتجة من الفساد السياسي والإداري والاقتصادي وانتشار الرشوة والعمولات التي تقدر بنحو عشرين مليار دولار . وأن مسئولية هذا الفساد السلطوي وانتشاره يتحمل مسئوليتها شخص الرئيس مبارك باعتباره الرجل الفرد المهيمن على السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية وكذلك السلطة القضائية . ويتحمل مسئوليتها الحزب الوطني الحاكم ومجلس الشعب متضامنين معا لأن تسعين في المائة من أعضاء مجلس الشعب أعضاء في الحزب الوطني الحاكم وبالتالي فإن ثالوث الرئيس .. والحزب الوطني الحاكم .. ومجلس الشعب هم المسئولون الرئيسيين عن تفشي الفساد السلطوي في مصر المعاصرة .. لأن السلطة كل السلطة في أيديهم ولأن كل السادة

المسئولين الفاسدين يمثلون عصب نظام الحكم ويعتبرون جزءا من دمه ولحمه ..

يؤيد ذلك وجود ستة عشر جهازا رقابيا مثل المدعي العام الاشتراكي والرقابة الإدارية ومباحث الأموال العامة وجهاز الكسب غير المشروع وجهاز الأمن القومي وغيرهم وغيرهم .. كل هذه الأجهزة الرقابية لا تخطو خطوة واحدة إلا بأمر سلطوي وسيادي وإذا خالفت تعرض المسئولون بها للويل والثبور وعظائم الأمور . كما حدث للرقابة الإدارية في عهد الرئيس المقتول أنور السادات حيث صدر قرار جمهوري بتفكيك الرقابة الإدارية وتسريح كل المسئولين والموظفين بها بسبب توظيف حقهم القانوني في الاقتراب من زلم فاسد من أزلام الرئيس المقتول أنور السادات ..

وفضلا عن هذا فإن القوانين المنافية لمبدأ المساواة أمام القانون والمساواة أمام القضاء تحجم نشاط وقدرات الأجهزة الرقابية .. فقانون الكسب غير المشروع "من أين لك هذا" لا يسري على رئيسي مجلسي الشعب والشورى ورئيس الوزراء والمحافظين ورؤساء الهيئات العامة .. ولهذا لا يتعرض هؤلاء المسئولين لأي محاسبة جنائية أو إدارية أثناء شغلهم لوظائفهم طبقا لهذا القانون . كما يمنع نفس القانون القيام بتفتيش مسكن أو مكتب المتهمين من هؤلاء السادة دون الحصول على إذن من وزير العدل . ولابد من الحصول أيضا على إذن من النائب العام والوزير المختص قبل الشروع في التحقيق .. وينص قانون العاملين بالدولة على عدم التحقيق مع كبار العاملين إلا بعد موافقة رئيس مجلس الإدارة .. ولا يحقق مع رئيس مجلس الإدارة إلا بعد موافقة الوزير .. ولا يوجد حاليا قانون لمحاكمة الوزراء أثناء وجودهم في الوزارة .. وأن مجمل الأجهزة الرقابية في مصر لا تستطيع اتخاذ إجراء إلا بعد الموافقة الصريحة من السلطات السياسية بالذات ..

هكذا قدم النظام المصري الحماية القانونية والسياسية وعطل الدستور بشأن مبدأ المساواة بين المواطنين .. وبشأن محاكمة الوزراء بنص المادة ١٥٩ من الدستور مجاملة للمسئولين الفاسدين في مصر المعاصرة ..

خراب الصناعة والزراعة

وتفشي الفقر والبطالة والإفلاس

لا خلاف على أن الرئيس المقتول أنور السادات أول من انقلب على الاشتراكية الناصرية وبدأ في هدم مؤسساتها المادية والروحية عشقا في أمريكا وحبا مجنونا للرأسمالية ورأس المال مما جعله يبادر بالانفتاح الاقتصادي لرأس المال المصري والعربي والأجنبي . ولكن الموت عجل به فخلفه الرئيس حسني مبارك الذي مشى على درب سلفه فواصل هدم الاشتراكية الناصرية ومؤسساتها رويدا رويدا مما مكنه من القيام بانقلابين اجتماعيين متتاليين الانقلاب الأول تمثل في صدور قوانين الخصخصة وبيع القطاع العام ، وتمثل الثاني في صدور القانون رقم ٩٦ لسنة ١٩٩٢ بشأن القضاء على الإصلاح الزراعي وتفكيك العلاقة الايجارية بين الملاك والفلاحين لصالح الملاك . وصدور قانون يسمح للأجانب بتملك واستثمار الأراضي الصحراوية بدون حدود لأول مرة في مصر الحديثة ..

حدث الانقلاب الأول والثاني تحت شعار الإصلاح الاقتصادي الأمريكي الجنسية والتبعية والرأسمالي الطبع والطبيعة الطبقية ..

إذن فإن الوحدانية السياسية والسلطوية المطلقة التي أصبحت عقيدة العقائد في حكم مصر العسكر والعسكرة حيث جاءت للشعب المصري بالاشتراكية الناصرية والوطنية وما لازمها من تصنيع وصناعة ثقيلة ومتوسطة وتنمية مستقلة وزراعة محصولية متقدمة واهتمام ملحوظ باستصلاح الأراضي الزراعية وزيادة الثروة الحيوانية بالإضافة إلى تحقيق بعض مظاهر العدل الاجتماعي لملايين العمال والفلاحين حتى بدت ملامح الرخاء بفضل وجود اقتصاد وطني قوي وفر العلاج المجاني والتعليم المجاني للشعب المصري ووفر الإسكان الشعبي وجدد البنية التحتية على المستوى القومي وانفق على الحروب المصرية ضد العدو الإسرائيلي .. هذه هي الاشتراكية الناصرية التي تحققت في أقل من عقد ونصف من السنين بواسطة تمصير الاقتصاد المصري .. وبواسطة التأميمات ومصادرة أراضي كبار الإقطاعيين ..

وعلى أنقاض هذه الاشتراكية الناصرية والوطنية جلبت لنا الوحدانية السياسية والسلطوية المطلقة بالإصلاح الاقتصادي المستورد من أمريكا والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي . هذا الإصلاح الاقتصادي الأمريكي والرأسمالي هدم صرح الصناعة المصرية القوية والثقيلة وهدم صرح الزراعة المصرية المحصولية وثروتها الحيوانية ومشاريع الأراضي المستصلحة مما سبب الفقر والقهر والخراب لمصر والمصريين حيث عمت البطالة والإفلاس وزادت ديون مصر الداخلية والخارجية واختفى التعليم المجاني والعلاج المجاني والسلع المدعمة .. هكذا حقق لنا الإصلاح الاقتصادي خلال عشرين سنة البؤس والتعاسة حتى باتت أحوال المصريين كل المصريين زفت وطين وخراب في عهد الرئيس مبارك ..

يؤكد ذلك ما سبق ذكره باعتراف الرئيس مبارك بوجود أزمة اقتصادية واعتراف رئيس الوزراء ومجلس الشورى بهذه الأزمة كما ذكرت من قبل..

يقول رائد الصناعة المصرية الحديثة الدكتور عزيز صدقي أمام اللجنة الاقتصادية بنقابة الصحفيين .. أن مصر قد شهدت في هذه الفترة توقف ثلاثة آلاف مصنع عن العمل . ومؤكدا أن تجربة الخصخصة أثبتت فشلها وأعرب عن حزنه على صناعة قام ببنائها ومكنت مصر من الدخول في حرب أكتوبر .. كما عاشت على إنتاجها حتى الوقت الحالي . وقال د. عزيز صدقي أن الاقتصاد كان مصريا وحولناه إلى اقتصاد أجنبي ببيع الشركات للأجانب وسيأتي طلعت حرب يعيد تمصيره . وأن الرأسمالية قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ كانت رأسمالية حقيقية تعتمد على الثروات الخاصة . لذلك أفرزت عددا من رجال الأعمال الحقيقيين . بينما لم تدفع الرأسمالية الحالية مليما واحدا من جيبها واعتمدت على أموال البنوك .. وأكد أبو الصناعة المصرية .. فشل القطاع الخاص في قيادة قاطرة التنمية .. ذلك هو الخراب الذي حاق بالصناعة المصرية الحديثة والعتيدة في ظل الإصلاح الاقتصادي الأمريكي الذي يقوده الرئيس مبارك وهذا هو خراب الزراعة المصرية العتيدة العتيدة التي قامت بإطعام الإمبراطورية الرومانية بالقمح المصري ..

في ظل هذا الإصلاح الاقتصادي المزعوم فقدت مصر من أراضيها الزراعية الخصبة في الدلتا والوادي بسبب تجريف أكثر من مليون فدان

بخلاف إهدار المشروعات الاستصلاحية والزراعية الكبيرة في التحرير والصالحية باسم الخصخصة - جريدة الأهالي ..

وقد أشار العالم الدكتور رشدي سعيد في كتابه "نهر النيل" إلى تجريف مليون فدان وهذا إحصاء قد مر عليه عدة سنوات .. على حد تعبير الصحفي مجدي حسين ولقد كشفت الصحف المصرية أن سياسات وزارة الزراعة المصرية قد تسببت في تبوير مليون ونصف فدان من الأراضي الزراعية فقدتها مصر ..

وفي أسبوع واحد من عام ٢٠٠٠ رصدت الصحف المصرية تخريب الأرض الزراعية على النحو التالي ..

- عدد ٥٠ ألف فدان من الأراضي الزراعية المستصلحة منذ علم ١٩٧٠ في محافظة قنا مهددة بالبوار مما دفع الفلاحون للهروب من هذه الأرض..
- أراضي مركز طامية في الفيوم تعاني من البوار بسبب مشاكل الري والصرف..
- تتعرض أراضي ٥٠ ألف مواطن بمركز الخانكة ومركز شبين القناطر للبوار بسبب اضطرار الفلاحين إلى ري أراضيهم بمياه الصرف التي تؤدي إلى ارتفاع نسبة الملوحة في الأرض الزراعية الخصبة ..
- في بورسعيد أصيبت الأرض الزراعية الجديدة التي تبلغ خمسة آلاف فدان بالبوار بسبب عدم وجود مياه الري .. وهذا ما دفع شباب الخريجين الذين أنفقوا مالهم وجهدهم في استصلاح هذه الأراضي إلى تأجيرها لأصحاب المزارع السمكية ..
- ويعاني المستثمرون في أراضي وادي النطرون التي تزرع بأشجار الزيتون والفواكه منذ عام ١٩٩٦ بسبب مياه الري وتكاليف الحصول عليها من الآبار بواسطة الكهرباء مما أدى إلى زيادة ديون المستثمرين للبنوك وتعرضهم للإفلاس ..
- تفشي عمليات البناء على الأراضي الزراعية في المدن والقرى على السواء وخاصة بعد انتزاع الأراضي الزراعية من الفلاحين وعودتها إلى الملاك المقيمين في المدن الكبرى .. هؤلاء الملاك الذين باعوا أراضيهم باعتبارها أراضي مباني بأثمان مرتفعة .

هذه هي بعض ملامح الخراب والبوار الذي أصاب الزراعة المصرية بجانب خراب الصناعة المصرية في ظل الإصلاح الاقتصادي الأمريكي ولهذا حل الخراب بمصر المحروسة بشهادة الوقائع التالية ..

الواقعة الأولى : العجز في التصدير لعدم وجود إنتاج صالح للتصدير والمنافسة في الأسواق العالمية فالصادرات المصرية لم تزد على ٦,٥% من الناتج الإجمالي بينما وصلت الواردات إلى ١٨,٢% ..

الواقعة الثانية : زاد العجز في الميزان التجاري من ١٠,٢ مليار دولار عام ٩٧/٩٦ إلى ١١,٨ مليار دولار عام ٩٨/٩٧ ثم إلى ١٢ مليار دولار و٥٢٤ مليون دولار عام ١٩٩٩/٩٨ ..

الواقعة الثالثة : العجز في توفير موارد لتمويل الإنفاق العام وزيادة العجز في الموازنة العامة .. ارتفع العجز التجاري من ١ مليار و١٢٣ مليون جنيه سنة ١٩٩٨/٩٧ إلى ٢ مليار و٩٨١ مليون جنيه عام ١٩٩٩/٩٨ ثم إلى ٧ مليار و٥٤٣ مليون جنيه عام ٢٠٠٠/٩٩ ثم إلى ١٣ مليار و٥٠٦ مليون جنيه عام ٢٠٠١/٢٠٠٠ ..

الواقعة الرابعة : الانخفاض المتواصل للجنيه المصري من ٣٤٠ قرش للدولار في ديسمبر ١٩٩٩ إلى ٥٦٠ قرش للدولار في السوق السوداء عام ٢٠٠١ ثم وصوله ما يقرب من ٦ جنيه بعد قرار ٢٨ يناير ٢٠٠٣ بشأن تخفيض الجنيه المصري العتيد رسميا تحت اسم تحرير الصرف .. وقد انخفض الجنيه المصري أمام الدولار خلال شهر يوليو ٢٠٠٣ فوصل سعره إلى ٦٥٠ قرش ..

الواقعة الخامسة : انخفاض الاحتياطي النقدي في البنك المركزي من ٢٢,٥ مليار دولار في أوائل سنة ١٩٩٧ إلى ١٣ مليار دولار عام ٢٠٠٢..

تحدثنا بالأرقام عن وقائع الخراب المبين في عهد الرئيس مبارك هذه الوقائع التي جلبت لمصر الفقر والبطالة والإفلاس ..

فالفقر في مصر يتزايد ويتزايد عما كان في العهد الملكي وقد تمت هذه الزيادة الصارخة في رحاب الإصلاح الاقتصادي الرأسمالي نتيجة للكساد والإفلاس والبطالة وطرد الفلاحين من أراضيهم بعد هدم قانون الإصلاح الزراعي وبسبب ضآلة الأجور وتفشي الغلاء وانسحاب الحكومة من مجال

العلاج ودعم السلع الأساسية والتعليم ودروسه الخصوصية التي تغولت على دخول الفقراء ..

يؤكد ذلك تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة سنة ١٩٩٨ شيوع الفقر في مصر المحروسة مما أدى إلى وضعها في المرتبة رقم ١١٢ بين ١٧٥ دولة ..

ويبادر تقرير التنمية البشرية لمعهد التخطيط القومي فيقدر نسبة ب٤٨% من عدد السكان من بينهم ٧,٤% يعانون من الفقر المدقع و٤,٤% نسبة متوسط إنفاقهم السنوي يقل عن ٥٩٤ جنيها .. وبالمقابل تؤكد التقارير الرسمية أن أغنى ٢٠% من السكان يستأثرون بما يزيد عن ٤٥% من إجمالي الدخل بينما لا تزيد نسبة ما يحصل عليه أفقر ٢٠% من السكان على ٦% .. جريدة الأهرام ..

وتشير تقارير وأرقام المعهد القومي للتخطيط في مؤتمر ١٩٩٩ إلى أن خمسة ملايين شخص يعيشون على أقل من جنيه واحد يوميا والبنك الدولي يرفع ذلك الرقم إلى ٧,٥ مليون مواطن مصري ومما يذكر أنه في فترة الاشتراكية الناصرية كان نصيب العمل والأجور من الدخل القومي يزيد كثيرا عن نصيب الملكية من الدخل القومي ..

وتبدو مظاهر الفقر بوضوح في الريف المصري حيث بلغت نسبته في القرى المصرية ٥٥% حسب تقديرات الدكتورة كريمة كريم في أول التسعينات . بينما تشير تقارير أخرى بأن هذه النسبة قد بلغت ٧٠% في بعض محافظات الصعيد ..

ووفقا لتقرير صادر عن البنك الدولي فإن مصر تمثل المركز (٥١) في قائمة أفقر دول في العالم . ويؤكد نفس التقرير أن مصر أكثر فقرا من سوريا والأردن وباكستان والجزائر والمغرب .. وأن متوسط دخل الفرد المصري ٧٩٠ دولار مقابل ١٦ ألف دولار في إسرائيل ..

ويقول التقرير أيضا أن ٢١ مليون مصري أي ٣٤% من السكان يصل فقرهم إلى حد حرمانهم من دخول تكفي لسد حاجاتهم من الطعام والخدمات الأساسية من كساء وعلاج وتعليم وخلافه . وأن ١٣,٧ مليون مصري آخرين يمثلون ٢٢,٩% من سكان مصر لا تكفي دخولهم لسد احتياجاتهم الأساسية من الطعام من بينهم ٤,٤مليون مصري يعيشون في فقر مدقع

.. وهذا التقرير يرفع نسبة الفقراء في مستوياتهم المختلفة إلى ٥٦,٩% من سكان مصر ..

ولكن من هم الفقراء تحديدا في مصر المعاصرة ؟.

إن فقراء مصر مبارك ينحصرون تقريبا في جمهور العمال وصغار الموظفين الذين يحصلون على أجور ضئيلة وجمهور العاملين من ضحايا البطالة من العمال المطرودين من القطاع العام بالمعاش المبكر وغير المعاش المبكر . ومن عمال القطاع الخاص الذي حاق به الإفلاس في المدن الصناعية الجديدة . ومن العمال والصناع الحرفيين في الصناعات الصغيرة ومن عمال الزراعة وفقراء الفلاحين الذين طردوا من الأراضي الزراعية بعد إصدار قانون القضاء على الإصلاح الزراعي ومن جيش خريجي الجامعات والمدارس والمعاهد المتوسطة ..

ولذلك فإن البطالة الظاهرة والمستترة تضم في صفوفها أكثر من عشرة مليون عاطل في تقديري أغلبها من القوى المنتجة والقوى الشبابية التي تعتبر وللأسف منبعا للجريمة في مصر ..

فالحكومة تدعي في بياتها في ٢٢ يناير ٢٠٠١ أن عدد العاطلين مليون و ٣٦٠ ألف عاطل فقط بنسبة ٦,٨% من قوة العمل في مصر ..

والجهاز المركزي للتنظيم والإدارة قدر عدد العاطلين بمليون و ٧٨٠ ألف عاطل بنسبة ٩,٨% من قوة العمل المصرية .. وقدرهم أستاذ الاقتصاد الدكتور رشدي زكي منذ سبع سنوات أي في عام ١٩٩٤ بأكثر من ثلاثة ملايين عاطل .. ومنظمة اليونيسيف بثلاثة ملايين عاطل بنسبة ١٧,٥% .. مع العلم أن البطالة سوف تتزايد وتتضخم حتى تنفجر في وجه نظام رأس المال المصري عفويا وتلقائيا بقوة التناقض بين الجوع والمسغبة .. وبين الثراء والشبع ..

ويضاف إلى جيش الفقراء في مصر مبارك جمهور فقراء الطبقات الوسطى والصغيرة من التجار وأصحاب الورش الحرفية وصغار المقاولين الذين تعرضوا للإفلاس من جراء تعسف الضرائب العامة وضرائب المبيعات والمطالبات المالية للضرائب والتأمينات الاجتماعية ومجالس المدن والأحياء بخلاف الرشاوي والإتاوات المفروضة عليهم من موظفي هذه الجهات الحكومية .. وذلك فضلا عن منافسة الأجانب العاملين بالتجارة في مصر المعاصرة ..

فالحكومة المصرية بفجرها ووقاحتها جلبت لمصر شـــركات فرنســية للنظافة وجمع القمامة .. وجلبت لنا أيضا شركات أجنبية تمــارس تجــارة الجملة والقطاعي على السواء علما بأن مصر الملكية قد عرفـــت مبكـرا النظم البلدية والمحلية التي كان يديرهــا المجــالس البلديــة ذات الخــبرة والقدرة في أشغال الرصف وإعداد الطرق والنظافة وجمع القمامة منذ أكثر من مائتي سنة .. فالوالي محمد علي قد أصدر فرمانا يقضي بقيام أعيـــان الإسكندرية بنظافتها وجمع قمامتها وإلقائها في الصحـــراء .. والمجــالس البلدية المنتشرة في المدن والبنادر قد أثبتت جدارتها في هذا المجال لأنــها قد عرفت كيف ترضي الكناسين والزبــالين والمراحيضيــة وفقــا لتعــاليم جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا المنادية بإعطاء هذه الفئة أعلى الأجــور لدورهم في نظافة المدن وتجميلها . ولو أن الحكومة أخذت بهذا المنــــهج الحضاري والعملي في نظافة المدن المصريــة لاســتطاعت العمــل علــى امتصاص جمهور كبير من صفوف البطالة المتفشية في مصر ولكــن لــن يسمع الصم الدعاء ..

والحكومة أيضا فتحت أبواب مصر للتجار الخواجات مع علمها بوجــود عدد ٢٥٠ ألف محل تجاري وفقا للإحصاء الرسمي وضعتها في منافســة مع الشركات التجارية التي بادرت بغــزو مصــر فــي حمايــة الإصــلاح الاقتصادي الرأسمالي ..

يقول الكاتب الصحفي مجدي حسين .. أن غــزو المســتثمر الأجنبــي لمجال تجارة التجزئة يعتبر مهزلة لها آثارهــا الاقتصاديــة والاجتماعيــة السلبية وهي ..

١. تعريض ما لا يقل عن مليوني شخص للبطالة في تجارة التجزئة ..
٢. خطورة الوضع الاحتكاري للأجانب على تجارة التجزئة والإنتاج الغذائي معا وهو ما سيؤدي إلى التحكم في الأسعار مستقبلا نحو الارتفاع ..
٣. أرباح هذه الشركات يتم تحويلها للخارج بالدولار ..

ولذلك فالدولة وليست الحكومة هي المسئولة عن انحطاط مصــر فــي مجال التجارة العالمية والداخلية . ففي الستينات كان نصيــب مصــر مــن التجارة العالمية ١% وفي السبعينات هبط إلى ٠.٢٤% ثم هبط هذا الرقــم أكثر فأكثر ليصبح نصيب مصر المحروسة سبعة في العشرة آلاف . وبــهذا

تحتل مصر مبارك المركز ١٧٤ بين ١٨٦ دولة تتعامل في التجارة العالمية ..

ذلك هو الحال في تجارة الخارج أما تجارة الداخل فقد تعرضت أيضا للانحطاط بدليل تفشي حالات الإفلاس المسجلة في تقرير مركز معلومات مجلس الوزراء وهي الفترة من يوليو ١٩٩٩ إلى يوليو ٢٠٠٠ شهدت صدور ٢٢٠٨ إفلاس نهائي و٢٥ ألف إفلاس ابتدائي .. وأغلقت غرفة الطباعة ١٢٠٠ مطبعة قطاع خاص .. وأعلنت غرفة الصناعات الدوائية سنة ١٩٩٩ عن غلق ٤٠ شركة مستحضرات تجميل ..

وفي نفس الوقت شهدت مصر الرئيس مبارك موجة جارفة لتهريب بضائع من خارج مصر نسبتها ٣٠% على الأقل من السوق التجاري . فأين السلطة والشرطة يا عباد الله ؟! .

نقابات عمالية مؤممة وعبودية للعمل والعمال

لقد ظهرت الطبقة العاملة الحديثة من خلال السخرة ورأس المال الأجنبي .. مع العلم أن بوادر هذه الطبقة قد بدت فنيا وطبقيا في عهد والي مصر محمد علي وصناعاته الحديثة .. ثم تطورت شيئا فشيئا في عهد الوالي سعيد باشا وأثناء حفر قناة السويس .. وزاد تطورها الكمي والكيفي خلال عهد الخديوي إسماعيل والخديوي توفيق وذلك بحضور العمال الأجانب إلى مصر من روسيا وأسبانيا وإيطاليا وفرنسا ومعهم فكرهم النقابي والاشتراكي وخبراتهم النضالية والإضرابية ..

ولذلك فقد شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر قيام أول نقابة عمالية كانت تسمى بنقابة عمال السجاير المختلطة لأنها كانت تضم العمال المصريين وزملائهم العمال الأجانب . ولقد انبثقت هذه النقابة العمالية الأولى في مصر من إضراب عام لعمال السجاير في مدينة الإسكندرية . ثم تأسس بعدها الكثير من النقابات العمالية من خلال الإضرابات العمالية المطلبية التي انتشرت في العقد الأول من القرن العشرين وتحولت من إضرابات محدودة إلى إضرابات ثقيلة قام بها عمال الترام وعمال السكك الحديدية .

وقد تميزت هذه النقابات العمالية بصفة الديمقراطية النقابية والتعددية النقابية مما جعلها نقابات عمالية ثورية وليست نقابات تعاونية أو وفاقية أو إصلاحية .. وهذا ما عجل بظهور الحركة العمالية والنقابية التي كانت وما زالت قاعدة القواعد الوطنية المصرية وعمودها الفقري بدليل أن قيادة العمل السري والفدائي .. والعمل الجماهيري والإضرابي والتظاهري في ثورة سنة ١٩١٩ وقبلها وبعدها كان معقودا لها مما جعلها تقدم للوطنية المصرية واستقلال مصر تضحيات لم ولن تقدمها كل طبقات المجتمع المصري حتى يومنا هذا .. ومع هذا فقد غفل عنها الغافلون من سادتنا المثقفين المصريين ..

ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على شكل انقلاب عسكري ورحبت به الحركة العمالية والنقابية المصرية واستقبلته بالأحضان باعتبار ثورة يوليو حلم حياتها .. ولكن عسكر هذه الثورة الوطنية ومزاجهم الانقلابي والتآمري كانوا يخشون خشية الموت من أي عمل شعبي وجماهيري . وحتى حديث الناس الهامس في المقاهي كانوا يخافونه مما جعلهم يصدرون بيانات مصورة بالثعابين يلصقونها في الشوارع والمقاهي ومكتوب عليها احذروا الشائعات .. ولذلك فقد تصدوا بشكل دموي للمظاهرات السلمية والودية والمطلبية لعمال كفر الدوار وقتلوا من قتلوا من العمال وشنقوا العاملين خميس والبقري ..

ولقد صاحب ذلك للأسف هدم الحركة العمالية والنقابية المصرية العتيدة بتجريد النقابات العمالية من صفاتها التعددية والنقابية والنضالية بعسكرتها ووضعها لأول مرة في مصر الحديثة تحت قيادة ضباط الجيش ثم دمجها بحزب السلطة الواحد الأحد – هيئة التحرير – الاتحاد القومي – الاتحاد الاشتراكي – الحزب الوطني .. ولهذا فقد تسمت هذه النقابات العمالية بالنقابات السلطوية حتى يومنا هذا ..

وحتى عندما حققت ثورة يوليو اشتراكيتها الناصرية وما تضمنها من علاقات عمل تحظى بقدر من العدل الاجتماعي للعمال المصريين فقد ظلت النقابات العمالية نقابات سلطوية .. ومع هذا فقد كانت تموج في سنواتها الأخيرة بالنقابيين اليساريين والمعارضين ..

ولقد استمرت صفة السلطوية تلازم النقابات العمالية في عهد الرئيس المقتول أنور السادات أيضا .. ولكن عندما بدأ السادات يهوي بقبضته

وسلطته الوحدانية على الاشتراكية الناصرية بقصد هدمها وذلك بإصداره قانون الانفتاح الاقتصادي بالإضافة إلى عبثه بالقطاع العام ترضية لأمريكا والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي ورأس المال المصري .. بادر العمال اليساريون والمعارضون بشن حرب الإضرابات والمظاهرات التي توجت بانتفاضة يومي ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧ ضد حكم الرئيس المقتول أنور السادات ..

وأمام هذا الخطر العمالي والنقابي لم يكتف الرئيس المقتول والمؤمن معا بحالة السلطوية للنقابات العمالية بل لجأ إلى تنقية عضويتها النقابية من العمال النقابيين اليساريين والمعارضين النشطاء وذلك بمنعهم من الترشيحات والانتخابات العمالية والنقابية بذريعة اتهامهم بتهمة الكفر والإلحاد وقد أصابت هذه التهمة الكاذبة والعنصرية عشرات من العمال النقابيين وقد تمت هذه التنقية العنصرية بواسطة القيادات النقابية السلطوية من أعضاء الاتحاد العام للعمال والنقابات العامة .. وبواسطة الوزير النقابي وزير العمل وبواسطة مباحث أمن الدولة والمدعي العام الاشتراكي ..

وذهب الرئيس المؤمن والمقتول .. وجاء الرئيس حسني مبارك فرسخ السلطوية النقابية التي لم تستطع مواجهة الحركة الإضرابية والمطلبية للعمال في المحلة وكفر الدوار وشبرا الخيمة وحلوان والسكة الحديد .. هذه الإضرابات التي قتل فيها عدد من العمال المصريين .. والتي كانت ضد إدارات العمل في المواقع الإنتاجية وضد السلطة وتعسفها .. وضد النقابات السلطوية وقادتها أزلام السلطة والسلطان ..

وهذا ما دفع الرئيس مبارك إلى ممارسة تنقية سلطوية وعنصرية جديدة في الحركة النقابية ونقاباتها السلطوية حيث تم توزيع تهمة الكفر والإلحاد على عشرات من العمال النقابيين اليساريين والمعارضين النشطاء بنفس الطريقة التي اتبعها الرئيس المؤمن والمقتول ..

وقد أدت تلك التنقية النقابية العنصرية والسلطوية إلى تأكيد دور النقابات العمالية لتصبح الجناح العمالي والنقابي لسلطة الرئيس مبارك باعتبارها المسئولة عن الأمن الاجتماعي لهذه السلطة في صفوف النقابات العمالية ..

ومن هذا المنطلق وحده هرول الرئيس مبارك إلى تنفيذ انقلابه الاجتماعي الأول بالقضاء قضاء نهائيا على الاشتراكية الناصرية من خلال صدور قانون الخصخصة وبيع القطاع العام وتشريد عماله باسم المعاش المبكر وسط حماس وتأييد ومباركة الاتحاد العام للعمال ونقاباته العامة وقيادتها ..

ولقد كوفئ هؤلاء السادة النقابيون السلطويون بمناصب نيابية في مجلسي الشعب والشورى .. وبالاستحواذ المطلق على الحركة النقابية السلطوية ومناصبها وأموالها حتى القبر مع حقهم في توريث مناصبهم النقابية لأولادهم .. فضلا عن حقهم المطلق في التحكم في الترشيحات والانتخابات النقابية ..

هكذا صارت نقاباتنا العمالية المؤممة والسلطوية في خدمة السلطة والسلطان ولم يعد لها أي دور في خدمة مصالح العمال المصريين الذين هم كالأيتام على موائد اللئام ..

والأمر من ذلك فإن هؤلاء النقابيين قد ساندوا سلطة رأس المال في مصر المعاصرة في تقنين السخرة وعبودية العمل والعمال من خلال صدور قانون العمل الجديد ..

فقانون العمل الجديد قد أهدر وهدم كل المكاسب العمالية التي حصل عليها العمال المصريون في ظل الاشتراكية الناصرية وقبلها في ظل حكومة الوفد بزعامة مصطفى النحاس حيث جرد العمال المصريين اليدويين والذهنيين من حقهم في صرف علاوة غلاء المعيشة .. ومن حقهم في الأجور التشجيعية والأجور الإضافية التي تقدر بساعة وربع ساعة نهارا وساعة ونصف ساعة ليلا .. ومن حقهم في العلاوة السنوية وعلاوة الترقية .. ومن حقهم في الوجبة الغذائية .. ومن حقهم في اللجوء إلى قضاء التوفيق والتحكيم .. ومن حقهم في الحماية القضائية من الفصل التعسفي والنقل الإكراهي والجزاءات الوحشية ..

ولذلك فإن قانون العمل الذي أصدرته سلطة رأس المال في مصر المعاصرة وباركته النقابات العمالية السلطوية هو عقد من عقود العبودية والسخرة والإذعان للعمال المصريين العاملين بأيديهم وبأدمغتهم باعتبارهم عبيد وأقنان مصر المعاصرة .. وحتى لفظ الإضراب الذي يتردد فهو مجرد زينة يراد بها تزيين الوجه القبيح لسلطة رأس المال المعاصرة ..

دم الشاب النابغة الفقير
في رقبة دولة العنصرية واللياقة الاجتماعية

في البدء أقول يسقط نبوغ الفقير وذكاء وعبقرية الفقير واجتهادات الفقير طالما تحولت مصر المعاصرة إلى دولة ترفض المساواة وتكفر بالمساواة إلى دولة عنصرية .. دولة للشباعى والأغنياء وحدهم . دولة المواطنة العليا والمواطنة السفلى . مثلها مثل إسرائيل العنصرية ذات المواطنة اليهودية السامية . والمواطنة العربية المنحطة ..

عندما كانت مصر ولاية عثمانية صدر بشأنها فرمان من الباب العالي ينص على ضرورة المساواة أمام القضاء والمساواة في الوظائف ..

وفي قرية كفر المصيلحة مركز شبين الكوم منوفية مسقط رأس الرئيس حسني مبارك . ولد عبد العزيز باشا فهمي رئيس محكمة النقض وعضو الجمعية التشريعية ووزير الحقانية وعضو لجنة وضع دستور ١٩٢٣ ورئيس حزب الأحرار الدستوريين وزميل سعد باشا زغلول وشعراوي باشا في مقابلة المندوب السامي البريطاني لمطالبته بسفر وفد مصري للدفاع عن القضية المصرية أمام عصبة الأمم قبل ثورة سنة ١٩١٩ ..

ولقد قضى عبد العزيز باشا فهمي شيخوخته في قريته من اجل نهوضها ومساعدة فقرائها الذين هم أهله فأصبحت قرية كفر المصيلحة أول قرية مصرية تقد لمصر اكبر عدد من المتعلمين وأول قرية مصرية تخلو من البطالة حتى أن حميرها قد تم توظيفهم في مصلحة البريد لحساب أصحابها من الفقراء والأرامل ..

إن هذا الباشا والحقوقي والسياسي الكبير قد التحق في مدرسة الحقوق بالمجان لفقره وتخرج منها سنة ١٨٨٦ حيث كان أباه رجل فقير وكان يعمل فقي يحترف قراءة القرآن على المقابر ويقرأ القرآن أيضا برواتب شهرية ببيوت القرية مقابل معلوم عيني من القمح والذرة يؤكد ذلك مجموعة القرارات الصادرة من مجلس النظار والنظارات في شهر ديسمبر سنة ١٨٨٦ التي تضمنت كشفا بأسماء طلاب مدرسة الحقوق ومهن آبائهم وتضم عددا من أسماء الطلاب الفقراء مما يثبت مراعاة المساواة في مصر شبه المستعمرة وشبه الإقطاعية وهذه بعض أسماء الطلبة الفقراء ..

الطالب عبد العزيز فهمي من قرية كفر المصيلحة مركز شبين الكوم منوفية ومهنة والده "فقي"
الطالب محمد عثمان من تمن الدرب الأحمر بمصر ومهنة والده "خيمي"
الطالب محمد علي عزت من شبرا الخيمة قليوبية ومهنة والده "فلاح"
الطالب علي فهمي من بندر أسيوط ومهنة والده "فلاح"
الطالب علي حسن من تمن الدرب الأحمر ووالده "عطار"
الطالب إبراهيم زكي من حصة أكوه منوفية ومهنة والده "مزارع"
الطالب عبد اللطيف محمد من سروه منوفية مهنة والده "فلاح"
الطالب محمد توفيق أمين من بندر طنطا غربية ومهنة والده "كاتب"
الطالب حسن السداوي من تمن الجمالية مهنة والده "عقاد حرير"
الطالب فرج حبيب من باقور بمديرية أسيوط ومهنة والده "فلاح"
الطالب محمد إبراهيم من قسم باب الشعرية ومهنة والده "قباني"
الطالب إسحاق إبراهيم من الدرب الأحمر بمصر ومهنة والده "مرخماتي"

القصد من كل هذا إثبات أن الخديوي توفيق الذي ننعته بالخديوي الخائن كان يراعي المساواة بين المصريين ويطبق المساواة على فقرائهم . وكذلك الاحتلال الإنجليزي الذي حاربناه وقاتلناه كان أيضا يحترم المساواة ولم يحرم فقراء مصر من حقهم في المساواة ..

وعلى عكس ذلك تماما فقد أهدرت مصر في عهد الرئيس مبارك المساواة بشكل صارخ في حالات القبول في وظائف النيابة والقضاء ووزارة الخارجية وفي القبول بكليات الشرطة والقوات المسلحة بذريعة ضرورة توافر اللياقة الاجتماعية مما يثبت أن القبول في هذه الوظائف وتلك الكليات قاصر على أبناء الأغنياء والحكام وأزلام الحكام فقط وبالتالي قد تم شطب الفقراء كل الفقراء في مصر من القبول في هذه الوظائف والكليات حتى لا يصبحوا حكام بل يظلوا محكومين مقهورين في مصر المحروسة ..

فالملاحظ أن الطالب المصري الفقير يتقدم إلى هذه الوظائف والكليات ظنا منه أن السلطة المصرية تحترم المساواة مراعاة لتكافؤ الفرص بين المصريين .. ولكن ذلك الطالب المسكين يتقدم بأوراقه ورسومه المالية المقررة وقدراته البدنية المتقدمة وأخلاقه المستقيمة .. ورغم ذلك لا

يحظى بالقبول في الوظيفة لأنه لم يحصل على درجة عنصرية نازية هي درجة "غير مقبول اجتماعيا" ..

إن هذا الشرط العنصري يعني أن السلطة المصرية قد داست بقدميها على مبدأ المساواة الذي تقره وتحترمه كل الأديان والدساتير في العالم ..

ولذلك فقد لجأ عشرات من الطلاب المتقدمين إلى كلية الشرطة الذين لم تتوافر لهم شرط اللياقة الاجتماعية إلى قضاء مجلس الدولة الذي قضى لأكثر من مائة طالب بحقهم في دخول كلية الشرطة ولكن وزارة الداخلية رفضت تنفيذ هذه الأحكام القضائية ..

إن هذا الشرط العنصري الظالم وغير الأخلاقي وغير الإنساني وغير الحضاري دفع بشاب محترم وجليل شاب باحث ومجتهد ينتظره مستقبل علمي طيب إلى الانتحار لحصوله على درجة غير لائق اجتماعيا في امتحان نظمته وزارة الخارجية المصرية لشغل إحدى وظائفها رغم أن هذا الباحث الفقير عبد الحميد شتا كان الفائز الأول في هذا الامتحان مما دفعه إلى الانتحار الذين يدين سلطة الرئيس مبارك ويحمله شخصيا دم ذلك الشاب الباحث والفقير ..

وحتى تتضح هذه المأساة فلابد من قراءة ما كتبه الكاتب الصحفي الأستاذ مصطفى بكري الذي فجر مأساة انتحار الباحث الفقير عبد الحميد شتا الذي يعتبر وصمة عار للشعب المصري الذي لم يحم شبابه ولم يقاتل لتحقيق المساواة في صفوف المصريين .. وهذه سطور الحزن كل الحزن التي حررها الكاتب والإنسان مصطفى بكري ..

اهتز وجداني بشدة ، شعرت بحالة من القهر والإحباط ، أغلقت عيني كأنني لا أريد أن أرى أو أسمع أو أتكلم .. مضيت إلى منزلي زاحمني المشهد مجددا ، سيطر على كل مشاعري ، وبقيت أتأمل ما جرى .

كان عبد الحميد شتا ، صديقا لزميلنا أكرم خميس ، الذي يكتب قصته في هذا العدد ، شابا ، طموحا ، متفوقا ، دمث الخلق ، مستقيما ، يذوب عشقا في هذا الوطن .

منذ عدة أعوام جاء من إحدى قرى الدقهلية ، التحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بالقاهرة ، قرر أن يتعايش مع الظروف وأن يحقق حلمه وطموحه .

لم يكن واحدا من أبناء الأغنياء ، لم يرث أرضا ، لم يكن والده واحدا من هليبة العصر ولصوص الانفتاح ، كان مزارعا بسيطا يصحو فجر كل يوم ، يحمل فأسه على كتفه ويمضي إلى زراعته ..

كان سعيدا ، مرتاح البال ، يكفيه انه استطاع تربية أبنائه خير تربية ، بهذه القروش القليلة ، والآن تحقق طموحه والتحق ابنه بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، كم هو سعيد بهذا الحرث .. لقد قالوا له أن ابنك سيكون سفيرا ، إنه متفوق ، وشاطر وسوف تتحقق أمنيته قريبا .

انتظر الأب ، حلم كثيرا ، ابني التحق بأفضل كلية ، من المؤكد أنه لن يخذله ، لن يذهب إلى القاهرة وينسى أسرته ، لن يتخلى عن القيم التي تربى عليها في الريف .

وجاء عبد الحميد شتا ، شابا فارع الطول ، ملامحه مصرية ، ووجهه يعكس جدية ، قامته شامخة ، واعتزازه بكرامته عظيم .

كان يدرك أن الزمن غير الزمن ، وكان يعرف أن ملامح الحياة في القاهرة تختلف كثيرا عن مظاهر الحياة في قرية ميت الفرماوي بالدقهلية ، لكنه قرر أن يعيش بأخلاق قريته ، وأن يقهر الظروف ، كان يغلق الأبواب على نفسه ساعات طوالا ، يقرأ ، يستذكر دروسه ، يغوص في أمهات الكتب.

لم يعرف عنه غير الجدية والاستقامة ، توقع له الكثيرون منذ البداية أن يكون واحدا من العلامات الفكرية لهذا الوطن إنه يحاور ويجادل ويطرح الرؤى التي تبهر كل من حوله .

وبسرعة البرق مضت السنوات بحلوها ومرها ، وتخرج عبد الحميد شتا وحصل على بكالوريوس الاقتصاد والعلوم السياسية عام ٢٠٠٠ ، كانت اسعد اللحظات في حياة أسرته وقريته ، لقد تخرج عبد الحميد أخيرا ، وغدا سيصبح واحدا من كبار رجال البلد ، من يدري قد يصبح سفيرا أو وزيرا في يوما ما ، كان عبد الحميد يبتسم في خجل ، ينظر حوله ويقول : يا رب استرني في فرصة عمل حتى لا أصيب أهلي بالإحباط ، إنهم يبنون علي آمالا كبيرة .

ومضت الأيام ثقيلة ، وعبد الحميد يبحث عن فرصة عمل محترمة فلا يجد ، قرر أن يلتحق ببعض مراكز الأبحاث ، الكل يشعر بتفوقه وقدراته

المتميزة في التحليل والرؤيا ، ولكن فليعمل بشكل مؤقت ، فكل الأماكن مشغولة ، وكل المقاعد محجوزة .

مضى العام الأول والثاني ، والآن دخلنا في العام الثالث ولا أمل ، الأسرة قلقة والأب يتطلع إلى الحلم الذي ساوره كثيرا ، إنه ينتظر الراحة بعد عناء ، الفرحة بعد شقاء ..

أين العمل يا عبد الحميد ؟ لماذا أنت عاطل حتى الآن ؟ عبد الحميد يرد باستحياء بكرة ربنا يفتحها ، أنا باشتغل بالقطعة وبتعلم لغات ، علشان أبقى سفير ..

وفجأة أعلنت وزارة الاقتصاد عن مسابقة لاختيار ممثلين تجاريين بالخارج .. تقدم عبد الحميد مع آخرين ، تمت التصفية ، وكان واحدا من ٤٢ شاب ، وفي الاختبارات النهائية كان ترتيب عبد الحميد الأول .

ويوم إعلان النتيجة بشكل نهائي فوجئ بأنه الوحيد الذي استبعد من المتقدمين والسبب أنه غير لائق اجتماعيا .

إنها المرة الأولى التي استمع فيها إلى هذه العبارة ، غير لائق اجتماعيا ، والترجمة الحرفية أنت لا تصلح لأنك ابن لرجل فقير !!

لم يصدق عبد الحميد ما قرأ ، شعر بجرح غائر في النفس ، شعر بإهانة لا تغتفر ، ماذا فعل والدي سوى أنه قام بتربيتنا بالحلال ؟ ماذا جنى وما هي الجريمة التي ارتكبها ؟ لم يسرق ، لم ينهب أموال البنوك ، لم يرتشي ، لم يعرف في حياته سوى العمل والصلاة .

مضى عبد الحميد إلى طريق لا يعرف نهايته ، أطلق قدميه دون أن يحدد المسار ، تحجرت الدموع في عينيه ، استرجع صورة والده في انتظار الخبر السعيد ، قال لنفسه : ليتني ما قلت له ، الآن كيف سأواجهه وماذا سأقول لأبناء قريتي ؟ أدرك عبد الحميد أنه غريب عن هذا البلد شعر للمرة الأولى بأن مصر التي حلم بها لم تعد هي مصر ، أيقن أن تفوقه واجتهاده في تحصيل العلم لم تعد له قيمة ..

تحسس جيبه ، كانت هناك جنيهات قليلة وبطاقة وكارنيه وأجندة هواتف صغيرة ، نظر إلى السماء ، وقال بصوت متهدج سامحني يا رب وقفز إلى جوف النيل ليلقى مصرعه .

مات عبد الحميد شتا الكاتب والباحث المدقق ، مات لأن كل ذنبه أنه ابن فلاح فقير ، لا مكان له على أرض الوطن ، غاص بسرعة البرق ،

وكأنه يستعجل الموت ، وعندما عثروا على جثته كان وجهه حزينا غاضبا.

اهتز قلب الأب ، وصرخت الأم ، وشعر الأخوة بالانكسار ، مظاهر الحزن تلف القرية منذ عشرة أيام مضت ، الناس أغلقت التليفزيونات وضبطت الموجة على إذاعة القرآن الكريم .

الدموع تنهمر ولا تتوقف ، حتى الزرع بات هو الآخر حزينا ، وسؤال واحد يتردد على كل الشفاه دم عبد الحميد في رقبة من ؟!

والإجابة بسيطة ، دم عبد الحميد وغيره في رقبة حكومة الخصخصة ، في رقبة هؤلاء الذين انحازوا لفئة محدودة وأعطوا ظهورهم للفقراء الذين يشكلون الأغلبية .

تأملوا حوادث الانتحار بسبب الفقر ، كم هي كثيرة ومتعددة ، تأملوا نوعية الجرائم التي راحت تنتشر في المجتمع ، إنها بسبب الفقر وغياب القدوة وانهيار الأخلاق .

كل شيء أصبح على النقيض ، ليس مهما أن تكون شريفا لتحصل على حقك في هذا البلد ، المهم ماذا تملك ، لا يهم من أين ؟ ولكن يكفي أنك تملك ، وأنك واحد من الطبقة الجديدة التي باتت تسيطر وتتحكم ..

أما الفقراء ، أما البسطاء فلهم رب اسمه الكريم ، ولا عزاء للمقهورين والمحرومين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ..

جريدة الأسبوع يوم الاثنين ١٨/٨/٢٠٠٣

خنق الصراع الطبقي بالطوارئ الأبدية والعسكرة المؤبدة

لقد عرفت البشرية ظاهرة الصراع الطبقي منذ تقسيم المجتمعات البشرية إلى طبقات اجتماعية مستغلة (بفتح الغين) ومستغلة (بكسر الغين) كما سبق ذكره ، ومن ثم فالصراع لم ولن يتوقف إلا بوقف التناقضات الطبقية والاجتماعية في الحياة والمجتمع ..

ولكن هذا الصراع الطبقي كثيرا ما يعتريه الحضور والغياب وعلى العموم فظهوره وكمونه وارد ولكن إعدامه وموته مستحيل طالما ظل التناقض الاجتماعي موجودا في المجتمع ..

ولذلك فالحكام الطغاة والمستبدين حاولوا خنق الصراع الطبقي ولكنهم فشلوا لأنهم لا يستطيعوا تعطيل الشروق أو وقف الغروب . ولهذا فالصراع الطبقي ظل يتربص بهم باعتباره مصدر التطور والتغيير اللذين يشكلان ناموس الحياة حيث يتخذ مظاهر مختلفة فآهة الكادحين صراع طبقي وتأففهم صراع طبقي والشكوى والعرضحال صراع طبقي . ودعوة المظلوم صراع طبقي والخصومات القضائية صراع طبقي وجرائم السرقة والقتل والسطو في كثير من الأحيان صراع طبقي . والإضرابات والتظاهرات والاعتصامات العمالية والفلاحية والطلابية صراع طبقي والانتفاضات والانقلابات والثورات والحروب صراع طبقي .. وحتى السياسة في جوهرها صراع طبقي ..

ونظرا لخطورة هذا الصراع الطبقي على الدول الرأسمالية والاستعمارية فقد ابتدعت مانعا لمنع الصراع الطبقي مثل مانعات الصواعق . قد تمثل ذلك المانع في ابتداع قانون الطوارئ الذي يسمى أيضا بقانون الأحكام العرفية والعسكرية لأن السلطة تنتقل من حكم الحكام المدنيين إلى الحكام العسكريين ..

ولقد عرفت مصر قانون الطوارئ في سنة ١٩١٤ فور قيام الحرب العالمية الأولى حيث أعلن القائد العام للقوات الإنجليزية في مصر الأحكام العرفية بقصد تأمين جيوشه المعسكرة في مصر .. وفي سنة ١٩٤٠ أعلن رئيس الوزراء المصري حسن باشا صبري الأحكام العرفية أثناء قيام الحرب العالمية الثانية لتأمين جيوش الاحتلال الإنجليزي في مصر . ولهذا فقد اعتقل بمقتضى قانون الطوارئ عدد من الشخصيات المصرية المتعاطفة مع الجيوش الألمانية النازية مثل علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي والنبيل عباس حليم وإلهام باشا حسن زوج الأميرة المصرية شويكار .. ومع هذا لم يوظف قانون الأحكام العرفية ضد مظاهرات طلاب الأزهر التي كانت تهتف وتقول .. تقدم تقدم يا روميل .. (قائد الجيوش الألمانية في الصحراء الغربية) ..

وفي سنة ١٩٤٠ فوجئ الشعب المصري ببيان أعلنه راديو القاهرة يقول .. نحن رئيس الوزراء حسن صبري الحاكم العسكري العام قررنا الآتي ..

١. يصرف للعمال والموظفين في المملكة المصرية علاوة غلاء معيشة بنسبة خمسين في المائة من الأجور الأصلية ..
٢. يحدد الحد الأدنى لأجور العمال والموظفين بمبلغ ثمانية قروش في اليوم..

ثم جاءت حكومة حزب الوفد برئاسة الزعيم مصطفى النحاس في سنة ١٩٤٢ حيث فوجئ المصريون ببيان أذاعه راديو القاهرة يقول ..

نحن مصطفى النحاس رئيس الوزراء والحاكم العسكري العام قررنا ما يلي ..

١. يحدد الحد الأدنى لأجور العمال والموظفين في المملكة المصرية بعشرة قروش يوميا ..
٢. يصرف للعمال والموظفين في المملكة المصرية أجور غلاء المعيشة بنسبة خمسه وسبعون في المائة من الأجور الأساسية ..

وفي سنة ١٩٤٤ يذيع راديو القاهرة بيانا آخر جاء فيه ..

نحن مصطفى النحاس رئيس الوزراء والحاكم العسكري العام قررنا ما يلي..

١. تحدد أجور العمال الزراعيين في مديريتي قنا وأسوان بمبلغ عشرة قروش يوميا ..
٢. يصرف لعمال المناجم والمحاجر وجبة غذائية كاملة كل يوم عمل ..
٣. يصرف لعمال المصانع وجبة غذائية كاملة في كل يوم عمل ..
٤. يصرف لعمال الزراعة في الوسايا وجبة غذائية يومية كاملة ..

وبعد نجاح حزب الوفد في انتخابات سنة ١٩٥٠ وتشكيل وزارته الأخيرة فوجئ الرأي العام ببيان أذاعه راديو القاهرة أيضا يقول ..

نحن مصطفى النحاس رئيس الوزراء والحاكم العسكري العام ..

لقد أصدرنا الأمر العسكري رقم ٩٩ لسنة ١٩٥٠ بصرف أجور غلاء المعيشة للعمال والموظفين في المملكة المصرية بنسبة مائة وخمسين في المائة من الأجور الأساسية .. وقررنا أيضا تحديد الحد الأدنى لأجور العمال والموظفين في المملكة المصرية بمبلغ قدره ١٢,٥ قرش يوميا ..

وبجانب ذلك فإن حكومة حزب الوفد برياسة الزعيم مصطفى النحاس لم توظف إلى حد ما أحكام الطوارئ ضد الإضرابات والمظاهرات الكثيفة

والثقيلة المطالبة بإصدار قانون النقابات وقانون عقد العمل الفردي في سنوات ٤٢ و٤٣ و١٩٤٤ ..

هكذا وظفت الحكومات المدنية والملكية أحكام الطوارئ في شئون مدنية وليست عسكرية شئون حققت بعض مزايا العدل الاجتماعي للعمال والفلاحين المصريين في مواجهة الاحتلال الإنجليزي والملك فاروق مما يشير إلى أن أحكام الطوارئ هذه لم تخنق الصراع الطبقي ولا النضال الوطني في هذه الفترة ..

وذلك بعكس الحال في مصر الجمهورية والمعاصرة حيث وظف قانون الطوارئ بتعسفه ووحشيته وبطشه الشديد طوال عقدين من الزمن مصاحبا لحكم الرئيس حسني مبارك خطوة خطوة ويوما بيوم مما يثبت ان قانون الطوارئ هذا ليس له غير غرض واحد فقط هو حماية أمن الدولة أي حماية أمن الرئيس مبارك حيث لا غرض له تقريبا في مجال الأمن العام . أمن الناس والمجتمع . وان قانون الطوارئ كانت مرجعيته فلسفة البقاء السلطوي الأبدي للسلطة والسلطان التي عززت الضرورة إلى قانون الطوارئ واستمراره واستبداد ووجود عساكره الغلاظ الشداد ونياباته المدنية .. نيابات أمن الدولة .. ونياباته العسكرية .. نيابات نواب الجيش ومحاكمه المدنية محاكم أمن الدولة المدنية .. ومحاكمه العسكرية المشكلة من ضباط الجيش فقط ..

كما أن فلسفة البقاء السلطوي الأبدي هذه كانت مصدر فكرة تغليب حرب الداخل .. أي حرب الشعب المصري على حرب الخارج أي الحرب على العدو الإسرائيلي مثلا .. وهذا ما طمأن الصديق الأمريكي والصديق الإسرائيلي بأن تغليب حرب الداخل على حرب الخارج هو التنفيذ العملي للمبدأ الساداتي القائل بأن حرب أكتوبر ١٩٧٣ هي آخر الحروب ..

ولقد ترتب على هذه الفلسفة السلطوية إعداد جيش ضخم هو جيش الأمن المركزي الذي يقال أن عدده مليون ضابط وجندي مدربين تدريبا عسكريا عاليا ومسلحين بأحدث أسلحة الموت والدمار الأمريكية التي جاءت كمنحة أمريكية واعية بقصدها في مواجهة الجماهير المصرية المعادية لأمريكا وإسرائيل ..

ولذلك فقد حقق ذلك الجيش القوي والجبار . جيش الأمن المركزي جيش حرب الداخل انتصارات ساحقة على العمال المصريين والفلاحين

المصريين والطلاب المصريين وعلى كل القوى الوطنية واليسارية مما أدى إلى خنق الصراع الطبقي والنضال الوطني في مصر المعاصرة إلى حين ..

إن هذا الجيش الجبار قد سحق إضرابات العمال في كفر الدوار وحلوان والمحلة الكبرى وشبرا الخيمة وقتل عددا من العمال المصريين ..

كما سحق الفلاحين الفقراء والمستأجرين للأراضي الزراعية في ظل قانون الإصلاح الزراعي الصادر في عام ١٩٥٢ .. وعندما قاوم هؤلاء الفلاحون الفقراء تنفيذ القانون رقم ٩٦ لسنة ١٩٩٠ بشأن طردهم من الأرض الزراعية وإخلائها للسادة الملاك المقيمين في القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى تصدت لهم جحافل جيش الأمن المركزي الذي قتل العشرات من الفلاحين واعتقال المئات منهم خدمة للسادة الملاك الأغنياء ..

وخلال الانتفاضة الفلسطينية والعدوان على الشعب العراقي بادرت القوى الوطنية واليسارية بتنظيم مظاهراتها الشعبية الغاضبة على أمريكا وإسرائيل والسلطة المصرية المتخاذلة .. ولكن هذه المظاهرات فوجئت بجيش الأمن المركزي يحاصرها من كل جانب ويهددها ويرهبها ببطشه الشديد . ولهذا فإن هذه المظاهرات الشعبية والاحتجاجية لم تستطع أن تقترب من مبنى السفارة الأمريكية أو مبنى السفارة الإسرائيلية نتيجة لحصارها بقوات جيش الأمن المركزي ..

هكذا استطاع جيش الطوارئ . جيش الأمن المركزي أن يخنق الصراع الطبقي ويخنق النضال الوطني الاحتجاجي للمصريين إلى حين ، وفي الوقت الذي انتشرت فيه المظاهرات الاحتجاجية ضد أمريكا وإنجلترا وإسرائيل في كل بلاد العالم .. هذه المظاهرات التي اشترك فيها مائة مليون شخص والتي كانت مظهرا للصراع الطبقي الأممي المضاد للعولمة الأمريكية وحروبها العدوانية ..

ولم تكتف سلطة الرئيس مبارك بقدرة جيش حرب الداخل في مواجهة الصراع الطبقي والنضال الوطني والديمقراطي عموما بل تزايد في تجفيف منابع هذا الصراع وذلك النضال بجعل النقابات العمالية جهازا من أجهزة الأمن القومي وتحويل الجامعات إلى قشلاقات عسكرية يستبد بها الضبط والربط ومحاصرة أحزاب المعارضة في مقاراتها وجعلها مجرد مجعرات كلامية .. وحتى المساجد فقد وضعت في قبضة الشرطة تماما ..

وأكثر وأكثر فقد تم تضخيم العسكرة في مجالات الحياة المصرية لتحقيق نفس الغرض . فالسادة ضباط مباحث أمن الدولة قد تسللوا إلى منصات القضاء المصري العظيم وأصبح الشرطي قاضيا والعياذ بالله .. كما استطاع عدد من ضباط مباحث أمن الدولة وبعض ضباط الجيش العاملين بالأجهزة الرقابية الحصول على شهادات جامعية وأكاديمية مثل الماجستير . والدكتوراد التي حصل عليها السادة ضباط الجيش والشرطة باستغلال النفوذ السلطوي وباعتبارها رشاوى متبادلة بين الجامعيين الأكاديميين وبين ضباط الجيش والشرطة الذين مارسوا هذا العمل من منطلق المثل البلدي القائل "مشي حالك" والمثل البلدي القائل أيضا .. شيلني وأنا أشيلك ..

وبفضل شهادات الدكتوراه هذه فقد حصل السادة ضباط مباحث أمن الدولة على مقاعد ومواقع جامعية هامة مثل مقاعد العمداء ورؤساء الجامعات وذلك بقصد تحويل الجامعات إلى قشلاقات عسكرية للطلاب خدمة لأمن الدولة ..

حدث كل هذا بغرض خنق وشنق الصراع الطبقي ونضاله الوطني .. ولكن هيهات أن يتم ذلك طالما تواجد التناقض بين الشعب المصري من جهة وبين سلطة العسكر ورأس المال من جهة أخرى لأن التناقض هو جذر الجذور لكل حركة اجتماعية ولكل ثورة شعبية سواء كانت الحركة والثورة منتظمتين أو عفويتين .. ولعلها تذكرة وتعيها أذن واعي .. صدق الله العظيم..

الشرعية الموءودة والحقوق المفقودة في مصر المعاصرة

لابد أن يأتي على الإنسان المصري حين من الدهر يراجع فيه ماضيه السلطوي أي ماضي حكامه المصريين وما طفح فيه من فساد واستبداد وطغيان انصبت أهوالها على الشعب المصري مما جعل هؤلاء السادة الحكام قادرين على البقاء فوق عروشهم السلطوية حتى الموت .. وقادرين أيضا على توريث سلطانهم جبرا وإكراها سواء كان ذلك السلطان جمهوريا أو ملكيا ..

وأول ما يراجعه الإنسان المصري .. إنسان المستقبل هو طبيعة الشرعية المصرية ودستورها وقوانينها باعتبار الشرعية مرآة عاكسة لطبيعة السلطة والسلطان وطبيعة المجتمع وطبقاته الاجتماعية وواقع الثروة ومن يملك الثروة في مصر .. وأن ما يراجعه إنسان المستقبل هو شكل الشرعية وجوهر الشرعية التي هي شرعية موءودة في مصر المحروسة لتأثرها بالسياسة كما يقول الفقيه الدستوري الدكتور عبد المنعم محفوظ .. وعندئذ سوف يقول الإنسان المصري إنسان المستقبل .. إذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت .. صدق الله العظيم ..

إن وأد الشرعية في مصر المعاصرة كان وما زال أمرا مقصودا لتقنين الانحياز اي انحياز دوله العسكر ورأس المال لطبقتها الاجتماعيه من العسكر وغير العسكر الأغنياء والشباعى المستحوذين وحدهم على السلطة والثروة معا .. صحيح أن الدستور المصري الصادر في سنة ١٩٥٦ قد نص على اختيار رئيس الجمهورية بواسطة الاستفتاء الشعبي .. وأخذ الدستور الصادر في سنة ١٩٧١ بالاستفتاء في ست حالات ..

١. الاستفتاء على اختيار رئيس الجمهورية .
٢. الاستفتاء على اعلان تعديل الدستور .
٣. الاستفتاء على الخلاف بين مجلس الشعب والحكومة .
٤. الاستفتاء على الإجراءات المترتبة على تطبيق المادة ٧٤ من الدستور.
٥. الاستفتاء على حل مجلس الشعب .
٦. الاستفتاء على المسائل الهامة .

ولكن الدستور المصري قد غفل تماما عن حق الشعب المصري في ممارسة حق الاعتراض الشعبي على الدولة والحكومة وعلى سياستها وما يصدرانه من قوانين وقرارات .. كما غفل عن حق ممارسة الشعب المصري حق الاقتراح الشعبي بشأن مصالحه المادية وحرياته العامة والنقابية ..

وللأسف فإن فقهاء علم القانون في مصر لم يهتموا بإثارة هاتين المسألتين بسبب طغيان السلطة من جهة وضعف حركة القوى الوطنية والشعبية المعارضة من جهة أخرى .. وعدم جمهرة الثقافة القانونية والدستورية من جهة ثالثة .. ولهذا فإن مبدأ هذه الاستفتاءات يشوبه شبهة البطلان ..

كما لم يهتموا بمسألة إجراء الاستفتاء في مصر هل هي صحيحة أو باطلة حيث يؤكد الواقع المصري أن رئيس الجمهورية يقبض بيديه على سلطات الدولة الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية .. وأن إجراءات الاستفتاءات يتحكم فيها من الألف إلى الياء وزارة الداخلية ألتي هي جزء من السلطة التنفيذية .. ووزارة العدل التي هي جزء أيضا من السلطة التنفيذية . ولا يغر المواطن المصري البسيط شخصيات المستشارين الذين يشرفون على الاستفتاءات والانتخابات من رؤساء المحاكم الابتدائية والتفتيش القضائي .. فكل هؤلاء قضاة ومستشارون لا يجلسون على دكة القضاء العتيد للفصل في القضايا وفي منازعات المواطنين مع الدولة أو مع بعضهم البعض .. وبالتالي فهم ليسوا تابعين لمجلس القضاء الأعلى بل تابعين لوزير العدل عضو السلطة التنفيذية وليست السلطة القضائية ..وفضلا عن كل هذا فإن هؤلاء السادة المستشارين يمارسون أعمالا إدارية لوزارة العدل ..

ولذلك فإن الاستفتاءات بما في ذلك استفتاءات اختيار رئيس الجمهورية تحمل شبهة البطلان لأن رئيس الجمهورية هو الذي يقررها وهو الذي ينفذها إذن فسيادته الخصم وسيادته الحكم ..

وفي هذا المقام يشهد الشعب المصري بأن كل هذه الاستفتاءات صورية مائة في المائة بدليل أن الناس كل الناس يعتريها القرف كل القرف من حضور هذه الاستفتاءات التي تطبخها الشرطة قائلة تمام يا أفندي . ولو أن جهة من الجهات المحايدة أجرت استطلاعا للرأي المصري لثبت لها أن نسبة حضور المصريين إلى هذه الاستفتاءات تتراوح بين صفر إلى اثنين في المائة من الأصوات ..

وتأكيدا لذلك يقول الباحث الأستاذ محمد مرغني خيري .. يلاحظ أن نتائج الاستفتاءات في مصر تدور معظمها في دائرة التسعات فهي بين ٩٩% .. و٩٩,٩٩% ولا يشذ عن ذلك الاستفتاءات التي جرت في ظل دستور ١٩٧١ . ومن البديهي أن هذه الأرقام مبالغ فيها وتوحي بعدم الاطمئنان لنتيجة هذا الاستفتاء . إذ من المستحيل عقلا حسبما يرى الدكتور محمد قدري حسن ورود هذه الموافقات شبه الإجماعية على هذه الاستفتاءات .. فالناس كل الناس مختلفون في طبائعهم وآرائهم واتجاهاتهم ومصالحهم لدرجة لا يمكن أن تصل بهم إلى مثل هذا الاتفاق

الذي لا يتحقق للرسل والنبيين . ولا يتصور أن قوة بشرية تستطيع جمع الناس على كلمة واحدة لا يختلفون عليها ..

ويرى الدكتور محمد قدري حسن .. أنه طالما لا يتحقق الإشراف القضائي الكامل على الانتخابات فإن نتائجها وليس فقط الاستفتاءات تكون غير حقيقية ..

بعد أن فرغنا من حديث الاستفتاءات المصرية عموما بما فيها استفتاءات اختيار رئيس الجمهورية وما شاب هذه الاستفتاءات من كلام تقديري وتقريري وكلام بعضه ظني وبعضه يقيني يمس الشرعية والدستورية المصرية ويهزها هزا ..

يبقى أن نتحدث عن الانتخابات المصرية في عهد الرئيس مبارك سواء كانت انتخابات نيابية أو محلية .. هذه الانتخابات المزورة التي أدانها القضاء المصري العظيم ..

إن قضاء محكمة النقض الشامخ والعتيد أصدر مئات الأحكام ببطلان انتخابات مجلسي الشعب والشورى ..

وإن قضاء مجلس الدولة الشجاع قد أصدر أحكاما كثيرة كثيرة ببطلان الانتخابات النيابية والمحلية في مصر من أبرزها أحكام دائرة (منازعات الأفراد والهيئات) بجلسة ٢١ من أبريل سنة ١٩٨٧ في الدعاوى أرقام ٣٣٨٥ و٣٤٥٣ و٣٤٨٣ لسنة ٤١ قضائية .. والمؤيدة من المحكمة الإدارية العليا في الطعون أرقام ١٩٠٠ و١٩٢٠ و١٩٢٢ لسنة ٣٣ (ق ع) ..

وإن قضاء المحكمة الدستورية المبجل قد أصدر كذلك عددا من الأحكام الدستورية تقضي ببطلان الانتخابات النيابية والمحلية في مصر المعاصرة .. أولها الحكم الصادر بجلسة ١٩٨٧/٥/١٦ فيما يتعلق بالقانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٧٢ المعدل بشأن مجلس الشعب المعدل بالقانون رقم ١١٤ لسنة ١٩٨٣. وثانيهما وثالثهما الحكمان الصادران بجلسة ١٥ أبريل سنة ١٩٨٩ فيما يتعلق بقانون نظام الحكم المحلي رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٩ المعدل بالقانون رقم ٥٠ لسنة ١٩٨١ وما يتعلق بالقانون رقم ١٢٠ لسنة ١٩٨٠ في شأن مجلس الشورى .. ورابعها الحكم التاريخي الصادر بجلسة ١٩٩٠/٥/١٩ فيما يتعلق بالقانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٧٢ بشأن

مجلس الشعب المعدل بالقانون رقم ١٨٨ لسنة ١٩٨٦ . وخامسها الحكم الصادر بجلسة ١٩٩٦/٢/٣ فيما يتعلق بقانون نظام الحكم المحلي أيضا ..

يضاف إلى كل هذه الأحكام القضائية بشأن بطلان الانتخابات النيابية في مصر المعاصرة حكم آخر يتوج هذه الأحكام هو حكم الرأي العام المصري في المدن والقرى وفي القاع الاجتماعي المصري .. هذا الحكم الشعبي الذي يقر بتزوير الانتخابات النيابية والمحلية في عهد الرئيس حسني مبارك ..

هذا التزوير الذي جلب العار على سلطة العسكر ورأس المال في مصر حيث ثبت أن الكثير والكثير من نواب مجلسي الشعب والشورى مصابين بعاهات أخلاقية وإجرامية بدليل ظهور نواب الكيف وتجارة المخدرات .. ونواب القروض الذين نهبوا مدخرات الشعب المصري في البنوك العامة . وظهور النواب الهاربين من خدمة الوطن العسكرية . ربما كان من بينهم رئيس مجلس الشعب المصري .. وذلك بالإضافة إلى ظهور النواب الخواجات من حاملي الجنسية المصرية وغيرها من الجنسيات وظهور نواب الجريمة العامة من سراق المال العام ومن المختلسين والمحتالين ..

بعد هذا كله فمن يصدق أن الحياة النيابية والبرلمانية في مصر المعاصرة بوضعها الحالي تفرز للشعب المصري شرعية ذات دستور وذات قوانين سوية تراعي العدل والعدالة وحقوق الشعب ومصالح الوطن ..

أقول كلا وألف كلا من منطلق أنه لا يوجد مواطن مصري من الطبقات الأجيرة والفقيرة والمنتجة والأكثر عددا يقبل التصديق على القوانين الصادرة من المؤسسة النيابية والبرلمانية المصرية الحالية التي تزعم أن نصف عضويتها من العمال والفلاحين .. ولكنه للأسف فإن المواطن المصري قد رضخ لهذه القوانين غصبا عن إرادته المقهورة بواسطة سلطة العسكر ورأس المال ..

وفي هذا المقام يجب أن يحاط المصريون كل المصريين علما بأن السادة النواب الذين وافقوا على استمرار قانون الطوارئ .. قانون البطش والإرهاب السلطوي .. والذين وافقوا على قانون الخصخصة وبيع القطاع العام وقانون طرد الفلاحين الفقراء والمستأجرين من الأراضي الزراعية . والذين وافقوا على سياسات الفقر والقهر التي تمارسها السلطة . إن هؤلاء النواب الموافقين دائما كان من بينهم السادة نواب الكيف والحشيش

ونواب القروض والجريمة ونهب المال العام مما يعني أن النواب المشوهين أخلاقيا وجنائيا قد اصدروا لمصر والمصريين قوانين مشوهة وباطلة وجائرة بأغلبية الشعب المصري ..

يؤيد قولي هذا رأي اثنين من فقهاء علم القانون والدستور هما الدكتور محمود عاطف البنا . والدكتور عبد المنعم محفوظ .. اللذين يقولان أن مصر المعاصرة في حالة انهيار دستوري .. وهذه حالة لم تشهدها مصر الملكية ومصر الجمهورية ..

إن منشأ هذه الحالة بنظري هو تفشي القوانين والإجراءات الحكومية الباطلة في الانتخابات . وكذلك تفشي التزوير السلطوي للانتخابات النيابية والتشريعية مما أدى إلى صدور الكثير من الأحكام ببطلان الانتخابات وقوانين الانتخابات وإجراءات الانتخابات ..

إن هذا البطلان قد ترتب عليه بطلان كل القوانين التي أصدرتها السلطة التشريعية والبرلمانية في عهد الرئيس حسني مبارك .. وهذا هو الانهيار الدستوري بعينه الذي لم يتجمهر أمره وخبره في صفوف المصريين..

وبشأن مسألة الانهيار الدستوري بسبب الخلل الموضوعي الذي أصاب المؤسسة التشريعية المصرية .. وأصاب بالتبعية ما فرزته وما أفرزته من قوانين فإن المثقف المصري قد تواطأ مع السلطة والسلطان فلم يتفضل على عامة الناس من أمثالي القابعين في مواقع العمل والإنتاج والقاع الاجتماعي بإشاعة الثقافة القانونية والدستورية التي تمس مصالح حياتهم المعيشية .. ولذلك فعلى المصريين كل المصريين أن يعرفوا أن عددا من الفقهاء الدستوريين المصريين يرون أن بطلان انتخابات مجلس الشعب ينسحب إلى بطلان كل القوانين التي أصدرها هذا المجلس النيابي الباطل..
يقول الأستاذ عاطف محمود البنا ..

أن القاعدة المقررة بالنسبة للأحكام أنها كاشفة وليست منشئة وعلى ذلك فحكم المحكمة الدستورية العليا يكشف حقيقة هذا البطلان ولا ينشئه . ومن ثم فهو يقرر شيئا قائما مثلا بحكم الدستور ولما كانت الحجية تثبت لمنطوق الحكم وأسبابه المرتبطة به ارتباطا جوهريا . فمن ثم فإن القضاء ببطلان مجلس الشعب يكون أكثر ارتباطا بمنطوق الحكم من مسألة صحة أو عدم صحة ما أصدره المجلس من قوانين وقرارات وإجراءات ..

ويعيب الدكتور محمود عاطف البنا على ما انتهى إليه الحكم بأسبابه السابقة مباشرة على المنطوق بأن بطلان المجلس المذكور منذ انتخابه لا يؤدي إلى وقوع انهيار دستوري .. ولا يستتبع إسقاط ما فرزه المجلس من قوانين وقرارات وما اتخذه من إجراءات خلال الفترة السابقة .. ويرى أيضا أن هذا الحل لا يتسق مع المنطق القانوني المجرد . إذ أن الأصل أن عدم الدستورية يستتبع البطلان وما ينبغي على باطل فهو باطل ..

ويقول الفقيه الدستوري الدكتور عبد العظيم محفوظ ..

إن المحكمة . أي المحكمة الدستورية . اجتهدت اجتهادا جديدا لم تطبقه من قبل في العديد من الأحكام الشهيرة التي أصدرتها منذ إنشائها . والغريب في الأمر أنها لم توضح الأسس الفلسفية أو حتى الحيل القانونية التي ارتكنت إليها في أسباب حكمها . ويتمثل هذا الاجتهاد الجديد في أن المحكمة أرادت بقصد أو بدون قصد - في الأسباب دون المنطوق تحقيق أمرين متناقضين ..

الأول .. الكشف عن بطلان تشكيل مجلس الشعب منذ انتخابه .

الثاني .. التأكيد على عدم انسحاب البطلان أو شموله للقوانين والقرارات والإجراءات الصادرة عن مجلس الشعب .

ويرى الدكتور عبد المنعم محفوظ أيضا ..

وبالنسبة للأمر الثاني فإن المحكمة أي المحكمة الدستورية قامت بدور سياسي ظاهر ومكشوف . إذ يبين من الفقرة الأخيرة من الأسباب أن المحكمة قد كيلت بمكيالين متمايزين . كيل أبطلت فيه تشكيل مجلس الشعب منذ انتخابه . وآخر أصبغت به المشروعية على القوانين والقرارات والإجراءات الصادرة من مجلس الشعب (الباطل) منذ انتخابه ..

وإضافة لتأكيد ما سبق ذكره فإن محكمة النقض المصرية العظيمة بدائرة المستشار حسام الغرياني نائب رئيس محكمة النقض قدمت لمصر والمصريين حكما قضائيا فريدا في موضوعه وفي عدله وفي شجاعته . هذا الحكم الذي يقول للشعب المصري تحرك تحرك فقد بلغ الظالمون المدى ..

صدر هذا الحكم الأسطورة في يوم ٢٠٠٣/٥/١٢ ويقضي ببطلان انتخابات مجلس الشعب التي أجريت في ٢٠٠٠/١١/١٨ بالدائرة التاسعة لمحافظة القاهرة ومقرها قسم شرطة الزيتون وهي دائرة رئيس الديوان

الجمهوري زكريا عزمي .. وأن سبب البطـــلان يتلخـــص فـــي أن الذيـــن اشرفوا على انتخابات هذه الدائرة ليسوا قضاة يجلســـون علـــى منصـــات القضاء ويصدروا أحكاما للفصل في منازعات الناس ..

وبسبب هذا الحكم القضائي الرائع قامت الدنيا ولـــم تقعـــد لأن الدائـــرة الانتخابية موضوع هذا الحكم هي دائرة كبير حاشية رئيس الجمهوريـــة .. وهذا ما غاظ رياسة الجمهورية مما جعلها تخرج على المنهج المتبع فـــي تعيين رئيس المحكمة الدستورية العليا حيث كان التعيين قاصرا على نـــواب محكمة النقض .. ولكن صدر خلاف المتبع قرارا جمهوريا يقضي بتعييـــن أحد شخصيات محكمة استئناف القاهرة رئيسا للمحكمة الدســـتورية ممـــا يعني أنه تخطى مستشاري محكمة النقض لموقفهم القضائي بشأن الطعـــن في انتخابات مجلس الشعب بدائرة كبير الديوان الجمهوري زكريا عزمي

أليس بكاف لإثبات أن الشرعية المصرية عموما موءودة بفعل ســـلطة العسكر ورأس المال . لتغليب حقوق الأقلية الحاكمة على حقوق الأغلبيـــة الفقيرة والمنتجة مما يؤكد أن دولة الرئيس مبارك دولـــة العســـكر ورأس المال هي أداة قهر للشعب المصري ..

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القـــدر

المندوب السامي الأمريكي
يحكم مصر المحروسة

رغم الوحدانية السياسية والسلطوية للرئيس حسني مبارك وما ولدتـــه من توحيد مطلق لشخصه ونفوذه . فإن هذه الوحدانية التي خفـــض لـــها المصريون وللأسف جناح الذل من الخوف والرهبة قد اعتراهـــا الشـــرك والإلحاد الأمريكي ..

فالسفير الأمريكي في مصر قد تحول بقدرة قادر إلى منـــدوب ســـامي أمريكي في مصر المحروسة حيث فرض وجـــوده فرضـــا علـــى الحيـــاة والمجتمع في مصر فسيادته يتدخل بشكل صارخ في كـــل شـــئون مصـــر السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما جعل ممارساته الاستعمارية علـــى

بر مصر ونيله الخالد تفوق ممارسات وتدخلات الباشا العثماني الذي كان يحكم مصر من القلعة نيابة عن الخليفة العثماني .. وممارسات وتدخلات المندوب السامي البريطاني الذي كان يحكم مصر من قصر الدوبارة نيابة عن ملك إنجلترا ..

ولم يكتف المندوب السامي الأمريكي بالتدخل والمراقبة والتفتيش على مؤسسات السياسة والاقتصاد والاجتماع في مصر لتقييم أحوالها وكيفية تصريف أمورها مما يثبت أن مصر المحروسة باتت شبه مستعمرة أمريكية في عهد الرئيس مبارك . ومن هنا بادر مندوب الإمبراطورية الأمريكية في مصر إلى محاولة غزو روحنا المسلمة والمسيحية هذه الروح المصرية الخالدة والعظيمة التي تتجلى فيها الروح الفرعونية والروح القبطية والروح العربية والإسلامية التي لم ولن تخضع أبدا أبدا للأمريكي قبيح الوجه بل تقاوم وجوده الاستعماري وتبصق على وجهه باعتباره مستعمر وباعتباره عدو للبشر كل البشر ..

ومما يذكر أن العدو المستعمر الأمريكي حاول مبكرا غزو روح مصر بالتبشير بالمسيحية اليمينية والصهيونية وبفتح المدارس والجامعات وبواسطة الدولار الأمريكي اللعين منذ سنوات النصف الأخير من القرن التاسع عشر .. ولقد تصدى له حينئذ بطريرك كنيستنا الوطنية القبطية الأرثوذكسية المرقسية حيث خاطب السفير الأمريكي محذرا (من ممارسة التبشير في مصر سواء كان في صفوف المسلمين أو في صفوف المسيحيين) .. ثم قال سيادة البطريرك ..هل جئتم من أمريكا لكي تعلمونا المسيحية التي لا تعرفونها .. إننا نحن المسيحيين المصريين نمثل المسيحية الأصولية في مصر والعالم ..

ولكن الأمريكيون وحكامهم لا يعرفون الروح لأنهم شعب وحكومة بلا روح وفاقد الشيء لا يعطيه .. ولأنهم أيضا شعب معدوم التراث الحضاري والأخلاقي والإنساني حيث قام هذا الشعب العدواني الظالم على أشلاء ملايين البشر من الهنود الحمر والزنوج وعلى أشلاء ضحايا قنابلهم الذرية في هيروشيما ونجازاكي في اليابان مما جعل أمريكا دولة عدوانية همجية يستبد بها الغباء والجهالة ..

ولكن نظرا لأن مصر باتت شبه مستعمرة أمريكية فمن حق المندوب السامي الأمريكي ديفيد ولش أن يصحب وزير الثقافة المصري للتفتيش

على آثار مصر بقصد احتلال الروح المصرية والعبث بها وذلك خطوة من الخطوات الأمريكية الساعية لهدم تراثنا وثقافتنا وديننا الإسلامي وديننا المسيحي من خلال تغيير وإعادة صياغة خطابنا الديني .. والشيء الذي يجهله أغبياء السلطة الأمريكية أن الخطاب الديني وأي خطاب ديني للمسلمين وغير المسلمين يقام على قاعدة الأمر بالمعروف من خلال حب الإنسان للإنسان بصرف النظر عن جنسيته ودينه ووطنه . وعلى قاعدة النهي عن المنكر من خلال مقاومة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ومن خلال مقاومة استعباد وتسخير واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ..

ذلك هو الخطاب الديني الذي تحاول أمريكا تغييره في مصر شبه المستعمرة لكي يصبح خطابنا الديني بمثابة دعوة للاحتلال والاستعمار واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان . وهذا خير تبرير لاحتلا أمريكا وإسرائيل فلسطين وأفغانستان والعراق وإبادة شعوبها ..

والأمر الذي يثبت أن مصر المعاصرة شبه مستعمرة أمريكية وأن السفير الأمريكي ديفيد وولش هو المندوب السامي الأمزيكي في مصر الذي قام باقتحام الأزهر الشريف .. أزهر العالم الإسلامي ومقابلة شيخ الزهر الذي يسمى بشيخ الإسلام في العالم لمطالبته بإلغاء الفتوى التي أصدرها فضيلة الشيخ نبوي محمد العش التي حرم فيها الاعتراف بمجلس الحكم الانتقالي في العراق وغيرها من الفتاوى الشرعية والصحيحة الصادرة من الأزهر الشريف التي تتعارض مع المصالح الأمريكية مثل فتوى فضيلة الشيخ محمد أبو الحسن الرئيس السابق للجنة الفتوى بالأزهر التي قضت بضرورة التصدي للقوات الأمريكية في حربها على الرئيس العراقي وعدم مشاركة أية قوات عربية في الحرب على العراق . واعتبرت الفتوى أن أي دولة عربية تقدم دعما للقوات الأمريكية ستكون آثمة ومخالفة لأحكام الشريعة ..

وقبل ذلك فقد هاجمت لجنة الفتوى هذه الرئيس بوش والسفير الأمريكي عندما اتهما الشبان الفلسطينيين بالانتحاريين . وأنهم ليسوا شهداء .. وقد أكدت اللجنة أن الفلسطينيين شهداء بنص القرآن والسنة وأن القرآن يحث الجميع على الدفاع عن الأراضي العربية في القدس وفلسطين .. وأن مصدر الشريعة هو القرآن والسنة وليس ما يقوله الرئيس بوش ولا السفير الأمريكي ..

هكذا هي روح الأمة المصرية والأمة العربية والأمة الإسلامية التي لم ولن تستطيع أمريكا وكل أزلامها من الحكام أن يهزموها أو أن يهزموا غيرها من الأمم الصامدة ..

إن واقع هذه المقابلة بين شيخ الأزهر والسفير الأمريكي ديفيد ولش كما عرضتها جريدة العربي الصادرة يوم الأحد الموافق ٣١ من أغسطس ٢٠٠٣ تؤكد أن مصر شبه مستعمرة أمريكية وأن السفير الأمريكي هو المندوب السامي الأمريكي في مصر المعاصرة ..

فالسفير الأمريكي لم يذهب إلى وزارة الخارجية المصرية ولم يذهب إلى الرئيس حسني مبارك ولكنه ذهب إلى شيخ الأزهر مباشرة لإدراكه أن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر هو واحد من مرءوسيه العاملين في مصر بوظيفة شيخ الأزهر ..

وفي اللقاء كما تقول جريدة العربي فقد حدد السفير الأمريكي مطالبه بإلغاء الفتوى التي أصدرها الشيخ نبوي محمد العش وإلغاء لجنة الفتوى ووضع أي فتوى يصدرها الأزهر تحت رقابة الفقهاء المعتدلين .. وقد استجاب شيخ الأزهر لهذه المطالب الأمريكية وأضاف عليها من عندياته قرار بوقف فضيلة الشيخ نبوي محمد العش وتقديمه للتحقيق إكراما لأمريكا والسفير الأمريكي ..

والشيء الخطير الذي بادر به فضيلة شيخ الأزهر في المقابلة هو أن الأزهر لا شأن له بالسياسة علما بأن الأزهر الشريف يمارس السياسة طول عمره .. وهو أيضا أي الأزهر أزهر مصر فقط .. علما بأن الأزهر هو أزهر كل المسلمين في العالم بدليل أن شيخ الأزهر يسمى بشيخ الإسلام .. ولا يعني هذا الكلام إلا هدم أممية الأزهر وعالمية الأزهر لأول مرة في تاريخه المجيد .. وذلك برهان على التبعية لأمريكا وأن مصر صارت شبه مستعمرة أمريكية ..

ولكن كيف ارتبطت مصر المستقلة بالتبعية الأمريكية مما جعلها تصبح شبه مستعمرة أمريكية ؟ ..

إن الفضل كل الفضل للرئيس المقتول أنور السادات في ربط مصر ربطا وثيقا بالتبعية الأمريكية بسبب مصالح مستترة وأخرى ظاهرة .. حيث يقال أن الوزير السعودي كما أدهم قد جند البكباشي أنور السادات عضو مجلس ثورة يوليو للمخابرات الأمريكية منذ عام ١٩٦٤ وظل السادات يتمسكن

حتى تمكن بتعيينه نائبا لرئيس الجمهورية ثم رئيسا للجمهورية بعد وفاة الرئيس عبد الناصر ..

أما الأسباب الظاهرة فتبدو في أن أنور السادات الضابط الفقير ابن الموظف الفقير وصاحب العيال الكثيرة بدأ حياته نازي التفكير وتابعا للملك فاروق ومن منطلق مشي حالك أصبح عضو في مجلس ثورة يوليو . ثم . ثم . ثم . ومن هنا طفحت طموحاته في السلطة والثروة معا وهذه الطموحات لا يمكن تحقيقها في ظل الاشتراكية الناصرية ولهذا فلابد أن يستغل رئاسته للجمهورية ووحدانيته السياسية والسلطوية وينشأ نظام حكم فعجل بإنشاء نظام حكم نفخ فيه من روحه وطموحاته وأطماعه .. هذا النظام الجديد الذي يجب عليه أن يتخلص من كل المخلصين من الاشتراكيين الناصريين في الداخل وأن يتخلص أيضا من الاتحاد السوفيتي وعلاقاته بمصر . مما مكنه من الهرولة إلى أحضان أمريكا التي تملك ٩٩% من حل قضية فلسطين وكل قضايانا ..

هكذا نشأت تبعية مصر لأمريكا ولقد توثقت هذه التبعية بزيارة الرئيس المقتول للقدس وصلح كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل مما أدى إلى انسحاب مصر العظيمة والرائدة والقائدة من مواجهة إسرائيل ومن هنا بدأت مصائب الشعوب العربية تتوالى وتتوالى ..

ولو تأملنا صلح كامب ديفيد الأمريكي الصنع بين مصر وإسرائيل لأدركنا أنه لا يستطيع حاكم مصري أو عربي أن يفكر في هذا الصلح أو يجرأ على تنفيذه إلا حاكم عميل راسخ في عمالته لأمريكا .. حاكم عميل ربط مصالحه الشخصية مع أمريكا وربط مستقبله السياسي ومصيره كله مع أمريكا .. ولم يكن هذا الحاكم إلا الرئيس المقتول أنور السادات الذي نفذ هذا الصلح بفضل وحدانيته السياسية والسلطوية المطلقة التي ورثها من الرئيس جمال عبد الناصر ..

وقبل هذا الصلح المقيت وبعده بادرت أمريكا بتأكيد تبعية مصر المحروسة لها تمهيدا لكي تصبح مصر المحروسة شبه مستعمرة أمريكية وهذا ما كان ..

وقد بدأت علاقات التبعية هذه بتدفق المعونات المدنية والعسكرية على مصر مع العلم أنها معونات صورية ومغشوشة وضارة لما سببته لمصر من ديون وانقلابات اجتماعية .. انقلاب الخصخصة وبيع القطاع العام .

وانقلاب هدم الإصلاح الزراعي وطرد الفلاحين الفقراء من الأراضي الزراعية . وانقلاب هدم الاقتصاد المخطط والتنمية المستقلة ودخول مصر اقتصاد السوق الرأسمالي ..

يقول تقرير هيئة المعونة الأمريكية بشأن نشاطها خلال ربع قرن من سنة ١٩٧٥ إلى سنة ٢٠٠٠ أن مصر تتلقى طوال هذه الفترة معونة أمريكية سنوية قدرها ٨١٥ مليون دولار [illegible] مصر هو مبلغ ٢٢,٧ مليار دولار لتطهير قناة السويس وعودة الملاحة البحرية ومن أجل المساعدة في توفير البنية الأساسية في مجالات الطاقة والمياه والاتصالات وبناء صوامع الغلال .. والعمل على رفع مستوى معيشة الفلاحين (كذب) ورفع مستوى الصحة والتعليم (كذب) وتحقيق الخصخصة .. وإعطاء القطاع الخاص الرأسمالي دورا هاما في كل هذه المجالات ..

تلك هي المعونات المدنية الصورية والضارة المقدمة من أمريكا لمصر المحروسة طوال رع قرن .. ولقد كان يجب على السادة المثقفين المصريين جمهرة تفاصيل هذه المعونات الأمريكية ومقارنتها بالمعونات [illegible] حقيقة هذه المعونة الاستعمارية ومغزاها ومقصدها ..

فقد كان يجب جمهرة الملاحظات الضارة والسلبية لهذه المعونات وهذه بعضها ..

١. أن المبالغ النقدية التي وصلت مصر من هذه المعونات تقدر بمبلغ مليار و٨١٥ مليون سنويا ..
٢. أن المعونات التي تفضلت بها أمريكا على مصر المحروسة جاءت على شكل سلع وبضائع عالية الثمن جدا عن نظيرتها الأوربية .. وأن تكاليف نقلها إلى مصر مرتفعة جدا جدا ..
٣. أن دور الخبرة الأمريكية قد حصلت على نسبة تتراوح ما بين ١٥% إلى ٤٠% من مبالغ هذه المعونات الأمريكية مقابل كومة من الأوراق تحمل خبراتها وتحمل أيضا رسومات المشاريع المصرية التي تمولها المعونة الأمريكية ..
٤. يقدر بعض المختصين بأن نسبة ٧٠% من هذه المعونات تعود إلى أمريكا..

٥. كان وما زال ممنوع منعا باتا صرف مليم واحد من هذه المعونات على التصنيع في مصر ..
٦. وقد ترتب على هذه المعونات الأمريكية الضارة وقف التنمية في مصر ..
٧. كما ورطت هذه المعونات الأمريكية مصر في ديون خارجية مقدارها مبلغ ٦٢ مليار دولار عام ١٩٨٩ حسب تقدير العالم الاقتصادي المرحوم رمزي زكي ..

وبجانب هذه المعونات المدنية فقد تفضلت علينا أمريكا بمعونات عسكرية قدرها ١,٣ مليار سنويا .. وذلك لتوفير السلاح للقوات المسلحة بعد وقف إمدادات السلاح السوفيتية والروسية وقد اشترطت أمريكا وقف تنفيذ شعار .. تنويع مصادر السلاح ..

ولعل الشعب المصري الأجير والفقير يسمع ما قاله وزير الدفاع الأمريكي الأسبق اليهودي وليام كوهين الذي منحه الرئيس مبارك أعلى وسام في مصر حيث قال الوزير الأمريكي الصهيوني في مارس ١٩٩٩ .. إن صفقات السلاح الأمريكية تأتي إلى مصر المحروسة في إطار اتفاقيتي معاهدة كامب ديفيد . واتفاق الصلح بين القاهرة وتل أبيب .. وأنها جزء من الاتفاق مع مصر على استبدال الأسلحة المصنوعة في روسيا بأسلحة أمريكية وذلك بقصد ضمان حماية أمن إسرائيل ..

يقول اللواء أحمد عبد الحليم .. إن صمويل بيرجر مستشار الرئيس الأمريكي السابق "كلينتون" اعترف بأن حماية أمن إسرائيل مثل حماية أمن أمريكا .. ولهذا رفضت الإدارة الأمريكية في كل عهودها المختلفة فكرة تحقيق توازن عسكري بين مصر وإسرائيل ..

من هنا بدأت مصر شبه مستعمرة أمريكية لضمان مصلحة نظام الحكم المصري فقط يؤيد ذلك فتح القواعد العسكرية في مصر للقوات المسلحة الأمريكية ومشاركة مصر في المناورات العسكرية الأمريكية .. والحرب الأولى ضد العراق التي لم ولن يمكن شنها لولا موافقة مصر بضغط من أمريكا ..

إذ أن هذه الحرب الأولى ضد الشعب العراقي أهدرت هيبة ومقدسات أرض الجزيرة العربية التي مشى عليها الأنبياء .. ومشى فوقها رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته .. حيث غزتها الجيوش الأمريكية

والإنجليزية وجنودها اليهود والصهاينة ومعهم للحزن جيشنا المصري العربي المسلم المسيحي ومما يذكر أن هذه الحرب قد دفعت أمريكا إلى عسكرة العولمة ..

ولذلك فإن هذه الحرب الأمريكية الإنجليزية الأخيرة على الشعب العراقي تثبت أن مصر شبه مستعمرة أمريكية بدليل مواجهاتها العنيفة جدا للمظاهرات الشعبية التي تدين حرب أمريكا وإنجلترا ضد العراق .. وبدليل المساعدات العسكرية ومشتقاتها التي قدمتها مصر الرسمية والمحروسة إلى الجيوش الأمريكية الغازية .. حيث عبرت من قناة السويس المصرية التي حفرها الفلاحون المصريون بأظافرهم وماتوا تحت حفرها وردمها .. الأساطيل الأمريكية والإنجليزية المحملة بالخراب والدمار الشامل للشعب العراقي .. وحيث انطلقت صواريخ الموت ضد العراق الشقيقة من قواعد البحر الأحمر منها قاعدة رأس بنياس وغيرها من القواعد وما خفي في هذا الشأن المأسوي كان أعظم وأشنع وسوف يتضح كل ما هو خفي يوم أن تطوي مصر المحروسة سجل قديم وتفتح سجل جديد ..

كل ما ذكرته يمثل وقائع إثبات تحويل مصر المستقلة التي ضحى المصريون في سبيل استقلالها بأرواح لا حصر لها وببحور من الدم المصري المسلم والمسيحي إلى مصر شبه المستعمرة الأمريكية بمشيئة حاكم واحد وطبقة واحدة حاكمة ومالكة ..

وإضافة إلى وقائع الإثبات هذه نقدم واقعتين هامتين هما ..

الواقعة الأولى : خطاب جمال مبارك ابن الرئيس مبارك في الجامعة الأمريكية الذي قال فيه أن الحزب الوطني لم يعد حزب شعبوي ولكنه أصبح حزبا برجماتيا أي نفعيا .. إن هذا الخطاب السلطوي يقول بصراحة "الناس على دين ملوكهم" فأمريكا دولة برجماتية "نفعية" فلابد أن تكون مصر صورة منها . ومن شابه أباه فما ظلم ..

الواقعة الثانية : السفر المتتالي لوفود مصرية تسمى بوفود رفيعة المستوى إلى أمريكا .. برياسة الابن جمال مبارك "حامل مشروع وراثة سلطة مصر"..

إن هذه الوفود المصرية رفيعة المستوى لم تذهب مرات ومرات إلى أمريكا بقصد تحقيق مصلحة للشعب المصري . ولكنها ذهبت وسوف تذهب للحصول على تأييد الإدارة الأمريكية بشأن توريث سلطة الرئيس

مبارك ووحدانيتها السياسية والسلطوية إلى الابن جمال مبارك . مثلما كان يفعل الولاة في الدولة العثمانية حيث كانوا يذهبون إلى مقر الخلافة العثمانية محملين بالهدايا والنفحات لتقديمها إلى الخليفة العثماني وحاشيته لإصدار فرمان من الباب العالي لتوريث الولاية من الوالي الأب إلى الوالي الابن ..

ولذلك فقد أصبح الشعب المصري يعيش مرحلة من مراحل التحرر الوطني الجديد .. حقا فإن التاريخ يعيد نفسه ولكن بصورة متغيرة ..

حزب التجمع اليساري الاشتراكي
يدعو إلى استقالة مبارك

حدث جديد لم يحدث في مصر الملكية وفي مصر العسكر والجمهورية حيث دعا حزب التجمع اليساري الاشتراكي إلى استقالة رئيس الجمهورية حسني مبارك وخلعه في سابقة شعبية وحزبية لم تبادر بها الأحزاب في العهد الملكي بما في ذلك حزب الوفد الشعبي والقوي والعتيد .. كما لم يبادر بمسألة خلع رئيس الجمهورية الرئيس مبارك حزب من أحزاب المعارضة وحتى حزب الإخوان المسلمين المترامي الأطراف بعضويته لم يبادر بالدعوة إلى خلع الرئيس مبارك ..

ومن هذا المنطلق ينبغي تحية اليسار الاشتراكي وحزب اليسار الاشتراكي المصري .. حزب التجمع الذي حمل الأمانة الشعبية المصرية وحمل نبض الشارع المصري الذي يرفض حكم الرئيس مبارك وويلاته وأهواله وفقره وبطالته وغلاء أسعاره ..

ففي اجتماع اللجنة المركزية لحزب التجمع المنعقدة في يوم الخميس ١٨ سبتمبر سنة ٢٠٠٣ أكدت اللجنة المركزية وتقريرها السياسي ومناقشتها وحواراتها على إبراز طبيعة الحزب . حزب التجمع . بأنه حزب يساري اشتراكي لا يرقص للقرد في دولته ..

ثم ناقشت اللجنة أحوال مصر وما حاق بها من خراب في الصناعة وخراب في الزراعة . وخراب اقتصادي واجتماعي .. وما أصابها كذلك

من انهيار دستوري لأول مرة في مصر الحديثة من جراء تفشي تزوير الانتخابات والاستفتاءات ..

وكان أشجع ما ناقشته اللجنة المركزية مسئولية الرئيس مبارك باعتباره رئيس الجمهورية وباعتباره القابض بيده وأسنانه على سلطات الدولة الثلاث . التنفيذية والتشريعية والقضائية مما دفعه إلى إعادة صياغة المجتمع لصالح رأس المال .. وكذلك بالإضافة إلى إغراق مصر المحروسة والمستغلة في مستنقع العمالة والتبعية للاستعمار التي وصلت إلى حد أن مصر الرسمية وافقت على شروط أمريكية تقضي بالتدخل العسكري في حالة وقوع خلاف بي مصر والشركات الأمريكية التي تستثمر أموالها في مصر مما جعلها شبه مستعمرة أمريكية ..

ولذلك فإن اللجنة المركزية قد أقرت بمسئولية الرئيس مبارك الشخصية والعامة عن كل هذا الدمار .. حيث قال عضو إن حزبنا وصحافته وكذلك صحافة المعارضة تهاجم الوزراء والمحافظين وكبار المسئولين ولا تهاجم الرئيس مبارك علما بأنهم غلابة لا يتصرفون إلا في أتفه الأمور .. وقال عضو آخر .. صلوات الله على نبينا إبراهيم الذي كان يمارس هدم الأصنام ولهذا فلعل حزبنا يمشي على هديه في تحطيم الأصنام المصرية .. وقال عضو أن الاستفتاءات والانتخابات ومجالس الشعب باطلة وكل ما أفرزته من قوانين وقرارات باطلة وما بني على باطل فهو باطل .. وقال عضو ينبغي إدانة التوريث الجمهوري ورفضه .. وقال عضو مقترحا دعوة القوى الوطنية واليسارية إلى المطالبة باستقالة الرئيس حسني مبارك وخلعه فورا وقيام فترة انتقال تشرف عليها الهيئة القضائية .. فقوبل هذا الاقتراح بتصفيق اللجنة المركزية على الاقتراح لعدة دقائق مما يثبت أن حزبنا حزب التجمع اليساري الاشتراكي يدعو إلى استقالة مبارك وخلعه فورا خدمة للشعب المصري الساخط والغاضب ..

هكذا استطاعت اللجنة المركزية لحزب التجمع أن تسقط مهابة عبادة الفرد التي حظي بها الرئيس مبارك من قبل عدد ضئيل من المنتفعين الذين أبرزوا هذه الصفة التي كان يحظى بها الرفيق ستالين لانتصاراته وإنجازاته..

هكذا تخلى حزب التجمع عن سقوفه المنخفضة بشأن مطالب الشعب المصري .. وارتفع بهذه السقوف إلى حد المطالبة بالتغيير حتى تصبح مصر مستقلة ديمقراطية يتوافر فيها الخبز والزبد والعمل والحرية ..

ارفعوا سقوف مطالب الشعب
من أجل التغيير

ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار .. صدق الله العظيم
لا يجب الدخول على السلاطين ومخالطتهم .. الإمام الغزالي
إن الرجل يدخل على السلطان الظالم ومعه دينه فيخرج ولا دين له ..
ابن مسعود

لقد أمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أمرا جازما صريحا ..
"إذا رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه"
والسبب في ذلك مواقف الإمام أبي سفيان الثوري وأقواله الشجاعة .

- النظر إلى وجه الظالم (السلطان) خطيئة .
- من دعا لظالم (السلطان) بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله .

وكان كثير من الناس يحثون أبا سفيان الثوري على الاتصال بالأمراء والسلاطين فيجيبهم ..

- إني لألقى الرجل أبغضه فيقول لي .. كيف أصبحت ؟ فيلين له قلبي فكيف بمن أكل ثريدهم .. ووطئ بساطهم .

وقيل لأبي سفيان الثوري لو دخلت عليهم (أي على السلطان وحاشيته)

- قال .. إنني أخشى إن يسألني الله عن مقامي ما قلت فيه

قيل له .. تقول وتتحفظ

- قال .. أتأمروني أن أسبح في البحر ولا تبتل ثيابي .. ولست أخاف ضربهم ولكنني أخاف أن يميلوا علي بدنياهم .. ثم لا أرى سيئاتهم سيئة..

لقد لقي أبو سفيان شريكا بعد ما ولي قضاء الكوفة فقال .. يا عبد الله.. بعد الإسلام والفقه والخير .. تلي القضاء وصرت قاضيا ..

يا أبا عبد الله لابد للناس من قاضي .. فقال له سفيان يا أبا عبد الله لابد للناس من شرطي ..

كان الخليفة أبو جعفر العباسي كثيرا ما يطلب الثوري ويأبى الثوري ملتمسا الأسباب ويسأل الناس في ذلك فيقول ..

- والله لئن قمت بين يديه لأقولن له .. قم من مقامك فغيرك أولى به .

أبو سفيان الثورى

- استغل كل طاقتك وإرادتك حتى يقوى جناحك ليحملك إلى الفضاء العالي . حيث تحلق النسور . هناك الحرية . وهناك الخطر . إذا لم تستطع فلا تسمح لنفسك تحت أي ظرف بطلب الأمان في قفص ببغاء (حتى لو كان من ذهب) تنطق برطانة يدربونك عليها في (السلطة) ثم يكون دورك أن تكررها وتعيدها كلما مروا عليك وطلبوا منك أن ترقص وتغني (للقرد في دولته) حتى يراك (السلطان) وحاشيته وأولاده وقد يصفقون لك ويضحكون (باعتبارك مضحك الملك) ثم يتركونك حيث أنت ويذهبون ومعهم بسمة من تَسل وتلة ..

تشرشل مع الاعتذار

ذلك هو السلطان الجائر قديما وحديثا في بلاد الاستبداد الشرقي سواء كان في العراق أو مصر أو الشام أو تركيا وغيرها من بلاد الشرق الاستبدادي قديما وحديثا وحاضرا .. فالسلطان الجائر في بلادنا العربية والإسلامية يرثُ الجور من سلفه ويُورث الجور لخلفه باعتبار ذلك مبدأ من مبادئ الاستبداد الشرقي المنفذة في مصر المعاصرة حيث لا يستطيع مصري واحد من المصريين الذين يزيد عددهم على سبعين مليون مصري أن يرفع سقوف مطالبه وأن يجهر بصوت عالي في معارضة رئيس الجمهورية رغم وصوله للغروب بحكم عمره الطويل والمديد ..ورغم أن الغروب سيطوي كل من عليه قريبا قريبا كما يطوي السجل للكتب في شفق ربما يكون مجردا من لونه الوردي لارتدائه السواد حدادا على ما جرى في مصر المحروسة من فقر وقهر ..

ومع العلم أن أبسط المصريين يعرف جيدا أن الغروب وشفق الغروب يؤديان حتما إلى غسق الليل الأبدي الطويل .. ألا كل شيء ما خلا الله زائل . وكل نعيم لا محالة زائل .. وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .. سورة الرحمن ..

وإن هذه المعرفة التي تحظى بشعبية ملحوظة وجماهيرية صارخة تدعونا إلى رفع سقوف مطالبنا العامة من خلال المصارحة الوطنية كواجب قومي وفريضة اجتماعية ومسئولية أخلاقية تجاه مصر وشعب مصر ..

وتتجلى هذه المصارحة الوطنية التي ينبغي أن تتخلص من التردد والتشدد في إعلان إرادة المصريين كل المصريين وقواهم الوطنية واليسارية هذه الإرادة التي تتمثل في المطالب الآتية ..

أولا .. مطالبة الرئيس محمد حسني مبارك بالاستقالة الفورية .

ثانيا .. قيام فترة حكم انتقالية تشرف عليها الهيئة القضائية .

ثالثا .. في هذه الفترة لابد من خضوع رئيس الجمهورية وأسرته والوزراء والمحافظين وكافة المسئولين السابقين والحاليين وأعضاء مجلسي الشعب والشورى الحاليين والسابقين وأسرهم لقانون الكسب المشروع "قانون من أين لك هذا" .

رابعا .. انتخاب جمعية تأسيسية لوضع دستور مصر لإقامة مجتمع مدني ديمقراطي يقوم على الأسس الآتية ..

١. دستور مصري يقر العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص بين المصريين جميعا .
٢. دستور مصري يقر إعادة النظر في القوانين والتشريعات والقرارات التي صدرت في عهد الرئيس حسني مبارك التي تشوبها شبهة البطلان والانهيار الدستوري .
٣. دستور مصري يقر بتداول السلطة وتعدد الأحزاب والنقابات والجمعيات.
٤. دستور مصري يقر بدورتين فقط لمنصب رئيس الجمهورية .
٥. دستور مصري يقر باستقلال السلطات الثلاث . التنفيذية والتشريعية والقضائية استقلالا فعليا وليس شكليا .
٦. دستور يقر بالمساواة العامة والمطلقة بين المصريين في الحقوق والواجبات وفقا لشعار الدين لله والوطن للجميع
٧. دستور مصري يقضي قضاء مبرما على تمييز أبناء وأقارب المسئولين ومن لهم واسطة بدخول كليات معينة والتعيين في وظائف معينة

وتجريم من يمارس مبدأ اللياقة الاجتماعية العنصري والفئوي والطبقي.

٨. دستور مصري يعيد للشعب المصري ثروته العامة وماله العام الذي تعرض للخصخصة وبيع القطاع العام .
٩. دستور مصري يقر بنظام التخطيط الاقتصادي ورأسمالية الدولة .
١٠. دستور مصري يؤكد استقلال مصر وتخليصها من أي تبعية استعمارية.
١١. دستور مصري يؤكد انتماء مصر للعروبة والأمة الإسلامية .

على هذا النحو الثوري والموضوعي يكون الشعب المصري قد رفع سقوف مطالبه العامة التي كانت وما زالت قاصرة على مطالب منخفضة ومتدنية مثل نقل موظف من مكان إلى آخر .. ومثل طلب توصيلة مياه وتوصيلة كهرباء .. ورخصة بناء ورخصة هدم ورخصة قهوة أو محل أو سيارة وخلافه ..

ولذلك فإن المطالب العامة المشار إليها هي بمثابة ثورة تغيير في مصر العسكر ورأس المال لكي تصبح مصر المجتمع الديمقراطي المدني . مجتمع المشاركة الشعبية المؤدي عاجلا أو آجلا إلى مجتمع اشتراكي ديمقراطي يتوافر في رحابه الرخاء والخبز والزبد والعمل والحرية .. إذ أن الاشتراكية كحلم وعلم هي قدر مصر الناس والتاريخ والجغرافيا ..

الاشتراكية حل ومستقبل

لقد قرر البشر كل البشر الكادحين والأجراء والفقراء على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وأديانهم فوق الكوكب الأرضي بالإجماع على أن الاشتراكية هي الحل وهي المستقبل لا لأنها ليس فقط حلم وعلم وخبز وحرية ومساواة وعدل اجتماعي وسلام على الأرض . بل لأن الخبرة الذاتية لهؤلاء البشر الكادحين وواقع حالهم وما تعرضوا له من استعباد وسخرة وفقر وقهر وبطالة وجوع وحروب عدوانية وعنصرية لا تتوقف من رأس المال وحكم رأس المال الذي لم يتوقف عند حد الاستعمار باعتبار أن الاستعمار أعلا مراحل الرأسمالية . هذا الاستعمار الذي بلغ ذروته بقيام العولمة الأمريكية الصهيونية باعتبارها أعلا مراحل الاستعمار

.. وهذا ما أدى إلى اشتعال الصراع الطبقي الكوني ضد العولمة الرأسمالية الأمريكية الصهيونية .. هذا الصراع الذي تجلى في مظاهرات الملايين من العمال والفلاحين والكادحين والمثقفين ضد حروب العولمة الأمريكية في فلسطين والعراق وأفغانستان ويوغسلافيا .. وضد اجتماعات العولمة ومؤسساتها الاستعمارية في عواصم العالم..

إن ذلك القرار الكوني للبشرية الكادحة هو قرار أمتنا العربية والمصرية التي ذاقت مرارة حكم تحالف العسكر ورأس المال كما سبق شرحه .. فقد كنا نتمنى أن يبادر بعض المثقفين المصريين بإعداد دراستين الأولى بشأن مقارنة أحوال الشعب السوفيتي في جمهورياته المتعددة في ظل دولة الاشتراكية السوفيتية رغم عيوبها .. وأحواله في ظل حكم الرأسمالية الروسية الآن حيث يعيش الشعب في أوضاع معيشية واجتماعية منحطة إلى أبعد الحدود كما سبق ذكره .. والثانية بشأن أحوال الشعب المصري في ظل دولة الاشتراكية الناصرية رغم عيوبها أيضا وأحواله في حكم مبارك حكم رأس المال .. حيث يعيش الشعب المصري حياة الفساد والاستبداد والبطالة والجوع والمسغبة ..

ولا يعني هذا إلا أن جحيم دولة الاشتراكية السوفيتية ولا جنة دولة الرأسمالية الروسية بالنسبة لحياة الشعب الروسي . ولا يعني أيضا إلا أن جحيم دولة الاشتراكية الناصرية .. ولا جنة دولة تحالف العسكر ورأس المال برياسة الرئيس مبارك ..

ففي مصر الاشتراكية الناصرية فقد شهد الشعب المصري أن ابن العامل وابن الفلاح وابن الفقير وابن الموظف الصغير قد تخرج من الجامعة بالمجان وأصبح ضابط شرطة وضابط جيش ووكيل نيابة وقاضي وقنصل وسفير وأستاذ ومدرس ومعيد في الجامعة .. إن هذه المناصب احتكرها واختص بها أبناء السادة الشباعى الرأسماليين والحكام وأعضاء مجلسي الشعب والشورى من أزلام السلطة وأعضاء الحزب الوطني الحاكم..

ولقد ترتب على هذه الوضعية المتخلفة والقبلية والفئوية والعنصرية توريث المناصب الجامعية للأبناء والأحفاد وهلم جرا .. وتوريث المناصب القضائية للأولاد والأحفاد وهلم جرا ..وتوريث مناصب الشرطة والجيش

للأولاد والأحفاد وهلم جرا .. وتوريث المناصب القنصلية والدبلوماسية للأولاد والأحفاد وهلم جرا..

ولذلك فقد تحول المجتمع المصري إلى مجتمع قبلي سلطوي فئوي تسيطر عليه قبائل الشباعى التي تحتكر الثروة كل الثروة والسلطة كل السلطة..

إذن فما هو نصيب الشعب المصري من ثروته وسلطته بعد احتكار الثروة والسلطة لصالح طبقة رأس المال قليلة العدد ..

إن هذا النصيب القومي من السلطة والثروة لا يستطيع الشعب الحصول عليه إلا في ظل مجتمع ديمقراطي مدني . مجتمع تشارك فيه كل القوى الشعبية في السلطة والثروة .. هذه المشاركة التي سوف تتعاظم رويدا رويدا حتى تتحقق الاشتراكية ..

إن الاشتراكية بوصفها نقيض الرأسمالية هي البديل النهائي للرأسمالية (وفقا لوجهة نظر حزب الشعب الاشتراكي المصري) وسوف تظل الاشتراكية الهدف القريب والبعيد للشعب المصري بمعنى أن كل خطوة تخطوها القوى الوطنية واليسارية في سبيل تحقيق المجتمع الديمقراطي المدني أي مجتمع المشاركة الشعبية هي خطوة في اتجاه الاشتراكية المصرية التي ينبغي أن تظل حاضرة لا تغيب عن بال الكادحين المصريين الذين سوف يواصلون نضالهم حينا بعد حين من أجل تحقيق المجتمع الاشتراكي كهدف نهائي للشعب المصري من خلال نضالهم الذي سوف يكون مشواره طويلا في المجتمع الديمقراطي المدني ..

والاشتراكية المصرية هي اشتراكية العمال والفلاحين والمثقفين وصغار الحرفيين والموظفين وكل الفقراء باعتبارهم القوى المنتجة الأكثر عددا في مصر المحروسة .. وأن مرجعيتها تتجلى في الاشتراكية العلمية .. أي الاشتراكية الماركسية اللينينية .. واشتراكية المسيحيين الأوائل والتراث الإسلامي في القرآن والسنة والظاهرة العمرية الاشتراكية خلال حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومواقف الصحابي أبو ذر الغفاري والاشتراكيات الإسلامية المتعددة ومقدمة بن خلدون وسطورها الرائعة في الاجتماع وعلم الاجتماع ..

ولا ننسى أخيرا التأكيد على أن الاشتراكية هي قدر مصر لأن التنمية والرخاء وما صحب ذلك من تقدم علمي وصناعي وزراعي وإنشائي لم يتم إلا في ظل الاشتراكية ..

فالدولة الفرعونية لم تحقق إنجازاتها ومعجزاتها المشهورة إلا في ظل اشتراكية الأراضي الزراعية .. واشتراكية الخلود والدفن وفي المراسيم والطقوس الجنائزية..

ولم تؤسس مصر الحديثة إلا بواسطة تطبيق اشتراكية أفندينا السان سيمونية التي حققت ثورة صناعية وأخرى زراعية وثالثة إنشائية ومعمارية ورابعة ثورة علمية وتعليمية وإدارية وخامسا ثورة عسكرية بإقامة الصناعة العسكرية وتأسيس جيش مصري مصري مصري لأول مرة منذ عصر الفراعنة ..

وكذلك لم يتحقق لفقراء الفلاحين المصريين الإصلاح الزراعي ولم يتمصر اقتصاد مصر الذي كان يسيطر عليه الأجانب ولم يحدث التعليم المجاني والعلاج المجاني والتأمينات الاجتماعية وطفرة في الصناعة والتصنيع وبعض ملامح العدل الاجتماعي للعمال والفلاحين وصغار الموظفين والحرفيين إلا في ظل دولة الاشتراكية الناصرية .. وبناء عليه

فالاشتراكية هي الحل وهي المستقبل للبشرية كلها لقدرتها على محو الفقر والقهر والتصدي بقوة للعولمة الأمريكية وشرها المستطير

ولذلك فالأجراء والفقراء مشتاقون إلى

حزب اشتراكي ديمقراطي

لا يرقص للقرد في دولته

ميت غمر في يوم الأحد الموافق ٢١ سبتمبر ٢٠٠٣

العامل عطية الصيرفي

المراجـــــع

موسوعة مصر القديمة الدكتور سليم حسن

النيل ترجمة عادل زعيتر إميل لودفيج

البحر الأبيض المتوسط ترجمة عادل زعيتر إميل لودفيج

قصة الحضارة - الجزء الرابع ترجمة محمد بدران ول ديورانت

قصة الحضارة - الجزء الثاني عشر ترجمة محمـد بدران ول ديورانت

حياة محمد الدكتور حسين هيكل

فجر الإسلام أحمد أمين

ظهر الإسلام أحمد أمين

الصعلكة والفتوة في الإسلام أحمد أمين

مقدمة بن خلدون

القرآن الكريم

العهد الجديد "الإنجيل"

محامي الفقراء أبو ذر الغفاري عابد العروسي

الحركات السرية في الإسلام الدكتور محمود إسماعيل

أبو حنيفة عبد الحليم الجندي

مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب علي محمد عمر

تفسير الكشاف الإمام جار الله الزمخشري

تاريخ العرب قبل الإسلام د. السيد عبد العزيز سالم

العدالة الاجتماعية في الإسلام سيد قطب

أبو سفيان الثوري د. عبد الحليم محمود

نقاباتنا في خدمة السلطان عطية الصيرفي

كلمات القرآن الكريم	حسين محمد مخلوف
قرآن كريم . تفسير وبيان	د. محمد حسن الحمصي
المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم	صبحي عبد الرءوف عصر
معجم آيات القرآن الكريم	للدمشقي
مجاهد المفسر والتفسير	د. أحمد محمد نوفل
اشتراكية أفندينا والنشأة العمالية الحديثة	عطية الصيرفي
ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي	
ديوان شاعر النيل حافظ إبراهيم	
عبقرية عمر	عباس العقاد
الناس والعلم والمجتمع	مجموعة من العلماء السوفيت
تاريخ الأقطار العربية	لوتسكي أستاذ تاريخ سوفيتي
البيان الشيوعي	كارل ماركس
الماركسية اللينينية أمام مشاكل العالم غير الأوربي	ترجمة زهير كرم
ماركس وانجلز حياتهما وأعمالهما الفكرية - الجزء الأول	ترجمة عيتاني
المنصوري سيرة مثقف ثوري	أمين عز الدين
تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر	د. رفعت السعيد
البيان الشيوعي	كارل ماركس
مجلة الطريق العدد الرابع سنة ١٩٩٦	
مجلة النهج ربيع سنة ١٩٩٥ سوريا	مركز الأبحاث الاشتراكية

مجلة النهج ربيع سنة ٢٠٠١ سوريا — مركز الأبحاث الاشتراكية

مجلة النهج صيف سنة ٢٠٠١ سوريا — مركز الأبحاث الاشتراكية

الميثاق الوطني

الأوامر العامة والدكريتات الخديوية الصادرة سنة ١٨٨٦

مبادئ القانون الدستوري — د. سيد صبري

القانون الدستوري — د. عثمان خليل

مبادئ القانون الدستوري المصري والاتحادي — د. سليمان محمد الطماوي

رقابة دستورية القوانين — هشام محمد فوزي

الجهاد صناعة الأمة — مجدي أحمد حسين

التقرير السياسي لحزب التجمع سنة ٢٠٠٣

فهـــرس الكتـــاب

الفصل الخامس

الرئيس مبارك يرحب بنظرية السقوف المنخفضة

الفصل السادس

أحوال المصريين في عهد مبارك زفت وطين وخراب



كتب للمؤلف

- دور العمال في المجتمع الاشتراكي والإنتاج
- عمال التراحيل
- نقاباتنا في خدمة السلطان
- عسكرة الحياة العمالية والنقابية
- العمال والفلاحون يواجهون الرصاص والمشانق
- اشتراكية أفندينا والنشأة العمالية الحديثة
- من يحكم مصر المحروسة
- ظهور الطبقة العاملة بين السخرة ورأس المال الأجنبي
- مظاهر حكم العسكر والعسكرة في مصر المعاصرة
- حكم العسكر في مصر من الدولة الفرعونية إلى حكم مبارك
- أيها النمل دخلوا مساكنكم

المؤلف في سطور

- العامل النقابي **عطية الصيرفي** من عمال النقل
- من مواليد ميت غمر سنة ١٩٢٦
- في كتاتيب ميت غمر فك الخط وحفظ القرآن الكريم وحصل على لقب الفائز الأول في حفظ القرآن الكريم
- بدأ حياته العملية صبي حداد ثم صبي نحاس
- ثم عامل في وزارة الزراعة
- ثم عامل في الجيش البريطاني
- ثم عامل بشركة الحلة الكبرى للغزل والنسيج
- ثم كمساري أتوبيس
- اعتنق الفكر الاشتراكي والنقابي منذ عام ١٩٤٥
- شغل عددا من المناصب النقابية
- انتخب عضو بمجلس محلي ميت غمر ورئيسا للجنة القوى العاملة عام ١٩٧٥
- خاض انتخابات مجلس الشعب عدة مرات في عهد **السادات** وفي عهد **مبارك** ولم ينجح بسبب تزوير الانتخابات وحصل على عدد من أحكام محكمة النقض تقضي بتزوير انتخاباته
- انتفضت جماهير ميت غمر ضد الحكومة بسبب تزوير انتخاباته
- سجن واعتقل في العهد الملكي وفي العهد الجمهوري خلال حكم **جمال عبد الناصر والسادات ومبارك**
- كان أحد العمال النقابيين اليساريين والمعارضين الذين منعوا من الترشيحات النقابية بقرار من مباحث أمن الدولة والمدعي الاشتراكي المتضمن اتهامهم بالكفر والإلحاد حدث هذا في عهد **السادات** وفي عهد **مبارك**

رقم الإيداع - ١٧٣٩٧
لسنة ٢٠٠٣

ذلـك الكتـاب

ذلك الكتاب الذي تحتضن سطوره وكلماته موضـوع الاشـتراكية كحلم وعلم وحل ومستقبل للبشرية الكادحة فوق كوكبنا الأرضي قـد كتبه العامل النقابي **عطية الصيرفي** الذي اعتنـق الفكـر الاشـتراكي والنقابي مبكرا في فجر شبابه فـي مصـر الملكيـة . مصـر شبه المستعمرة وشبه الإقطاعية . وكان دافعه إلى الفكر الاشتراكي والنقابي قراءته لسيرة الصحابي الجليل **أبو ذر الغفاري** أول دعاة الاشـتراكية في الإسلام . ولقد رأى أن الاشتراكية والنقابية صنوان .. فالاشتراكية فلسفة الفعل الطبقي ونظرية للتغيير الاجتماعي .. والنقابية العمالية هي الفعل الطبقي ذاته وفعل التغيير الاجتماعي نفسه . مما جعل النقابيـة العمالية مدارس حرب الطبقة العاملة ومنبعا أساسيا للصراع الطبقـي وإضراباته ومظاهراتـه ذات المضـامين الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسية لتحقيق حياة أفضل للطبقة العاملة علـى المـدى القريـب وتحقيق الاشتراكية على المدى البعيد ..

إن هذا الفكر الذي يلتزم به العامل **عطية الصيرفي** اضطـره إلـى إعداد ذلك الكتاب بعد هروب بعض المثقفين اليساريين من الدفاع عـن الاشتراكية بعد اغتيال دولة الاشتراكية السوفيتية التي كانوا يعتمـرون ويحجون إلى عاصمتها موسكو مرات ومرات في العام الواحد . مـع العلم أن الاشتراكية لم تسقط ولكنها اغتيلـت بواسـطة رأس المـال وأمريكا والصهيونية وجواسيسها في دولـة الاشـتراكية السـوفيتية وحزبها ..

وكل سطر في ذلك الكتاب يعرف قصده . بشأن جمهرة الاشتراكية في صفوف الأجراء والفقراء في مصر والعالم وإحاطتهم علمـا بـأن الاشتراكية حلم وعلم وخبز وحرية ومساواة وعدل اجتماعي وسـلام على الأرض وإنصاف للمستضعفين في الأرض ..